

T  
102A

محمد الانصاري

ابن سعيد المغربي  
(٦١٠ - ٦٨٠ هـ / ١٢١٣ - ١٢٨٠ م)  
حياته وآثاره

اطروحة مقدمة للدائرة العربية  
بالجامعة الاميركية ببيروت  
لنيل شهادة الماجستير

مايو (ايار)

١٩٦٦

## تمهيد : هذا البحث

شهدت الاندلس في العصر الموحدى (من منتصف القرن السادس الى حوالي منتصف القرن السابع) فترة من اخصب فترات عطائها الثقافي . ففي هذه الفترة شهدت ظهور اعظم فلاسفتها ومتصوفيهها على الاطلاق مثل ابن طفيل وابن رشد وابن عربي ، وشهدت عددا من كبار شعرائها وشاحيها وزجليها : كالرصافي البلسي وأبي جعفر بن سعيد ، وابن زهر الحفيد والصابوني وابن سهل وابن حيدر كما شهدت رحالة من اشهر رجالها الا وهو ابن جبير ، ونباتيا هو اعظم نباتي في تاريخها واعني به ابن البيطار . وفي حقل التصنيف عامة ظهر علمان يمكن وضعهما مع كبار المصنفين في المشرق والمغرب على حد سواء ، وهما : ابن الابار وابن سعيد .

هذه الفترة - رغم اهميتها الثقافية - لم تحظ بعد بحقها من الدراسة والبحث . واذ قيل انه لا يوجد مبحث واحد يعتني عناية وافية بحركتها الثقافية او بجانب من جوانب هذه الحركة : ادبا او تصنيفا او فكريا او علميا ، لم يكن ذلك تجاوزا للحقيقة . نالحديث عن هذه الفترة ثقافيا اما ان يكون تنممة لاستعراض عام لعصور الثقافة الاندلسية او اعلامها كما جاء في كتاب المستشرق الاسباني " بالنشيا " تاريخ الفكر الاندلسي " او في الجزء الخاص بالاندلس من كتاب " ظهر الاسلام " لاحمد امين ، أو ان يأتي اكمالا لمبحث يتناول التاريخ السياسي للاندلس في عصر الموحدين ويمر بالثقافة في المامة عابرة موجزة ، كما في كتاب " تاريخ الاندلس في عهد المرابطين والموحدين " للمستشرق الالماني يوسف اشباح ، مثلا . ورجال الفكر والعلم الاندلسيون الذين ينتسبون الى هذه الفترة درسوا ضمن ابحاث عامة في تاريخ الفلسفة العربية ، او العلم العربية دون ان تدرس افكارهم وشخصياتهم على ضوء بيئتهم المحلية واحداث عصرهم ، واذ كانت

الدراسات من النوع الاول لها اهميتها وضرورتها ، فان الدراسات من النوع الثاني لا تقل عنها اهمية وضرورة لما لها من شأن في ربط الفكرة والشخصية باطارهما الصلب ، الزمان والمكان .

الا ان ظهور ابحاث عامة تتناول ثقافة العصر او فرعاً من فروعها وتتمكن من التحقيق والضبط ومن التنويم والحكم في الوقت ذاته ، لا يمكن ان يقترب من حيز الامكان الا اذا مهدت لتلك الابحاث ذات الطابع العام والصبغة التثوية دراسات جزئية تهتم بالتحقيق التاريخي او بتحقيق المخطوطات او بتسليط الضوء على شخصية من شخصيات العصر على ان تدرس تلك الشخصية ضمن اطارها الزماني والمكاني . ان تحقيق الهدف الاول مرتبط اشد الارتباط بهذا النوع من الدراسات التي قد تبسّدو قليلة الاهمية اذا فصلت عن اطارها العام ، ولكن النظرة المتمعنة الشاملة لا بد ان تكشف مالها من اهمية حقيقية ومن ضرورة حتمية . وهذا امر تغفل عنه احيانا حتى بعض الاوساط الجامعية التي تميل الى التشديد على اهمية العطاء الذاتي في البحث العلمي . نعم ان التشديد على هذه الناحية حق وواجب وضرورة . فلا خير في دراسات جامعية تجعل من الدارس آلة لتحقيق المخطوطات وجمع الروايات من الكتب القديمة وتثليثها وتبويبها . . . ثم تقف به عند هذا الحد ان ذلك وسيلة لا غاية ، والغاية القصوى هي ان يتعود المرء على الاساليب السليمة للحكم والتقييم حتى يتمكن عندئذ من اعطاء كلمة لها قيمة في شؤون النتاج العقلي ومساائل التراث فيتمكن الناس من ارساء قواعد حياتهم على اسس بيّنة فيما يختص بعلاقة الحاضر بالماضي وفيما يختص بتطلعاتهم الجديدة نحو المستقبل . هنا نهاية المطاف ، وعلى كل باحث ان يتطلع نحوها سواء تمكن من الوصول الى تحقيقها بنفسه او ~~عن طريق~~ ساهم في الجهود المتجهة نحوها . ورأيي الخاص ان اى باحث يقوم بابحاثه في ابراج عاجية بعيدا عن تطلعات امته والانسانية وشؤونهم وشجونهم - شجونها خاصة - هو امرؤ ينقصه الشعور بشرف الالتزام بالمسؤولية . . . الالتزام بمعناه الانساني الابعد ، والمسؤولية بمفزاها الحياتي الاعمق . . . . .

كل هذا حق وواجب وضرورة .

ولكن . . لا بد مما ليس منه بد . اذ ليس بالامكان ان نصل الى الاحكام القائمة على اساس علمي راسخ الا بمثل هذه الابحاث الجانبية الجزئية التي تضيف لبنة الى لبنة في البناء الكبير . واذا كان عصر من عصور الثقافة العربية يحتاج دراسة وبحثا في جوانبه المختلفة فهو عصر الموحدين في الاندلس خاصة .

وهذا البحث المتواضع عن ابن سعيد - أحد كبار المصنفين - هدفه الاسهام البسيط في خدمة لتلك الغاية الكبيرة التي تحتاج حتى تتحقق الى باحثين ذوي بأس شديد . ولقد اخترت ابن سعيد من بين رجالات العصر الموحدي في هذا للبحث الذي اتقدم به الى الدائرة العربية لعدة اسباب ، وهي :

اولا : ان ابن سعيد ، رغم تعدد مصنفاته وتنوع موضوعاتها ، مصنف تغلب عليه الصبغة الادبية في كل ما يكتب . بكلمة اخرى مانه جمع في ثقافته بين فروع علمية كالتاريخ والجغرافيا والفلك وبين الميل الادبي القوي ، وقد التحم هذا الجمع في شخصيته بقوة حتى غدا طالبا مميزا له . وعليه فان ابن سعيد يمثل نمطا ثقافيا له مكانته وميزته الخاصة في العصر الموحدي ، يحسن الالتفات اليه .

ثانيا : ان عددا من كتبه كالمغرب والقدح المعلى ورايات المبرزين والغصون الياضنة تعتبر مصادر اساسية ومهمة في كتابة التاريخ الاندلسي ودراسة الادب الاندلسي في العصور السابقة عامة وفي هذا العصر خاصة . فالمغرب - باعترا ف المختصين في الادب الاندلسي - وثيقة لا تقدر بثمن في دراسة شعر الاندلس وشعرائها ، والقدح هو الأخر وثيقة هامة فيما يختص بتصور الحركة الثقافية خلال الخمسين سنة الاخيرة من حياة الاندلس . ورجل لمصنفاته مثل هذه الاهمية لا بد ان يدرس من جوانبه المختلفة حتى تعرف ميوله واتجاهاته : شخصا وعلميا وادبيا ، ~~فلكيا~~ وحتى يستفاد من مصنفاته تلك بعدئذ على ضوء تلك الميول والاتجاهات ، فان ذلك اسلم وافيء لدقة البحث العلمي وصفاء الحقيقة التاريخية . وما اشد تأثر المصنفات القديمة بميول اصحابها واتجاهاتهم . ولقد اهتم الباحثون بأصحاب المصنفات الهامة التي

تعتمد باعتبارها مصادر اولية في الدراسات التاريخية والادبية وذلك تحقيقا لتلك الغاية ، فدرسوا ميول اصحابها الشخصية واتجاهاتهم النقدية والمذهبية والجنسية اذكر من هذه الابحاث في النطاق الادبي البحث الذي كتبه استاذنا الدكتور جبرائيل جبور عن " ابن عبد ربه وعقده " والبحث الذي كتبه الدكتور محمد احمد خلف الله عن " صاحب الاغانى : ابو الفرج الاصفهاني الراوية " . وهذا البحث عن ابن سعيد يسير ، من ناحية ، في هذا الخط فيحاول الكشف عن اتجاهات ابن سعيد فسي التصنيف والنقد ، وعن ميوله الشخصية ويربط ذلك كله بمصنفاته التي يعطي اهمها التفاتا خاصا . فهو اذن بحث عن " ابن سعيد ومغربه " الى حد كبير ان قصد بذلك هذه الغاية .

ثالثا : وجدت ان ابن سعيد ، هذا المصنف والاديب والرحالة الجغرافي ، قد غمط حقه من الذكر والتعريف . فمعظم المصنفين القدامى الذين هم في مستواه كتبت عنهم التعريفات والابحاث واصبحوا معروفين لدى دراسي الادب والتاريخ . حتى ان الابار - زميل ابن سعيد وشريكه في الجهود التصنيفية - كُتب عنه بحثان : بحث عام عن حياته وآثاره للدكتور عبد العزيز عبد المجيد وبحث خاص يركز على مؤلفه الضخم " الحلة السيرة " للدكتور عبد الله انيس الطباع . وابن سعيد ليس اقل من ابن البار مكانة وشهرة فلقد كان ذا شهرة واسعة في الاندلس والمغرب ثم انه امتاز عن ابن البار برحلاته العلمية المفيدة الى المشرق وبجهوده في حقل الجغرافية .

رابعا : هناك ميزة في ابن سعيد تختفي خلف شهرته الادبية الواسعة . تلك هي شخصيته الجغرافية ~~والصحيحة~~ ، وهذا . ليس من باب تضخيم اهمية ابن سعيد بل ان الادلة التاريخية والابحاث الجغرافية الحديثة تدل على ذلك . فابن سعيد امتداد هام للمدرسة " الادريسية " في الجغرافية بل انه تلميذ الادريسي ، هذا الجغرافي الاندلسي - الصقلي النابه وخليفته . ومن ناحية اخرى فان مذكرات رحلته ، عسن مصر خاصة - تذكرنا - من حيث اهميتها الاجتماعية والتاريخية وطابعها الشخصي معا - بمذكرات مواطنه ابن جبير . وهكذا سنرى كيف اجتمع الادريسي من ناحية وابن جبير من ناحية اخرى في شخصية ابن سعيد الجغرافي الرحالة .

فهذا من حيث الاختيار ، اما من حيث المصادر فقد امكن الاطلاع على اغلب  
مؤلفات ابن سعيد بين مطبوعة ومخطوطة . الكتاب الهام الذي لم يمكن الاطلاع  
عليه هو كتاب " وصف الكون " في الجغرافيا ، الموجود بالمكتبة الاهلية بباريس والمتحف  
البريطاني بلندن ، والذي يعتقد انه مختصر لكتاب كبير باسم " كتاب الجغرافيا في الاقاليم  
السبعة " الا ان ما امكن الاطلاع عليه في هذا المجال مختصر آخر هو " بسط الارض  
في الطول والعرض " ، وان كان من المعتقد ان هذا الاخير اقل جودة من الاول .  
اما ما عدا ذلك فان تصنيفاته المتيسرة لدينا يمكن ان تعد كافية لدراسة نهجه ،  
وعلمه ، وآرائه النقدية ، وشخصيته ، وشعره الى حد ما . الا انها من ناحية اخرى لا  
تعطينا صورة دقيقة ، متكاملة عن تاريخ حياته الطويلة الحافلة . فترجمته فسي  
" القدح المعلى " يبدو ان الاختصار قد اخل بها فجاءت ناقصة ، مبتورة رغم ان  
عذا الكتاب كان قد الف في زمن متأخر بالنسبة للمغرب الذي تضمن ترجمة مائتة له أيضاً .  
ومن هنا اهمية المصادر التي تترجم لابن سعيد والتي يمكن ان تكون موثوقة  
على اساس القرب المكاني والزمانى من موطن الرجل وعصره . وما نقله المقرئ فسي  
النفخ عن احاطة ابن الخطيب يتضح ان هذا الاخير ، الذي يمكن الاعتماد عليه مؤرخا  
موثوقا لحياة ابن سعيد ، قد اولاه اهتماما كبيرا وانه ترجم له في الاحاطة باسهاب  
الا انه عند الرجوع الى مخطوطة الاحاطة تبين ان ترجمة ابن سعيد فيها اوجز  
بكثير مما ذكره المقرئ مما يشير الى امكانية نقل المقرئ عن مخطوطة للاحاطة اذق واكمل  
من هذه المخطوطة التي بين ايدينا . ولا داعي لان يشير هذا الاختلاف الكثير من الشك  
فالحقائق الاولى مشتركة بين المخطوطة وبين ما نقله المقرئ والفرق في الحكايات  
والاشعار وليس في الاخبار المهمة . وايا كان الامر فان جلاء هذه المسألة من مسؤولية  
المهتمين بتحقيق الاحاطة ومقارنة نسخها . اما فيما يختص ببحثنا فقد اعتمدنا الاحاطة  
فيما اورده ورجعنا الى المقرئ فيما اسهب في نقله . والى جانب اعتمادنا ~~على~~  
على المقرئ في نقله عن ابن الخطيب ، اعتمدنا على المادة القيمة التي اوردها من

كتب ابن سعيد الضائعة وعلى الاخص ديوانه . وبصورة عامة يمكن القول ان النفع  
اهم مصدر يستند اليه هذا البحث بعد كتب ابن سعيد نفسه .

وبالاضافة الى ذلك ، يمكن وضع وفيات ابن شاكرو في عداد مصادرنا  
المعتمدة نظرا لتقدم زمنه (كتب سنة ٧٥٤هـ) ونظرا لكونه مشرقيا - فهو مصدرا  
المشركي الاهم - ونظرا لانه يخالف المصادر المغربية في مسألة وفاة ابن سعيد  
اما مسالك الابصار لابن فضل الله العمري فتتجسر اهميته في ايراد اشعار لابن  
سعيد لم ترد في كتبه او في النفع ، وفي نقله لفصل مهم كتبه ابن سعيد في المقارنة  
بين المشرق والمغرب ولم يصل اليها منه غير شذرات متفرقة في النفع . ويفيدنا  
"المنهل الصافي" لابن تغري بردي في تصويره للعلاقة الحميمة بين ابن سعيد  
وشاعر مصر الكبير في تلك الفترة البهاء زهير وفي تأكيده لوفاة ابن سعيد بالشهر واليوم  
حسب رواية ابن شاكرو في الوفيات . ويمثل الديباج المذهب لرب فرحون مصدرا مهما  
بالنسبة للتحقيق في ثقافة ابن سعيد الدينية ، بينما يسعفنا تاريخ علماء بغداد  
لابن رافع السلمي باطلاعنا على بعض ظروف دخوله الى بغداد .

وفيا يختص بالتصور العام لعصر ابن سعيد ثقافيا اعتمدنا كتبه وخاصة المغرب  
والقدح بالاضافة الى مصنفات زميله ابن البار كالتكملة "والمقتضب من تحفة القادم" ،  
وكتاب الغبريني "عنوان الدراية" الذي يصور نشاط الاندلسيين في تونس بعد النكبة .  
اما فيما يتعلق بالتاريخ السياسي للعصر فليس ثمة كتاب معين يهتم بهذه الناحية  
وكل ما وصل اليها من اخبار تلك الاحداث هو الشذرات المبعثرة في الكتب التي صنف  
خصيصا لتاريخ المغرب والتي تذكر اخبار سقوط المدن الاندلسية واحوال امرائها  
المحليين من حيث علاقتها بدولة الخليفة الموحد المغربي وسجل اعماله وحروبه  
والثورات التي قامت ضده . وينطبق هذا الوصف على اهم مصدرين عن تلك الفترة  
وهما "البيان المغرب" لابن عذارى الذي كتب في اواخر القرن السابع الهجري وسجلت  
مادته بشيء من الاناة والتفصيل وكتاب "روض القرطاس" لابن ابي زرع الذي كتب في اواخر  
الربيع الاول من القرن الثامن الهجري عهد الدولة المرينية . اما ابن خلدون فقد

اعطى شيئا من الاهتمام لتلك الاحداث عندما ذكرها استطرادا عند حديثه عن ملوك الطوائف في الجزء الرابع ثم عاد الى الحديث عنها بعد ما يزيد عن قرن ونصف من وقوعها في الجزء السادس . وقد تم الاعتماد على هذه المصادر الثلاثة مع التفات خاص الى اقدمها واقرها من مسح الاحداث الا وهو " البيان المغرب " . ونظرا لان احداث هذه الفترة على علاقة قوية بتحريك الامارات الاسبانية الغازية ، فقد <sup>اعتمدت كتاب يوسف اسحاق في تاريخ المرابطين والموحدين</sup> يمتاز بأنه اعتمد على الروايات الاسبانية ونسقها مع اخبار المصادر العربية .

وفيما يتعلق بفهم طابع الادب الاندلسي في العصور السابقة ، والظواهر المصاحبة له ، والتيارات البارزة فيه فقد اعتمدت على كتاب الدكتور احسان عباس " تاريخ الادب الاندلسي " بجزئية ، باعتباره اشمل المراجع وادفها واكثرها قربا من الروح المنهجية .

- - - - -

وفي الختام اود ان اعبر عن بالغ شكري وتقديري لاستاذي الدكتور احسان عباس الذي لولا اشرافه التوجيهي على سير البحث ، ~~ومساعدته~~ ومساعدته الكريمة المطلقة في مجال تهيئة المصادر مخطوطة ومطبوعة ، لما امكنني اتمام هذه الرسالة راجيا من جميع اساتذتي الكرام حسن القبول .

محمد الأنصاري

مايو ١٩٦٦





## مقدمة عصر ابن سعيد وبيئته

(النصف الأول من القرن السابع الهجري - النصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادي)

سألتزم في هذه المقدمة خطة الانتقال من العام الى الخاص ثم الى الاخص في سبيل اعطاء صورة واضحة تصلح ان تكون اطارا لدراسة ابن سعيد ، فأحدث أولا ، حديثا موجزا عن البيئة الكبرى التي عرفها المترجم به في المغرب والمشرق ، ثم انتقل الى الحديث عن الاندلس ، بيئته الاصلية التي جاز ارجاءها في دور مبكر من حياته ثم اتناول بالحديث بيئة اشبيلية التي شهدت نشأة ابن سعيد والدور الثقافي في عهده وشبابه ، ثم اصل من ذلك الى البيئة العائلية التي تمثلها اسرة بني سعيد عامة .

### (١) صورة عامة للبيئة السياسية والثقافية في المشرق والمغرب :

جال ابن سعيد في اقطار كثيرة من العالم الاسلامي ، واتصل بالعديد من امراءه وعلمائه ، وعاش في كثير من مراكز ثقافته مطلعا ومسجلا . ولقد اثرت حوادث عصره في حياته تأثيرا مباشرا قويا بحيث لا يمكن تتبع تاريخ حياته ، وفهم نتاجه ، وتفسير طابعه العلمي والادبي دون الالتفات الى عصره في احداثه الهامة وخصائصه الثقافية العامة والنزى الاجتماعي السائد في العالم الاسلامي الذي زاره ، وهو زى يمثل - رغم تباين الالوان المحلية ، وحدة ثقافية حضارية ذات سمات متقاربة بحكم التفاعل المستمر القوى بين اجزائه .

ولقد كان عصر ابن سعيد ، القرن السابع الهجري ، عصر تحول وتغير في مختلف مناحي الحياة : تغيرت فيه خارطة العالم الاسلامي بل حدوده ذاتها . . . . . واختفت دولات واسر حاكمة وانتقلت مراكز الثقل السياسي والثقافي من مدن الى اخرى ، بل من اقطار الى اخرى ، وبرزت على صعيد الادب والفكر والفن والاخلاق والاجتماع اتجاهات وخصائص لم تكن موجودة او متبلورة من قبل ، ويكاد الحديث عن عصر ابن سعيد في هذه المقدمة الموجزة ان يكون امرا بالغ العسر ولذلك فان اجمال بعض المظاهر هو كل ما يسعف عليه المقام ، راجيا الا يسلمني ذلك الى تعميمات مخلة بالدقة العلمية .

١ — شهد هذا القرن في مطلعہ دولتين كبيرتين في العالم الاسلامي : الايوبية التي كانت تتمركز في مصر والشام وتمتد نفوذها الى بعض انحاء الجزيرة والعراق ، والموحديّة التي كانت تحكم الاندلس والمغرب والمغرب الاوسط (الجزائر) وتونس . وهاتان الدولتان اللتان ستشهدان مصرعهما حوالي منتصف القرن ، هما وليدتا ردة الفعل الاسلامية تجاه الاوضاع المضطربة اثر انهيار دول الخلافة والامارة الكبرى او تفسخها ، ويعيد اشتداد الضغط الخارجي المتمثل في الحملات الصليبية (منذ ٤٩٠هـ / ١٠٩٥) وفي ازدياد خطر الدويلات النصرانية في اسبانيا خلال فترة القرن وربع القرن المنصرمة . فالدولة الايوبية (٥٦٥ — ٦٥٠ هـ / ١١٦٩ — ١٢٤٩) نشأت امتدادا لدولة عماد الدين زنكي السلجوقية التي قامت باعباء الحرب في الحملة الصليبية الثانية (٥٤٥ هـ / ١١٤٧ م) كما انها خلفت الدولة الفاطمية في مصر التي لم تتمكن من مواجهة الخطر الخارجي بسبب التفكك الداخلي . وقد استطاعت الدولة الايوبية ان توحّد مصر والشام وان تقف في وجه الحملات الصليبية المتكررة وتهزم الصليبيين نهائيا وان ترعى نهضة ادبية علمية في مراكز دولتها الكبرى كالقاهرة ودمشق وحلب . وكما وقف الايوبيون في وجه الصليبيين ، وقف الموحدون في وجه الاسبان ردحا من الزمن (٥٣٩ — ٦٢٤ هـ / ١١٤٣ — ١٢٢٦ م) واستطاعوا اقامة دولة مغربية كبرى تشمل الاندلس والمغرب والمغرب الاوسط وتونس وقصصا من افريقيا الغربية . وفي ظل الحكم الموحدى الذى استطاع اشاعة الاستقرار والثقة ، شهد المغرب الاسلامي ذروة نهضته الفكرية التي تمثلها شخصيات كابن طفيل (٥٨١) وابن رشد (٥٩٥) وابن جرج (٦٠١) وابن عربي (٦٢٨) . الا ان ردة الفعل القوية التي اسهمت في خلق هاتين الدولتين مالبثت ان اصبحت باعيا واسترخاء ، فقد شهدت الدولتان صراعا داخليا عنيفا سهل للقوى المحلية المنافسة والقوى الخارجية الغازية الفضا عليهما . فعلى صعيد دولة الموحدين اشتد الصراع على الحكم بين امرائها واشياخها واضطرت للتراجع عن الاندلس امام التورات المحلية والزحف الاسباني حوالي نهاية الربع الاول من هذا القرن . وهذا ما يستلزم الحديث عنه بشيء من التفصيل عند التركيز على الوضع في الاندلس خاصة .

اما الدولة الايوبية فما لبثت ان تحولت الى امارات متناحرة اضطرت تدريجا للسي الاستسلام لسلطان المماليك المتعالم (منذ حوالى سنة ٦٥٠ هـ) عندما بدأ خطر المغول يبدو للعيان من اقصى الشرق . . .

وقد برز ضعف العالم الاسلامي بصورة صارخة عندما سقطت بغداد عند اقدام هولاكو سنة ٦٥٦ هـ . وكان ذلك السقوط ، الى جانب مغزاه السياسي ، نكبة ثقافية ونفسية برزت آثارها في العالم الاسلامي كله . وكان من ضمن ما عنته تهديد التراث المكتوب في الصميم . ولولا ان دولة المماليك تمكنت من توحيد مصر والشام وايقاف المد التتري في عين جالوت سنة ٦٦٠ هـ ، لكان من المحتمل ان يتغير الوجه الحضاري للمنطقة وتعرض آثار الثقافة والعمران الاسلاميين لمصير غامض . ولكن قيام هذه الدولة في القطرين اللذين رعيا حركة العلم فسي العهد الايوبي ادى الى استمرار ظاهرة التأليف والتصنيف بالرغم من ان امراء المماليك لم يكونوا كالايوبيين علما وانفتاحا على الثقافة العربية وتشجيعا للعلماء .

٢ - وفي هذا الجو السياسي كان موقف امراء المغرب من موحدين وحفصيين ازاء الحركة العلمية موقفا مشجعا وسأحدث عن ذلك تفصيلا بعد قليل ، اما في المشرق فكان الموقف مشابها فقد انفتح الايوبيون على الثقافة العربية الى حد بعيد حتى نبغ منهم المتأدبون والشعراء كالملك الناصر صاحب حلب والناصر داود صاحب الكرك ، وفي ظلهم نشط في مصر الفقه السني بعد ركوده في العصر الفاطمي كما ازدهر الشعر والادب في كل من القاهرة ودمشق وبرزت شخصيات ادبية كابن سناء الملك (٦٠٨ هـ) وابن الفارض الشاعر الصوفي (٦٣٢) وابن مطروح (٦٤٩) وابن ابي الاصب (٦٥٤) والبهاء زهير (٦٥٦) وكمال الدين بن العديم (٦٦٠) ونجم الدين الدمشقي (٦٧٧) وابي الحسين الجزاؤي (٦٧٩) . وسيجتمع ابن سعيد بمعظم هؤلاء ويكون معهم صداقات علمية وشخصية . وفي ظل الحكم المملوكي ركزت الحياة الثقافية بعض الشيء ، ولكن الاستقرار الذي ساد المنطقة بعد انتهاء المدين الصليبي والمغولي ساعد على التوفر للبحث والتفتيح فبدأت تظهر المصنفات الشاملة والموسوعات الضخمة .

والطابع العام للحياة العقلية في هذا العصر غلبة النزعة السنية واشتداد قوتها في الدين والفكر ، وسيطرة الشكل والزخرف على حساب الفكرة والشعور في الآداب والفنون ، وقوة الميل نحو الجمع والنقل والاختصار والشرح في حق التأليف والتصنيف .

وقبل اطلالة هذا القرن كانت الاحداث الهامة التالية قد تمت في حياة الفكر العربي :

أ - الغي صلاح الدين المذهب الشيعي في مصر وجعل من المذهب السني مذهباً رسمياً للدولة تدافع عنه ، وتعلمه في معاهدها وتلتزم به وتذيعه ، وقد شفع ذلك بمقاومته العنيفة لفرقة الاسماعيليين الباطنية في شمال سوريا .

ب - استشهد السهروردي صاحب الفلسفة الاشراقية على يد الظاهر بن صلاح الدين في حلب بضغط شديد من فقهاء السنة .

ج - فكب ابن رشد على يد الخليفة الموحدى ابي يوسف المنصور ، بضغط شديد ايضا من المحافظين فنفى ومنعت كتبه من التداول . ورافق ذلك وقوف الدولة الموحدية ضد الفلسفة وفقه الفروع وتشجيعها الرسمي لعدم الحديث وفقه الظاهرية .

وقد سبق بروز هذه الاتجاهات الهامة خلال القرن السادس ، انتصار تفكير الغزالي وسيادته ونصرة الدولة السلجوقية له وتبنيها لارائه . كما مهد لتلك الاتجاهات ورافقها جو من الحماس الديني ضد الصليبيين والاسبان في الخارج وضد الامارات والفرق غير السنية التي لم تتمكن من الوقوف في وجه الاعداء من ناحية والتي كانت تميل من ناحية اخرى الى انماط من التفكير لا ترضى عنها النزعة الدينية المستقيمة الصارمة كتشجيع الفلسفة وتبني الاراء الباطنية .

وهكذا فما ان اطلد القرن السابع الا والاتجاه السني المحافظ ينجح بملكه في قوة وثقة على ارض الحياة الفكرية العربية من بغداد وحلب الى اشبيلية وتونس . وقد ادى هذا الاتجاه الى ازدهار الدراسات القرآنية ضمن الاطار السني والى زيادة الاهتمام بالحديث النبوى باعتباره مصدراً هاماً للسنة والى تشجيع المدارس الدينية والمحافظة على كتب التراث الديني والتاريخي . وكان من الطبيعي ان يؤدى هذا الاتجاه الى تقوية نفوذ الفقهاء على الصعيدين الثقافي والسياسي على حد سواء .

٣ - وعلى صعيد الفن ، يمكن القول ان الفن الاسلامي في هذا العصر بلغ ذروته كما تمثل في الانار التصويرية والزخرفية ، الايوبية والملكوكية . وكما تمثل ايضا في الانار المعمارية المشهورة كمعارك دمشق وحلب ، وكجامع السلطان حسن في القاهرة ، وجامع اشبيلية ذى المنارة المعروفة بالجبرالدا ، و " القصر " الاشبيلي . والخاصة المميزة للفن - في هذا العصر بالذات - ميله الشديد الى الزخرف ، تلك الظاهرة التي عرفت عن . . . / . . .

المدرسة الايوبية الفنية في الشام والتي انتقلت الى مصر في عهدى الايوبيين والمماليك (١) وكذلك تنفذ المدرسة الاندلسية مع الايوبية " في الاستناد على قاعدة الاغراق في الزخرفة لاطهار ما فيها من سحر وجمال (٢) .

وقد ادى هذا الميل الزخرفي الى غلبة الشكل على الموضوع فاعتنى الفنانون - حتى في تصويرهم للبشر - بتزيين الملابس ونقشها بالالوان البهيجة دون ان يلتفتوا الى اظهار الانفعالات والاحاسيس على الوجوه التي اتصفت بالجمود وعدم المشاركة في جو الصورة المحيط بها .

وهذا الطابع الشكلي الزخرفي ذاته غلب على الادب وعلى التوجيه النقدي . وان اهتمام الشعراء المصنفين بالصورة البيانية والمحسنات البديعة وميل النقاد الشديد لشرح وتعميد هذه المسائل لدليل واضح على غلبة هذه الظاهرة . وسنرى مدى تأثير ذلك على ابن سعيد في نقده وشعره واعماله التصنيفية الاخرى من خلال التيار النقدي والمذهب الشعري الذى يتحرك في اطاره .

٤ - وفي حقل الانتاج الثقافي عموما اختلفت الظواهر التجديدية او كادت واصبح العقل اميل الى التقليد وقد ادت الى ذلك عوامل كثيرة ابرزها الاعياء الذى اصبحت به الحضارة العربية بعد قرون ستة من الفعل الحضارى المتنوع ، واستنزاف الطاقة في فتن داخلية وحروب خارجية ، وسيادة النزعة السنية التي ترفع بطبعها من شأن القديم . ثم ان تراكم التراث الثقافي عبر العصور واتحاده مع عامل الزمن جعل منه كائنا حضاريا له جلاله ان لم نقد قدسيته ، في نظر العقول في العصر الذى نتحدث عنه ، وهو عصر كما تبين لنا - سادت فيه الحركات " الاحيائية " على صعيد العمل السياسي والنشاط العقلي - وتمثلت في حركة صلاح الدين وما خلفته من آثار وفي حركة ابن تومرت وعبد المؤمن الموحدى وما ادت اليه من نتائج .

وهكذا اصبح هدف النشاط العقلي فهم التراث والتلاؤم معه وتقليده - وان وجدنا بعض المذاهب في الادب خاصة - تقول بافضلية الجديد او مساواته مع القديم فما ذلك الا

... / ...

(١) زكي حسن ، فنون الاسلام ، ص ٤٨ - ٤٩ - ٥٠

(٢) فيليب حتي ، تاريخ العرب (مطول) ص ٧٨٢ - ٧٨٣

من ~~هذه~~ شدة الاحساس بوطأة ذلك القديم . والواقع ان انصار امثال تلك المذاهب كانوا يفكرون في تجديدات شكلية كالاسراف في البيان والبديع ، ولم يكونوا يعبرون عن معارضة جوهرية للانماط السائدة الموروثة في المعطيات الفكرية الرئيسية .

ونتيجة لذلك سنرى كيف ان هذا العصر سيكون بداية لتلك الاعمال الجمعية التمهيدية الكبرى التي تشبه الموسوعات والاعمال التلخيصية الموجزة والاعمال التفسيرية التي تهتم باعطاء الشرح . وكل هذه الاعمال هدفها الاكبر خدمة التراث وتسهيل الطريق امام العقل المعاصر ليفهمه ويتلاءم معه ، ذلك العقل الذي كان همه الاكبر طلب " القاعدة " و " القانون " المستخرجين من كتب القدماء ، وعوان حاول التجديد في الفروع والتفاصيل - ومن هنا يمكن تفسير ولول العقل في هذا العصر والعصور التالية بالجزئيات وصغائر الامور - فهنا فقط يمكن التجديد .

والواقع ان الفاء نظرة عجل على امهات الكتب التي ظهرت في القرن السابع تكفي لاقناع المرء بانتشار هذه الظاهرة وسيطرتها على الحياة الثقافية . ففي حقل حفظ النصوص الشعرية والنثرية وجمعها وتبويبها لدينا مجهود ابن سعيد نفسه ( ٦٨٥ ) في كتابيه الضخمين " المغرب " و " المشرق " اللذين امضى في سبيلهما عمره متنقلا مسجلا : في هذين الكتابين حاول ابن سعيد تقديم نتائج الاقطار الاسلامية قطرا قطرا ومدينة مدينة في ميدان الشعر خاصة منذ بداية ظهور النتائج الشعرية فيها حتى عصره .

وفي حقل الدراسات القرآنية ظهر " تفسير " الفخر الرازي ( ٦٠٦ ) و كتابه في " اعجاز القرآن " كما صنف ابن ابي الاصبغ العدواني ( ٦٥٤ ) كتابي " البرهان في اعجاز القرآن " و " بدائع القرآن " .

وفي ميدان اللغة والبلاغة والنقد ، قام ابوالبفاء العكبري ( ٦١٦ ) بـ شرح ديوان المتنبي ومقامات الحريري ، وعمل السكاكي ( ٦٢٦ ) على ايجاز وتقييد كل من الصرف والاشتقاق والنحو والمعاني والبيان والعروض في كتابه " مفتاح العلم " الذي شغل الشراح والملخصين فترة طويلة من الزمن ، وفي الوقت ذاته كان ضياء الدين ابن الاثير ( ٦٣٧ ) يلخص الذوق الفني والبراعة الفنية في كتابه " المثل السائر " الذي وصف بانه " بمنزلة اصول الفقه لاستنباط ادلة الاحكام " . كما قام ابن ابي الحديد ( ٦٥٥ ) بشرح نهج البلاغة وعمل الزنجاني ( ٦٥٥ ) على وضع شروح وملخصات في الصرف والنحو ، وقام ابن مالك ( ٦٧٢ ) صاحب " الالفية " بعمل مماثل في ميدان النحو .

اما في حقل التاريخ العام وتاريخ الدول فقد ألف عبد الرحمن بن الجوزي (٥٩٧) كتابه "المنتظم" ووضع عز الدين بن الاثير (٦٣٠) موسوعة الهامة "الكامل" وأرخ عبدالواحد المراكشي (٦٢١) لآخبار الدولتين المرابطية والموحدية في كتابه "المعجب". وفي حقل التراجم وضع ياقوت الحموي (٦٢٦) "معجم الادباء" - بالاضافة الى موسوعة الادبية - الجغرافية "معجم البلدان" - كما وضع ابن شداد (٦٣٢) كتاب "النوادر السلطانية" في سيرة صلاح الدين وترجم جمال الدين القفطي (٦٤٦) للعلماء على اختلاف منازلهم من اطباء وفلاسفة ولغويين في كتابيه "اخبار العلماء" و"انبا النحاة" كما ترجم للعلماء ابن ابي اصيبعة (٦٦٨) في "معيون الانبا" وفي نطاق التراجم ايضا الابار البنسي (٦٥٨) اهم مصنفاة مثل: "تكملة الصلة" و"المعجم" و"الحلة السيرا". وفي اواخر القرن كان ابن خلكان (٦٨١) يترجم لمشاهير العلماء والوزراء والشعراء منذ فجر الاسلام حتى زمنه في موسوعة الضخمة "وفيات الاعيان".

ومن الظواهر الثقافية الاخرى التي يحسن الالتفات اليها في هذا العصر مايلي :

- أ- استمرار اشراء الدولة على معاهد العلم - الديني خاصة - وتشجيعها لها . وقد تمثلت هذه الظاهرة في المدارس الايوبية في مصر والشام والمدارس الموحدية في الاندلس ومراكش على حد سواء . وقد ادى ذلك الى ارتباط النشاط الثقافي ارتباطا قويا بالحكم واتجاهاته .
- ب- زيادة العناية بالمكتبات الخاصة والعامة لحفظ كتب التراث المتراكم . وقد اعتنت المعاهد الرسمية بهذه الناحية كالمدرسة الفاطمية في القاهرة والدامية ببغداد ، بالاضافة الى الجهود الفردية في جمع الكتب الثمينة كجهود كمال الدين بن العديم والقفطي .
- ج- قوة الاحتكاك بين رجال العلم : وحدث احتكاك بين رجال العلم المسلمين في هذا القرن بشك واسع ، وكانت الدواعي متعددة : فالذين كانوا يجمعون نصوص الشعر والنثر والروايات جالوا في الاقطار لجمع مادتهم ، والذين تعرضت مدنهم للغزو كالقرطبيين والبلنسيين والاشبيليين والبغداديين رحلوا الى مراكز ثقافية اخرى التجاء وابتغاء للرزق . كما كان الرحالة من الجغرافيين يجوبون الاقطار معرفين الناس ببلدان العالم محبين اليهم الرحلة كالسائح الهروي (٦١١) صاحب "الاشارات الى معرفة الزيارات" وعبد اللطيف البغدادي



( ٦٢٩ ) ، والقزويني ( ٦٨٢ ) والعبدري ( ٦٨٨ ) . وقد ساعد ذلك كله في تقوية التفاعل بين اجزاء العالم الاسلامي ، وابتعد الاشخاص اثرا في هذا الميدان اولئك العلماء المغاربة الذين رحلوا الى المشرق حيث عرفوا اهلهم باحوال المغرب ثم عادوا الى بلادهم لينقلوا اليها صورة عن المجتمع الشرقي والثقافة المشرقية . ولربما كان ابن سعيد في طليعة هؤلاء العلماء المغاربة في هذا القرن . فلقد عرف المشاركة بالمغرب عبر كتابه الكبير " المغرب " وكتابيه الشعري المختصر " رايات المبرزين " كما انه ألف كتاب " المشرق " وكتاب " الغصون " اللذين يحويان مادة عن المشاركة وادبهم .

## ( ٢ ) الاندلس في عصر ابن سعيد

بين ٥٩٥ - ٦٤٦ هـ / ١١٩٩ - ١٢٤٨ م

### ١ - تمهيد :

هذه الحقبة التي سنخصصها بشيء من التفصيل - تمهيدا لدراسة ابن سعيد ، ومحاولة لفهم الجووالسياسي والثقافي الذي نشأ فيه وتأثر به - تقع بين حادثين زمنيين مهمين يجعلان منها حقبة متميزة بذاتها . اما الحادث الاول فهو وفاة الخليفة الموحدى العليم <sup>ابن</sup> يوسف يعقوب المنصور ، قاهر جيوش الاسبان في معركة الارك ( ٥٩١ ) - آخر معركة ثبت فيها الوجود العسكرى الاسلامي في اسبانيا - والقيم على ازهى حركة فكرية شهدها الغرب الاسلامي - حركة ابن طفيل وابن رشد - سنة ٥٩٥ هـ ، وتولي ابنه محمد الناصر اللين العريكة ، المفتقر الى الحزم الحكم مكانه ، هذا الخلف الذى سيقود جيوش الموحدين الى الهزيمة المنكرة في موقفه العقاب ( ٦٠٩ ) - بداية النهاية في التاريخ الاندلسي - والذى سينعزل بعدئذ في قصره بمراكش ليتلاشى في حياة لاهية <sup>(١)</sup> . اما الحادث الثانى فسقوط اشبيلية - عاصمة الاندلس الموحدية - في يد فرديناند الثالث ملك قشتاله ورحيل اميرها الموحدى <sup>(٢)</sup> ابي عبد الله بن ابي العلاء ادريس المأمون عنها - مع جموع غفيرة من اهلها سنة ٦٤٦ .

... / ...

(١) ابن ابي زرع ، روض القرطاس ، ص ١٦٠

(٢) ابن خلدون ، كتاب العبر ، ٦ / ٢٥٨

أى أننا ننسحب الاندلس في عهد سقوط مدنها الرئيسية — عدا غرناطة — في يد الاسبان ونسحب اشبيلية العربية خلال سنينها الخمسين الاخيرة منذ انتهاء آخر عصر ذهبي لها بوفاة المنصور حتى سقوطها الاخير . والواقع ان هذه اللوحة الختامية من المشهد الاندلسي لوحدة صارخة الالوان ، صاخبة الحركة ، متشابكة الاضواء والظلال . انها توهج الجذوة قبيل الانطفاء ، بل قل انتفاضة النزع الاخير : ولذلك برزت فيها المتناقضات بشكل حاد وفي حركة سريعة متلاحقة ، واخذت جوانب الحياة تؤثر في بعضها البعض بصورة دينامية فعالة لاتشاهد في السنين المسالمة العادية . من هذه التأثيرات وارتفاعات الهامة العلاقة القوية التي ستنشأ بين الجانب الثنائسي والجانب السياسي الحربي ، لا من حيث التأثير غير المباشر كاغناء الادب — مثلا — باحداث السياسة والحرب فحسب ، بل من حيث التقرير الحاسم لمصائر رجال الثقافة المشاركين في الاحداث او الراغبين عنها على حد سواء . وستغلف هذا التفاعل بوضع اجتماعي نفسي تهتز فيس — المتاييس اهتزازا عنيفا حتى ليكاد المرء — من شدة تداخل الخطوط — لايميز بين " فضيلة " و " رذيلة " وبين " ايمان " و " كفر " حتى تلد الحواجز التاريخية الفاصلة بين حضارتين متميزتين ستنال نصيبها من الهدم او الزحزحة : في هذا العصر سيلجأ امير موحدى من سلالة عبد المؤمن — كأي زيد بن محمد بن أبي حفص <sup>(١)</sup> — الى مملكة اراجون الاسبانية ليعتق النصرانية في سبيل استرجاع مقعد حكمه المهتز في بلنسية ، وسيغادر امام في الحديث حلقة تدرسه — كما فعل ابو الربيع الكلاعي <sup>(٢)</sup> — ليفقد كتائب المحاربين في موقعة انيشة قرب بلنسية ويقتل في المعركة ، وستنتقل كتيبة نصرانية بامر من ملك قشتالة الى معقل الموحدين في مراكش لتحمي امير " المؤمنين " المأمون <sup>(٣)</sup> من شرور افراد عائلته ومستشاريه من اشياخ الموحدين ، وسيقتل الفقيه ابن الياسمين الاشبيلي — وهو من اعلام العارفين بالوثيقة <sup>(٤)</sup> — قتلة مخزية في فضيحة " غلمانية " ، وسيقطع ابن الابار — كبير مصنفي العصر — ويحرق مع مصنفاته بسبب وشايات على الاربع <sup>(٥)</sup> ،

...../..

(١) — ابن عذارى المراكشي ، البيان المغرب : ٢٧٠ / ٣

(٢) — كتاب العبر : ٢٨٣ / ٦

(٣) — البيان المغرب : ٢٦٤ / ٣

(٤) — ابن سعيد المغربي ، الغصون الياض ، ص ٤٢ — ٥٠

(٥) — المقرئ ، ازهار الرياض ٢٠٧ / ٣

وسيتهم قاغي اشبيلية في عهد المنصور والناصر بانه " غير حافظ للناموس الشرعي بكثرة تغزله واشتহার مقطعاته وانهماكه في العشق " (١) وسينتقل فجأة عالم زاهد متواضع - كأبي بكر عزيز بن خطاب - الى زى اصحاب السيوف واخذ الاموال من غير وجهها وسف الدماء (٢) في اماره مرسية حيث سينتصر عليه ويغتاله ابن مردنيش وهو من ضيع ملكه في بلنسية ! بل ستقلب الدولة الموحدية على مؤسسها الفكري وابيها الروحي - المهدي بن تومرت - لتتهمه على لسان اميرها المأمون بالدس والكذب ولتبطل مهاديته وتحلل من التزامها بعبادته (٣) في جوارها بي دموى تعلق فيه آلاف الرؤوس على الجدران وتتعفن فاذا بها ذات روايح " عطرة " (٤) في انف امير المؤمنين !

## ٢ - اهمية الدولة الموحدية في حياة الاندلس :

لسنا بصدد الحديث عن الدولة الموحدية من حيث نشأتها وتطورها ومكانتها في سير التاريخ ، فالتوسع في ذلك خارج عن نطاق هذا البحث . ولكن الذي يهمنا من هذا كله - انتبه الى الامور التالية :

أ - ان هذه الدولة بربرية الاصل نشأت في المغرب الاقصى في عصر كان العالم الاسلامي يشهد فيه حركات احيائية على صعيد الفكر الديني والعمل السياسي هدفها محاربة الانحلال الاجتماعي والخلقي ومواجهة الهزائم التي حلت بالعالم الاسلامي منذ بداية الحملات الصليبية او القضاء على الامارات المتناحرة التي سبقت زمن تلك الحملات وكانت من اسباب نجاحها . وقد كانت تلك الحركات تغلب الطابع العقيدى وتقوم بقيادة دعاة دينيين او قادة سياسيين عسكريين عليهم مسحة الدعاة ولا ترتبط في اساسها - الفكري على الاقل - بحقوق عائلات معينة في الحكم كما فعل العباسيون والفاطيون من قبل .

و ادولة الموحدين من الامثلة البارزة لمثل هذه الحركات . فقد قامت على اساس عقيدى مرتبط بشخصية المهدي ابن تومرت وقادها رجال يرتبطون في الدرجة الاولى برباط عقيدة معينة . .

... / ...

- 
- (١) - الخصون ٩١ - ٩٢
  - (٢) - ابن سعيد ، القدح المعلى ، ص ١٤٦
  - (٣) - الحلل الموشية ، ص ١٣٧
  - (٤) - المصنف السابق ص ١٣٨

وكانت قاعدتها - بالرغم من طابعها القبلي - تتحرر بدافع من الحمية الدينية والرغبة الإصلاحية . وتقوم دعوة المهدي ( ٤٨٥ - ٥٢٤ ) على اصول اشعرية ومعتزلية وتحمل طابع الخزالي في التجديد الديني والدعوة الى الرجوع الى اصول الدين ، كما انها تقرب من المنطلق الشيعي في المهدوية والعصمة . وهي من حيث نتائجها العملية تدعو الى <sup>(الاسلام)</sup> "الصحيح" قولا وعملا بتأكيدا على ضرورة العمل والدعوة ، والاعتماد على اصول الدين من كتاب وسنة ونبد للتعلم بالفروع التي سببت التفرقة وحجبت الاصل . وسبب ذلك نجد ان الحركة الموحدية تتعاطف مع المذهب الساهري الذي اسسه في المشرق ابو داود ودافع عنه في الاندلس ابن حزم ، وتبدى نوعا من الجفاء تجاه المذهب المالكي وفقهاء المالكية .

ب - وقد ارتبط العامل العقيدى بالعامل السياسي الحربي عندما اقنع ابن تومرت القائد عبد المؤمن بن علي بالانضمام الى دعوته . فعلى يد هذا القائد تحولت الدعوة الى دولة بعد وفاة الداعية الاول بما يقارب العشرين سنوات ، ان بدأت اعمال عبد المؤمن الحربية في سنة ٥٣٤ بالسيطرة على المغرب فالمغرب الاوسط فتونس فالاندلس التي انتهت من الاستيلاء عليها سنة ٥٥٥ . واصطدم عبد المؤمن خلال حروبه هذه بقتوتين رئيسيتين : الدولة المرابطية التي كانت تحكم المغرب والاندلس والاسبان الذين كانوا يهددون المدن الاندلسية في اواخر حكم المرابطين القصير المضطرب . وقد دخل عبد المؤمن الاندلس بدعوة من اهلها الذين سئمو الحكم المرابطي بطابعه القبلي الصحراوي وتدخله المباشر في شؤون الاندلس وضغطه على حرية الثقافة . وهكذا فالدولة الموحدية هي الدولة المغربية الثانية التي تستنجد بها الاندلس لحمايتها من الزحف الاسباني الاتي من الشمال بعد ان ذهبت وحدتها السياسية .

ج - يمكن اعتبار النصف الثاني من القرن السادس الهجري والسنوات الاولى من القرن السابع (حتى حوالي ٦١٠) عصر المزاجية بين الثقافة الاندلسية وبين "السلم" الموحدى . فان الثقافة الاندلسية التي شهدت ازدهارها في اواخر الحكم الاموي العاقرى وخلال عهد الطوائف لم تستطع ان تستمر في نموها بعد ازدياد خطر الاسبان وشيوع روح التناحر الداخلي . واصبح من الضروري ان توفر لنفسها "سلمًا" خارجيا بشكل أو آخر حتى تستطيع ان تحتفي بظله . وقد تعدلت محاولات البحث عن هذا السلم في السياسة الاندلسية منذ اواخر عهد الطوائف في :

أ - عقد محادثات واتفاقيات هدنة مع الامارات الاسبانية.

ب - الاستنجاد بالمرايطين .

ج - عودة الى الاستنجاد بالامارات الاسبانية بعد ان اتضح ان السلم المرابطي سلم مرهق .

د - الاستنجاد بالموحدين بعد فشل محاولات الحكم المحلي بعيد اهتزاز الحكم المرابطي ،

وبعد ان اتضح ان سلم الاسبان ماهو الاتمهيد للقضاء التام على الاندلس العربية .

وهكذا جاء " السلم الموحدى " ليعطي الثقافة الاندلسية فرصة جديدة من فرص النمو

والازدهار خاصة وان الموحدين لم يكونوا في تعصب المرايطين ازاء النشاط العقلي ، وان كانوا

سيوثررون في طريق سيرها طبقا لمعتقدهم الديني والفقهى . فبعد وفاة عبد المؤمن تولى الحكم

بعده ابنه ابو يعقوب يوسف (مدة حكمه ٥٥٨ - ٥٨٠) الذى سار على سياسة ابيه في اقرار السلم

في المغرب ومهاجمة الاسبان في الاندلس . وقد امضى ابو يعقوب فترة طويلة في الاندلس اثناء

حكم ابيه حيث كان واليا على اشبيلية العاصمة فكان من الطبيعي ان يتفاعل مع الثقافة الاندلسية

ويتعاطف معها ، حتى برزت له شخصية علمية الى جانب شخصيته السياسية والحربية ، فقد شغف

باخبار العرب واياهم ومال الى علم اللغة " وكان متفننا في العلم الشرعية والاصولية " (١)

ثم جاء من بعده ولده ابو يوسف يعقوب المنصور (٥٨٠ - ٥٩٥) الذى بلغ العهد الموحدى في

ظله عصره الذهبي وتألفت اشبيلية تحت حكمه آخر فترات تألقها السياسى ومن ملامح عهده

السياسية والحربية البارزة : قضاؤه على امارة بني غانية وترحيله للقبائل العربية التي ناصرتهم

الى اقصى المغرب وانتصاره على الاسبان في معركة الاراك (٥٩١) واتصال صلاح الدين

الايوبى به بقصد التحالف ضد الغرب . اما الملامح الحضارية والثقافية لعهد فخر بن ابرزها :

ازدهار حركة عمرانية تمثلت في بناء مدينة الرباط ومسجد سلا ومدرسته . والجامع الاعظم بمراكش

وصومعة الكتبيين والبيمارستان المراكشى ومؤذنة جامع اشبيلية (الجيرالدا) والسور المحيط بها .

ووصلت الى ذروتها في عهده حيث استظل ببلاطه اكبر فلاسفة العصر وعلمائه كابن زهر الطبيب وابن

طفيل وابن رشد وابي بكر بن الجيد وعبد الملك بن عياش الكاتب ، وقد تطعمت اجهزة حكمه بالعناصر

الاندلسية المثقفة فكان اكثر قضاة وكتابه من الاندلسيين . ومن احداث عصره الثقافية الهامة ايضا :

اتضح ميل الدولة نحو المذهب الظاهرى واشتداد محاربة فقه الغرور والتحول الخطير الذي طرأ على

موقفها تجاه الفلسفة والذى تمثل في نكبة ابن رشد سنة ٥٩٣ وتفرق ملاميده ايدى سباً (٢) .

.../...

(١) - البيان المغرب : ٣ / ١٨٣

(٢) - المصبر السابق : ٣ / ٢٠٢

وعلى العموم تعد هذه الفترة السابقة للحقبة موضع البحث ، فترة استقرار وانتاج ، فلقد زرع السلم الموحدى القوى بذور الاستقرار بشي\* من التسامح والمراعاة للشخصية الاندلسية ، وواعلت الثقافة الاندلسية نتائجها العدلي بشي\* من الاغثنان . ولكن بعد وفاة الخليفة المنصور اخذت تلك المزاجية الموحدية - الاندلسية تتحل تدريجاً بفعل عوامل واحداث سنأملها بعد قليل ، واخذ الوضع الحضارى - الثقافى - السياسى يتجه نحو اتخاذ قالب جديد مغاير تماماً للتركيب السابق فى حركة سريعة متلاحقة الحلقات تتصف كما اثرت - بكثرة التقلب وحدة التناقض .

### (٣) - الوضع السياسى فى الأندلس

( ٥٩٥ - ٦٤٦ هـ / ١١٩٩ - ١٢٤٨ م )

تولى محمد الناصر بن يعقوب المنصور الحكم سنة ٥٩٥ هـ ، وقد تمت له البيعة الاولى فى حياة ابيه الذى اختلف المؤرخون حول منبره : فمن قائل انه دفن بمراكش ومن قائل انه تزهد وساح فى الارر حتى توفي بالشام واصبح قبره مزاراً (١) . ومهما كان الامر فان محمداً الناصر ، ” بويح بيعة العامة بعد اسبوع من وفاة ابيه وذلك فى العشر الاخر من ربيع الاول سنة ٥٩٥ هـ ، واستوسقت له الخلافة بهذه البيعة ” (٢) .

وكان الموقف السياسى فى بلاد الاندلس والمغرب عشية تولي محمد الناصر الخلافة متأثراً بمواقف القوى التالية :

أ - الجبهة الموحدية الحاكمة وما كان يعتريها من صراع داخلى بين الامراء واشياخ الموحدين .  
ب - العناصر الداخلية فى الدولة الموحدية :

١ - قبائل العرب التى بدأت تستوطن المغرب مصطدمة بالعناصر البربرية المحلية ، مشاركة فى كثير من حركات التمرد وحوادث السلب والنهب .

٢ - بقايا الامراء من عهد المرابطين كبني غانية الذين تمركزوا فى جزيرة ميورقة بشرق الاندلس واخذوا يهاجمون الجزر والسواحل الموحدية فى تونس ، واستغلوا

... / ...

(١) الناصرى ٤ الاستقصاء ١/ ٢ - ١٨١ - ١٨٤

(٢) البيان المغرب ٣/ ٢١١

(٣) المصدر السابق ٢١٢ - ٢١٤

(١) ان يتوغلوا الى الداخل ويتحصنوا في مدن كالمهدية ويقاوموا جيوش الخليفة نفسه

٣ - الزعماء الاندلسيون الذين سرعان مايستغلون الشعور المحلي ضد سيطرة الدولة او بسبب تعاونها في مقارعة الاسبان اولئلا لصراعاتها الداخلية .

ومن اشهر الذين برزوا ايام الناصر عبد الرحيم بن الفرس ، وهو " من طبقة العلماء

بالاندلس . . . انتحل الامامة وادعى انه القحطاني " الذي بشر به حديث نبوي (٢)

ج - الامارات الاسبانية التي كان موقفها حرجا مزعزا بعد موقعة الارك . الا ان عدم تمكن الخليفة

الجديد من استغلال هذا الوضع فتح للاسبان مجال التجمع والاستعداد للحرب من جديد . (٣)

وقد اضطر الناصر في السنين العشر الاول من حكمه - وقبل ان يعطدم بالاسبان - الى

الدخول في معارك محلية كثيرة بحدت طاقة الدولة . فقد ابعد ابن غانية عن تونس بعد معارك بحرية

وبرية كثيرة . وبحث جيشا لتأديب قبائل العرب المتمردة فانتشرت عليه اول الامر وبددت شمله .

كما صرف جهدا كبيرا في القضاء على ابن الفرس ، وجهدا مماثلا في اخذ جزيرتي ميورقة ومنورقة من

يد بقايا المرابطين . في هذه الاثناء كان الاسبان يستعدون لجولة جديدة : فقد ارسل ملك

قشتالة رسولا الى البابا لكي يعلن الجهاد المقدس في اوربا ، ورسولا آخر الى فرنسا . وفي الوقت

ذاته عقد مؤتمر اسباني جامع في قونقة تحت اشراف الفونسو النبيل . (٥) ويبدو ان السبب المباشر

الذي دفع الناصر للحرب " تغلب العدو على كثير من حصون بلنسية " مما اهمه واقلقه ، فغادر

مراكش الى اشبيلية ومنها الى محاصرة حصن شلبطرة المنيع . (٦) ويرى اشباح ان هذا هو الخطأ

الاساسي في تخطيطه للحرب . فقد اجهد جيشه في الحصار فلم يتمكن بعدئذ من قتال الاسبان

في موقعة العقاب حيث كانت الهزيمة ساحقة . ويرى المؤرخون ان من اسباب ضعف سيااسة الناصر

اعتماده على وزراء لا يوثق بهم وشدته مع اشياخ الموحدين بعد هزيمة العقاب ولقد كان ذلك سببا

في هزيمته وفي موته ان " ذكر ان بعض وزراء اغروا به من سمه لانه خافوا منه ان يقتلهم فيما جنوه (٨)

وكان ذلك سنة ٦١٠ هـ (٩)

... / ...

(١) - البيان المغربي ٢١٩-٢٢١

(٢) - كتاب العبر ٢٥٠ / ٦

(٣) - يوسف اشباح تاريخ الاندلس في عهد المرابطين والموحدين ٩٤ / ٢

(٤) - البيان المغرب ٢١٣ / ٣

(٥) - تاريخ الاندلس في عهد المرابطين والموحدين ١٠٩ / ٢

(٦) - كتاب العبر ٢٤٩ / ٦

(٧) - تاريخ الاندلس في عهد المرابطين والموحدين ١٠٨ / ٢

(٨) - البيان المغرب ٢٤٣ / ٣

(٩) - المصنف للسيافى : ٢ / ٢١٣

بعد هزيمة العقاب هذه التي قوت مركز الاسبان وتسببت نتائجها في تصديق الجبهة الداخلية في الدولة عامة وفي احداث تشاؤم وذعر في الاندلس خاصة ، تولى الحكم ابن الناصر يوسف المستنصر وهو ابن ست عشرة سنة ، فتسلط اعمامه واشياخ الموحدين على الحكم . وبعد سنة من توليه الحكم قام " مهدي " جديد يدعي الانتساب للفاطميين بثورة قمعت بعنف . وبين سنة ٦١٤ و سنة ٦١٧ ساءت الحالة الاقتصادية و " اشتدت الحال في تناهي غلاء الاسعار بالبلاد المغربية والاندلسية " بسبب " المحل العظيم والمجاعة <sup>(١)</sup> . في اثناء هذا الوقت كانت الجهود تبذل في الجانب الاسباني لتوحيد الجهود <sup>(٢)</sup> بينما كان اعمام المستنصر يتنازعون حكم ولايات الاندلس ويشيرون خفيضة اهلها . وقد توفي المستنصر شابا سنة ٦٢٠ هـ وبوفاته بدأت تظهر حركات الانفصال بين المغرب والاندلس على ايدى امراء الموحدين انفسهم اول الامر ثم على يد زعماء الاندلس فقد تولى الامر بعده بمراكش عم ابيه عبد الواحد ( المخلوع ) الذي نازعه الحكم في الاندلس امير موحدى آخر هو عبد الله الملقب بالعاذل . ولكن الانشقاق سرب سرب الى الاندلس ايضا وبين الموحدين انفسهم ان رفض السيد ابوزيد بن محمد صاحب بلنسية مبايعة العادل . ومع كثرة حوادث الانشقاق انتشرت الفاسائس بين المتنافسين ، فخلع عبد الواحد وخنق بعد بضعة شهور من توليه ، واستطاع العادل بعد جهد نيل بيعة مراكش والاندلس سنة ٦٢٢ <sup>(٣)</sup> الا ان الوضع اخذ يزداد سوءا بتجروؤ ولاية الموحدين على الخروج عن سيادة الدولة والتحالف مع اسبانيا علنا . ففي سنة ٦٢٣ خلع عبد الله البياسي والي قرطبة " دعوة العادل وخرج عن طاعة الموحدين واستعان بالنصارى عليهم ودلهم على عورات تلك البلاد وادخلهم فيجاعة ٠٠ (و) حصن باجة ولومنة <sup>(٤)</sup> وغيرهما من الحصون " ثم حاصر اشبيلية عاصمة الاندلس حينئذ فقاومه ابو العلاء اخو العادل وهزمه . غير ان ابا العلاء هذا الذى لقب بالمؤمن عاد فخلع اخاه وطلب البيعة لنفسه بينما كان اخوه يستعد لمحاربة بعض قبائل العرب في المغرب . وفي اثناء هذا الاستعداد اختلف مع اشياخ الموحدين الذين هجموا عليه في القصر

(١) - البيان المغرب ٢٤٣-٢٤٥

(٢) - تاريخ الاندلس في عهد المرابطين والموحدين ١٥٤ / ٢

(٣) - البيان المغرب ٢٤٧ / ٢ - ٢٤٩

(٤) - المصدر السابق ٢ / ٢٤٩ - ٢٥٠



(١)  
وقتلوه وكتبوا الى اخيه المأمون بالبيعة ، وكان ذلك سنة ٦٢٤ . وقد كان المأمون  
يقم واليا في اشبيلية فتم له الامر فيها وبايعته ايضا سائر المدن الاندلسية فسي  
بادى الامر .

وما ان اطلت سنة ٦٢٥ حتى ازداد الموقف سوءاً من نافة نواحيه : فـ  
وقع الخليفة الجديد بين نارين : نكت اشياخ الموحدين بمراكش بيعته وولوا يحيى بن الناصر ،  
كما ثارت الاندلس ضده في شخص زعيمها الجديد محمد بن يوسف بن هود الذى  
اشعل الثورة من مرسية واعلن الولاء للعباسيين وكان شعاره تخليص الاندلس من الموحدين  
والاسبان معا . وعلى اثر ذلك شهدت الاندلس حروبا اهلية متتابعة بين كل من المأمون  
وابن هود وزعماء الامارات الاندلسية الاخرين الذين كانوا يغيرون ولائهم تبعا  
للظروف . وبالرغم من ان المأمون استطاع ان يهزم جيش ابن هود <sup>(٢)</sup> فانه لم يتمكن

من القضاء على امارته . بل ان سلطان المأمون انحصر في اشبيلية واخذ سلطان  
ابن هود يتوسع ليشمل المرية وقرناطة وقد ساعد ابن هود في ذلك شعور الاندلسيين  
المعادى للموحدين الذين قتلوا او نفوا عن كل بلد في الاندلس . ازاء هذا الظرف  
الحرج ، وبالنظر لتدهور الاوضاع في مراكش غادر المأمون اشبيلية - آخر معقل  
للموحدين - وعاد الى المغرب ليقام منافسه يحيى بن الناصر ويتبع سياسة ارهابية  
عنيفة تقم على اضعاف سلطة اشياخ الموحدين والتحالف مع امارات الاسبانية  
وتغيير بعض الاسس العقيدية للدولة كالتبرؤ من المهدي . وهكذا يبقى الاندلسيون في  
العشرين سنة الاخيرة من هذه الحقبة بين ٦٢٦ و ٦٤٦ هـ وحيدين في الميدان  
تمزقهم خلافات داخلية ويدفعهم الزحف الاسباني بالتدريج نحو اقصى الجنوب دون ان  
يجدوا مساعدة حقيقية من جيرانهم المنشغلين بانفسهم <sup>(٣)</sup> اللهم الا بعض النجدات المتقطعة  
القليلة من مراكش وتونس .

وفي خلال تلك الفترة الاخيرة ارتسمت ملامح الوضع السياسي حسب الصورة التالية :

- 
- (١) - البيان المغرب ٢٥/٢ - ٢٥٣
  - (٢) - المصدر السابق ٢٥٨ / ٣
  - (٣) - المصدر السابق ٢٦٧ / ٢
  - (٤) - المصدر السابق ٢٧٥ / ٢

- اولا — على الصعيد الاسلامى كانت هنالك اربعة كيانات سياسية منفصلة :
- أ — الدولة الموحدية الهرمة التى ستتحصر فى المغرب ليستمر فيها الصراع بين الامراء وليسيطر عليها اشياخ الموحدين سيطرة تامة مع استمرار شئ من نفوذ امرائها فى منطقة اشبيلية .
- ب — الامارة الحفصية فى تونس التى اسسها يحيى بن ابي حفص ، احد قادة الموحدين القدامى وهو الذى ساعد الدولة فى القضاء على نفوذ بنى غانية فى تونس . وقد ظهرت هذه الامارة رسميا سنة ٦٢٢ بوجع الامير يحيى ببيعة عامة (١) .
- ج — امارة ابن هود التى ظهرت سنة ٦٢٦ وانتهت بوفاته سنة ٦٣٥ . وقد تركزت هذه الامارة فى منطقة وسط الاندلس وجنوبيها فى المنطقة الواقعة بين المرية وغرناطة وقرطبة والجزيرة الخضراء ووصلت فى امتدادها حتى اسوار بلنسية .
- د — امارة بلنسية وتابعها فى شرق الاندلس ، وقد اكدت استقلالها بثورتها على الموحدين تحت قيادة زيان بن مردنيش ومقاومتها لنفوذ ابن هود . الا انها اضطرت تحت تهديد الغزو الاسبانى الى طلب العون من تونس وتقديم البيعة لاميرها الحفصى (٢) .
- ثانيا — اما على الصعيد الاسبانى فقد كانت هنالك خمس ممالك اقواها واوسعها مملكتا ارجوان وفشتالة . ولم تكن تلك الممالك قوة واحدة تعمل لهدف محدد فقد كان ملوكها يتنازعون فيما بينهم على المقاطعات الاسبانية كما كانوا يتنافسون فى مجال استخلاص المدن الاندلسية من ايدى المسلمين اذ كان كل ملك يطمح فى الاستيلاء على اكبر عدد ممكن من تلك المدن . الا انه نظرا لاسباب جغرافية تتعلق بمواقع تلك الممالك اهتمت قشتالة بـمدن الوسط والجنوب بينما ركزت ارجوان همها على مدن الشرق وتطلعت البرتغال صوب المقاطعات الغربية . ومن اهم الاحداث فى هذه الفترة — على الصعيد الاسبانى — اتحاد مملكتى قشتالة وليون ، هذا الاتحاد الذى يعتبر " الحجر الاساسى للفتوحات العظيمة التى قام بها فرديناند فى الاندلس (٣) .
- والواقع ان الصراع المباشر سيكون الآن بين امارة ابن هود ومن سيخلفها من امراء الاندلس من جهة وبين الممالك الاسبانية الغازية من جهة اخرى وحتى الامراء الموحدين فى اشبيلية سيكونون باعتبارهم زعماء محليين لا بوصفهم ممثلين للدولة المغربية .

(١) — البيان المغرب ٢٧٥/٣

(٢) — كتاب العبر ٢٨٣/٦

(٣) — تاريخ الاندلس فى عهد المرابطين والموحدين : ١٤٩/٢ — ١٥٠

وقد تطورت الاحداث خلال هذه العشرين سنة الاخيرة حسب الصورة التالية :

اولا - مع رحيل المأمون الموحدى سنة ٦٢٦ الى المغرب قوى نفوذ ابن هود المتوكل واصبح القوة الاندلسية الاولى . حتى ان اهالى اشبيلية خلعوا طاعة الموحدين وابعسوا ابن هود<sup>(١)</sup> الذى اعد جيشا ضخما فى السنة التالية لمحاربة الاسبان فى ماردة ، الا انه هزم فى هذه المعركة التى تعتبر اول غزواته واضخمها ، وفى سنة ٦٢٩ توفى المأمون الذى كان يدعى السيادة الاسمية على الاندلس ومع انه لم يبق للموحدين بالاندلس امر ولا نهى<sup>(٢)</sup> فى السنوات القليلة التى سبقت ذلك ، فان وفاته قوت مـــــــكانة ابن هود ، الذى وصلته الخلعة العباسية بالتولية فى السنة ذاتها . واستقامت احواله ، وولى العهد لابنه الواثق بالله فوفدت عليه البيعات من كل البلاد من جزيرة شقر الى الجزيرة الخضراء<sup>(٣)</sup> . غير ان استقامة الاحوال ليست من طبع تلك الفترة فبعد بضعة شهور ثار العامة فى اشبيلية ضد والى ابن هود وولوا عليهم احد زعمائهم وهو الباجى . وفى الوقت ذاته ظهر زعيم اندلسى جديد هو محمد بن يوسف بن الاحمر والذى جمع فى ارجونه ومد نفوذه الى جيان وقرطبة ونازع الباجى على اشبيلية<sup>(٤)</sup> هذا فى الوقت الذى كان فيه ابن مردنيش يستقل ببلنسية ويقام نفوذ ابن هود . وهكذا وجد الاخير نفسه فى صراع مع منافسين داخلين بينما كان توسع الممالك الاسبانية يتقدم باضطراد ملحوظ ، مما ارضه على عقد صلح مع مملكة قشتالة سنة ٦٢٠ ودفع جزية لها تقــــــدر بالف دينار فى اليوم وذلك ليتفرغ لمقاتلة ابن الاحمر والباجى<sup>(٥)</sup> للذين انتهى صراعهما على اشبيلية بعودتها ثانية الى ابن هود سنة ٦٣٢ . وقد اراد ابن هود مواصلة بسط نفوذه على ماتبقى من الاندلس فقصده فى السنة ذاتها مدينة لبلة واحكم حولها الحصار . ولكن توغل مملكة قشتالة فى اراضيه اجبره على رفع الحصار ومفاوضة ملك قشتالة على الصلح والجزية ، فتم عقد هدنة جديدة تتراوح مدتها بين ثلاث الى اربع سنوات على ان يدفع ابن هود اربع مئة الف دينار فى السنة ، غير ان هذه المعاهدة لم يطل امدها اكثر من سنة<sup>(٦)</sup>

(١) البيان المغرب ٢٢٠/٣

(٢) المصدر السابق ٢٢٠/٣

(٣) روض القرطاس ١٨٢

(٤) البيان المغرب ٢٢٨/٣

(٥) المصدر السابق ٢٢٩/٣

(٦) روض القرطاس ١٨٣

(٧) البيان المغرب ٣٢٢/٣

ثانيا - بعد ان وصل وضع الاندلس الى هذه الدرجة من الضعف واضطر اقوى امراءها الى دفع الجزية للاسبان اتخذ التوسع الاسباني صبغة جديدة حاسمة . اذ لم يعد الاسبان يكتفون بالمال او بالاستيلاء على الحصون الجانبية بل اخذوا يتطلعون نحو قواعد الاندلس الكبرى .

وهكذا ما ان جاءت سنة ٦٣٣ حتى اصبحت قرطبة تحت رحمة قشتالة بلنسية تحت رحمة اراجون . واصبحت قوة ابن هود - بالاضافة الى تمزقها الداخلي - موزعة بين الجبهتين المتباعدتين غير انه ترك قرطبة لمصيرها واتجه صوب الشرق الاندلسي على امل ان يتمكن من ضمها الى اماراته . ولم تطل مقاومة قرطبة اذ سقطت في السنة ذاتها (١) وفي تلك السنة اشتد حصار ملك اراجون لبلنسية ومنطقة الشرق الاندلسي ، فكانت له سبع محلات لحصار المسلمين اثنتان منها على بلنسية وجزيرة شقر وشاطبة (٢) . في هذه الاثناء جاءت وفاة ابن هود سنة ٦٣٥ في ظروف غامضة لتزيد الامر تعقيدا ولتمزق امارته المضطربة بين اقاربه وقواده . ولم يبق من تجمعات الاندلسيين الثابتة نوحا الا منطقة اشبيلية ، ومنطقة غرناطة التي حكمها ابن الاحمر وسهد فيها لاقامة امارته التي ستبقى بعد هذه الاحداث ما يقارب قرنا ونصف قرن . اما بلنسية فقد سقطت في يد ملك اراجون سنة ٦٣٦ بعد حصار وسجاعة . ولم تجد نفعا نجدة ابي زكريا الحفص الذي استغاث به البلنسيون ومايعوم واستمر الزحف الاسباني في شرق الاندلس حتى اجلي عنه العرب نهائيا حوالي سنة ٦٤٤ .

وفي تلك السنة ذاتها بدأت الخطط القشتالية الاخيرة للاستيلاء على اشبيلية . وكان اهلها في ذلك الوقت قد اختاروا الامير ابا عبد الله بن ابي العلاء الموحدى واليا عليهم . بدأ الزحف القشتالي ببث الرعب في المناطق المحيطة باشبيلية مما حدا بالسكان الى التسليم دون مقاومة ، وكان ابن الاحمر والي غرناطة الذي اصبحت حليفا لقشتالة ينصح الاندلسيين بالتسليم حقنا للدماء . وقد تمكن القشتاليون من تحطيم اسطول استفداه امير الموحيدين من .../...

(١) - البيان المغرب ٣/٢٢٢ - ٣٢٣

(٢) - كتاب العبر ٦/٢٨٣

(٣) - البيان المغرب ٣/٢٥٨

(٤) - كتاب العبر ٦/٢٨٥

المغرب لتأمين الحماية البحرية \* وبعد حصار شاق سلم (١) الاشبيليون على ان تصان دماؤهم واموالهم ويسمح لهم بالهجرة ، وكان ذلك سنة ٦٤٦ \*  
مع نهاية النصف الاول من القرن السابع عادت الاندلس اسبانية ماعدا اماره  
بنى الاحمر في غرناطة التي اصبحت مقر التجمع الاخير لعرب الاندلس والتي ستُحيى ،  
وتم مركزها الفريد الحج ، آخر فترة من فترات العطاء الحضارى في تاريخ الاندلس  
العربية \*

#### ( ٤ ) المجتمع والثقافة في الاندلس خلال هذه الفترة

تمت الاشارة الى ان مجتمع الاندلس فى هذه الفترة كان مجتمع اضطراب واختلال ،  
وتقلبات سريعة وتناقضات حادة \* وسنأمل الان فى اهم ظواهره الاجتماعية والنفسية والخلقية .  
ولعله من الخيران ننتبه الى ان بذور القلق والتغلب فى المجتمع الاندلسي وجدت لها  
تربة خصبة فى فترات سابقة متتالية كعهد الفتنة البربرية وهصر الطوائف الذى لعقبه ، بل ربما  
كان القلق والتغلب ظاهرة نفسية داخلية فى المجتمع الاندلسى نشأت منذ انهيار السلطان  
الاندلسي الرادع القوى بانتهاء حكم الاموية الموحدة واختها العامة ، واخذت تظهر بوضوح  
عندما تفقد الاندلس ضابطا قويا يتولى امرها ، وتختفى تحت السطح عندما يأتى للاندلس  
حكم قوى كحكم المرابطين او الموحدين \*

من اهم الظواهر البارزة فى هذه الفترة ظاهرة شيوع الخوف وهدم الاستقرار واختلال  
المقاييس واهتزاز الحدود الفارقة \* وكان الخوف يتجلى على هيئة قلق تجاه المستقبل وكانت  
المعارك والحروب الدائرة بين الاندلسيين والاسبان تتم بالتأثير العميق فى نفسية المجتمع  
الاندلسي الذى لم يكن ينظر الى تلك الحروب باعتبارها نشاطا عسكريا عاديا او فتوحات خارجية  
بقدر ما هى حياة ومصير \* وهكذا وجدت تلك الاحداث صدى قويا فى الشعر الاندلسي منذ ان  
.../...

---

(١) — تاريخ الاندلس فى عهد المرابطين والموحدين ١٩٥/٢ — ١٩٩  
(٢) — احسان عباس تاريخ الادب الاندلسي (عصر سيادة قرطبة) : ١٢٦ — ١٢٧٢؛ وكذلك (عصر الطوائف  
والمرابطين ) : ٣٢ — ٤٤

بدا خهرها واضحا للعيان<sup>(١)</sup> حتى اللحظة الاخيرة في حياة الاندلس العربية . وفي هذه الحقبة التي نتحدث عنها سنجد نمائج عديدة من اشعار التفجع والاستغاثة والتشكى من الغربة لكصيدة ابن البقاء الرندي المشهورة التي غدت سجلا لحوادث النكبة من بعده : ( لكل شيء اذا ما تم نقصان ٠٠٠ ) وسينية ابن الابار التي عبرت عن استغاثة اهالي شرق الاندلس بامير تونس ( ادرك بخيلك غيل الله اندلسا ٠٠ ) ، وكذلك منجهم<sup>(٢)</sup> في شعر ابن سعيد نفسه ظاهرة الشعور بالغربة بارزة<sup>(٣)</sup> حتى اقننا اقامته في وطنه . وفي عن البيان ان بروز هذه الظاهرة في الشعر بشكل واضح يدل على ان المجتمع كله كان يعاني منها . غير ان هذه الظاهرة لم تسحب ظلالها على الشعر فحسب بل عكست نفسها في قلق نفس واجتماعي عام يمكن تلمس آثاره في الكثير من الحالات الاجتماعية والفردية .

كان هناك جو من عدم الاستقرار يشمل نواحي الفكر والمعتقد ، كما يتناول حياة الناس في خطوط سيرها ، كما يتمثل في التغيرات المعتادة من تعاقب أنظمة الحكم وتغيير حظوظ الافراد في كدهم المعيشي . اما فيما يختص بتغيير الحكام فهناك ما اتضح بجلاء في حديثنا عن الوضع السياسي ، حتى ان مدينة كاشبيلية تغير حكامها في سنتين اربع مرات بين الموحيدين وابن هود والباجي وابن الاحمر . ومن الطريف هنا ان نلاحظ ان ابن سعيد ، الذي كان همه الاول النشاط التصنيفي ، تأثر بهذه الأحداث واضطر ان يغير ولاه بسرعة بين المتنافسين حتى انه مدح الباجي عندما ابعد ابن هود عن اشبيلية ، مع العلم ان ابن هود قد عين والده واليا على الجزيرة الخضراء ، وكان هو نفسه يستظل بظله<sup>(٤)</sup> ، وسرعان ما اضطر ابن سعيد لتغيير ولائه ثانية عندما خضعت اشبيلية لابن الاحمر الذي قتل الباجي ، فعاد ومدح قاتل مدوحه السابق ، ولم يقف التذبذب عند هذا الحد بل تناول جانب العقيدة ، فقد قام اثنان من كبار امراء الموحيدين هما البياس صاحب قرطبة وابوزيد صاحب بلنسية باعتناق النصرانية فن سبيل العودة الى الحكم ، وهل كهذا ليس ظاهرة عادية في مجتمعات العصر الوسيط الديني<sup>٠٠٠/٠٠</sup>

(١) — تاريخ الادب الاندلسي (عصر الطوائف والمرابطين) : ١٢٢ — ١٩٢

(٢) — المعري ، نفع الطيب ٢٥/٣

(٣) — ابن سعيد المغربي ، المغرب في حلل المغرب ١٠٣/ ٢

(٤) — البيان المغرب ٢٢٠/ ٣

ثم ان هاتين الحادثتين على صعيد الامراء ذوي الصبغة الدينية توحيان بان هناك جوا اجتماعيا يمكنه ان يتقبل ذلك ، وان هناك افرادا من سائر الطبقات سلكوا الطريق ذاته . وقد رأينا - من ناحية اخرى - كيف ان الدولة الموحدية ثارت على مؤسستها ونبذته في عهد المأمون ، ثم جاء امير بعده ليحاول العودة الى تعاليم المهدي ثانية .

ومن مظاهر انعدام الاستقرار في حياة الافراد ، كثرة الوشايات التي لاتدعهم يستقروا في منصب محدد ، بل ان الوشايات احيانا تؤدي الى هلاك من توجه ضدهم . ولعل في مصنفات ابن سعيد شواهد كثيرة على ذلك عكست نفسها بوضوح في حياته وحياة من ترجم لهم . فهذا هو الأفلح اللخمي يعمد لوالد ابن سعيد عند ابن هود ليولي<sup>(١)</sup>ه امره الجائزة الخضراء ثم لاتلبث الوشايات ان تفسز صدره فيمضي في تأخير<sup>(٢)</sup>ه وهذا سهل بن مالك الرئيس العالم يفره ابن هود عن وطنه غرناطة بسبب تضخم أهل " الحسد والعداوة " لاقراله<sup>(٣)</sup> وهذا ابوبكر ابن البنس الاشبيلي يظهر امام الناس متواضعا قانعا وهو في حقيقته " اهن ما عنده ان يمس في سفك دم انسان ، تخاصم مع وكيل له في شبر من ارض " .

ومن الظواهر المرتبطة بذلك ظاهرة بروز المغامرين على مسرح الاحداث وقفزهم من ادنى الدرجات الى رتبة الامارة والقيادة في برهة زمنية وجيزة . والواقع ان ابن هود نفسه كان في طليعة هؤلاء المغامرين الذين عرفوا كيف تنتهز الفرص ويجمع المؤرخون ان ابن هود ، رغم انتسابه الى بني هود ملوك سرقسطة السابقين ، رجل عامي جاهل اقام ملكه على اكتاف المغامرين من امثاله . فابن عذارى ينسب انتصاره الى وهم عصاة يدع الغشت تحالف معه . وكان اتباع الغشت " جماعه

.../...

(١) - القدر ١٤٢

(٢) - المصدر السابق : ٦١

(٣) - المصدر السابق : ١١٨

كبيرة من اراد ان الناس السفلة . . فكان يقطع بهم الطرقات والنواحي ، فاكسحوا ما فيها من البقر والاسـرى<sup>(١)</sup> . وتأيد من هؤلاء اصبح ابن هود امير المسلمين وغدا الغشتى قائد الاساطيل في الدولة المتوكلية . ويحدثنا ابن سعيد وهو المؤرخ الاندلسي المعتدل ، ان ابن هود كان " عاميا جاهلا ، مشتبها على الاندلس ، كأنما كان عقوبة لاهلها . . . وولى قرابته الارذليين بين شعاب<sup>(٢)</sup> ، وخبازة وقيم حمام ، ومناد ، على ممالك الاندلس ، ففرض ذلك بتشتيت شملها . وكما جاءت بداية ابن هود رمزا على المفامرة والانتهازية ، جاءت نهايته لتعكس ما في العصر من غدر ودس . فيندما مربا المربية في طريقه الى الشرق الاندلسي ، استقبله وزيره ابن الرميى احسن استقبال في قصره ، ثم " قتله بالليل غيلة . . . وقد نقب نقبا في قصره<sup>(٣)</sup> .

وقد ادى هذا الاختلال في الحياة العامة وانشات الناس ببعضهم الى طلب " تعويض " والبحث عن " هروب " من واقع تلك الحياة القلقة القاسية . فكان طبيعيا الميل الى حياة الترف وحياة اللذة . وتمثل الترف في الميل الى الزخرفة والشكل البراق سواء كان ذلك في الفنون المعمارية ، التي ازدهرت بها هذه الفترة والفترة التي سبقت اوفى المسكن والملبس . . . اوفى الالقاب والتخاطب . . . اوفى الرسائل والادب شعرا ونثرا عامة . ولا يقتصر ذلك على طبقة الامراء وحدهم ، بل يتجاوزهم الى غيرهم من الاغنياء ومتوسطى الحال ، فهذا ابو القاسم بن حسان الاشبيلي ينشئ له قصرا " يشتهر فيما بين المنازه والديار فنزهه وداره ، اذا قيل قصر بن حسان فلا يشاركه في هذا الوصف الا ما كان منزلا للسلطان ، ودخلت اليه مع والسدي . . . فسافرت ابصارنا في تلك الساحة العريضة الطويلة ، وتقيدت بمحاسن رياضته البديعة الجميلة ، وكذلك اذا قيل في المنازه التي على النهر منزله بيمانه ، مال

.../...

(١) - البيان المغرب ٣ / ٢٥٦

(٢) - المغرب ٢ / ٢٥١ - ٢٥٢

(٣) - الصديق السابق ١٠٩ / ٥٠



كل ذي سمع وصـر الى الحان اطيـاره وافنان اشجاره المزدانة (١) وهذا ابو القاسم عبد الرحمن العثماني السبتي تصبـح " شهرته " الرفاهية و " له في ذلك حكايات محفوظة منها انه كانت له ثياب النزهة ، وثياب الحمام ، وثياب العرس وما اشبه ذلك ، لكل حالة ما يليق بها لا يخل بشئ منها . واحتاج يوما الى شئ ضروري فحضر السائس ولم يحضر المتصرف فلم يقدر على ان يصرف السائس . وكان يقول : لا مـبـيـل الى وضع شئ في غير محله حتى كان ينسب ذلك للهوس ، والجملة فكان من الخواص في كل ما تلبس به .

هذان مثلان : احدهما من اشبيلية والاخر من سبتة . ومن البين ان هذه النماذج الفردية ماكان لها ان تبرز بهذا الشكل لو لم يكن في البيئـة الاجتماعية كلها ما يشجع على ذلك .

والى جانب ظاهرة الترف والتائق ، نلاحظ ظاهرة الميل الغلـماني التي تغلغلـت في اوساط الطبـقة العامة والخاصة حتى اشتهر بها وزراء وكتاب وشعراء . . . بل وفقها . . . ومصنفات ابن سعيد وحدها تكفي لاقناعنا بانتشار هذه الظاهرة التي يبدو انها انحرفـت في اللذة وتنوع لها اكثر مما هي مجرد تنفيس عن شهوة حبسية . ولوعددنا الشواهد الكثيرة على انتشارها في هذه الفترة لتجاوزنا الحد المرسوم لهذه المقدمة الموجزة . والرجوع الى ما صنف ابن سعيد (٢) من تراجم هو الذي يعطي صورة كاملة ودقيقة عن هذه الظاهرة المتفشية .

ومن صور الاضطراب في هذا العصر التدهور الاقتصادي واضطراب الحالة المعيشية عند عامة الناس ، فقد ادت الفارات الى ان " اشتد الضرر بالارض ومن عليها " ولحق الاذى بـ " المترددين في طرقاتهم لتجاراتهم " (٤) كما افتتحت هذه الحقبة

بقحط ادى الى ارتفاع الاسعار وسبب مجاعة . هذا بالإضافة الى ما تسببه الحروب من تدمير للمزروعات وما تستهلكه من نفقات . ولا شك فيه ان المبالغ الضخمة التي دفعها ابن هـود وغيره من امراء الاندلس جزية لاسبان قد جمعت من الزراع والتجار الذين انضبت

موارد هم الفتن الداخلية والحروب .

(١) - القديح ١٤٨

(٢) - القديح ١٩٦

(٣) - انظر الفصول ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩١ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١١ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٢٨١ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ٣٠٩ ، ٣١٠ ، ٣١١ ، ٣١٢ ، ٣١٣ ، ٣١٤ ، ٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣١٧ ، ٣١٨ ، ٣١٩ ، ٣٢٠ ، ٣٢١ ، ٣٢٢ ، ٣٢٣ ، ٣٢٤ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٣٢ ، ٣٣٣ ، ٣٣٤ ، ٣٣٥ ، ٣٣٦ ، ٣٣٧ ، ٣٣٨ ، ٣٣٩ ، ٣٤٠ ، ٣٤١ ، ٣٤٢ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤ ، ٣٤٥ ، ٣٤٦ ، ٣٤٧ ، ٣٤٨ ، ٣٤٩ ، ٣٥٠ ، ٣٥١ ، ٣٥٢ ، ٣٥٣ ، ٣٥٤ ، ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧ ، ٣٥٨ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠ ، ٣٦١ ، ٣٦٢ ، ٣٦٣ ، ٣٦٤ ، ٣٦٥ ، ٣٦٦ ، ٣٦٧ ، ٣٦٨ ، ٣٦٩ ، ٣٧٠ ، ٣٧١ ، ٣٧٢ ، ٣٧٣ ، ٣٧٤ ، ٣٧٥ ، ٣٧٦ ، ٣٧٧ ، ٣٧٨ ، ٣٧٩ ، ٣٨٠ ، ٣٨١ ، ٣٨٢ ، ٣٨٣ ، ٣٨٤ ، ٣٨٥ ، ٣٨٦ ، ٣٨٧ ، ٣٨٨ ، ٣٨٩ ، ٣٩٠ ، ٣٩١ ، ٣٩٢ ، ٣٩٣ ، ٣٩٤ ، ٣٩٥ ، ٣٩٦ ، ٣٩٧ ، ٣٩٨ ، ٣٩٩ ، ٤٠٠ ، ٤٠١ ، ٤٠٢ ، ٤٠٣ ، ٤٠٤ ، ٤٠٥ ، ٤٠٦ ، ٤٠٧ ، ٤٠٨ ، ٤٠٩ ، ٤١٠ ، ٤١١ ، ٤١٢ ، ٤١٣ ، ٤١٤ ، ٤١٥ ، ٤١٦ ، ٤١٧ ، ٤١٨ ، ٤١٩ ، ٤٢٠ ، ٤٢١ ، ٤٢٢ ، ٤٢٣ ، ٤٢٤ ، ٤٢٥ ، ٤٢٦ ، ٤٢٧ ، ٤٢٨ ، ٤٢٩ ، ٤٣٠ ، ٤٣١ ، ٤٣٢ ، ٤٣٣ ، ٤٣٤ ، ٤٣٥ ، ٤٣٦ ، ٤٣٧ ، ٤٣٨ ، ٤٣٩ ، ٤٤٠ ، ٤٤١ ، ٤٤٢ ، ٤٤٣ ، ٤٤٤ ، ٤٤٥ ، ٤٤٦ ، ٤٤٧ ، ٤٤٨ ، ٤٤٩ ، ٤٥٠ ، ٤٥١ ، ٤٥٢ ، ٤٥٣ ، ٤٥٤ ، ٤٥٥ ، ٤٥٦ ، ٤٥٧ ، ٤٥٨ ، ٤٥٩ ، ٤٦٠ ، ٤٦١ ، ٤٦٢ ، ٤٦٣ ، ٤٦٤ ، ٤٦٥ ، ٤٦٦ ، ٤٦٧ ، ٤٦٨ ، ٤٦٩ ، ٤٧٠ ، ٤٧١ ، ٤٧٢ ، ٤٧٣ ، ٤٧٤ ، ٤٧٥ ، ٤٧٦ ، ٤٧٧ ، ٤٧٨ ، ٤٧٩ ، ٤٨٠ ، ٤٨١ ، ٤٨٢ ، ٤٨٣ ، ٤٨٤ ، ٤٨٥ ، ٤٨٦ ، ٤٨٧ ، ٤٨٨ ، ٤٨٩ ، ٤٩٠ ، ٤٩١ ، ٤٩٢ ، ٤٩٣ ، ٤٩٤ ، ٤٩٥ ، ٤٩٦ ، ٤٩٧ ، ٤٩٨ ، ٤٩٩ ، ٥٠٠ ، ٥٠١ ، ٥٠٢ ، ٥٠٣ ، ٥٠٤ ، ٥٠٥ ، ٥٠٦ ، ٥٠٧ ، ٥٠٨ ، ٥٠٩ ، ٥١٠ ، ٥١١ ، ٥١٢ ، ٥١٣ ، ٥١٤ ، ٥١٥ ، ٥١٦ ، ٥١٧ ، ٥١٨ ، ٥١٩ ، ٥٢٠ ، ٥٢١ ، ٥٢٢ ، ٥٢٣ ، ٥٢٤ ، ٥٢٥ ، ٥٢٦ ، ٥٢٧ ، ٥٢٨ ، ٥٢٩ ، ٥٣٠ ، ٥٣١ ، ٥٣٢ ، ٥٣٣ ، ٥٣٤ ، ٥٣٥ ، ٥٣٦ ، ٥٣٧ ، ٥٣٨ ، ٥٣٩ ، ٥٤٠ ، ٥٤١ ، ٥٤٢ ، ٥٤٣ ، ٥٤٤ ، ٥٤٥ ، ٥٤٦ ، ٥٤٧ ، ٥٤٨ ، ٥٤٩ ، ٥٥٠ ، ٥٥١ ، ٥٥٢ ، ٥٥٣ ، ٥٥٤ ، ٥٥٥ ، ٥٥٦ ، ٥٥٧ ، ٥٥٨ ، ٥٥٩ ، ٥٦٠ ، ٥٦١ ، ٥٦٢ ، ٥٦٣ ، ٥٦٤ ، ٥٦٥ ، ٥٦٦ ، ٥٦٧ ، ٥٦٨ ، ٥٦٩ ، ٥٧٠ ، ٥٧١ ، ٥٧٢ ، ٥٧٣ ، ٥٧٤ ، ٥٧٥ ، ٥٧٦ ، ٥٧٧ ، ٥٧٨ ، ٥٧٩ ، ٥٨٠ ، ٥٨١ ، ٥٨٢ ، ٥٨٣ ، ٥٨٤ ، ٥٨٥ ، ٥٨٦ ، ٥٨٧ ، ٥٨٨ ، ٥٨٩ ، ٥٩٠ ، ٥٩١ ، ٥٩٢ ، ٥٩٣ ، ٥٩٤ ، ٥٩٥ ، ٥٩٦ ، ٥٩٧ ، ٥٩٨ ، ٥٩٩ ، ٦٠٠ ، ٦٠١ ، ٦٠٢ ، ٦٠٣ ، ٦٠٤ ، ٦٠٥ ، ٦٠٦ ، ٦٠٧ ، ٦٠٨ ، ٦٠٩ ، ٦١٠ ، ٦١١ ، ٦١٢ ، ٦١٣ ، ٦١٤ ، ٦١٥ ، ٦١٦ ، ٦١٧ ، ٦١٨ ، ٦١٩ ، ٦٢٠ ، ٦٢١ ، ٦٢٢ ، ٦٢٣ ، ٦٢٤ ، ٦٢٥ ، ٦٢٦ ، ٦٢٧ ، ٦٢٨ ، ٦٢٩ ، ٦٣٠ ، ٦٣١ ، ٦٣٢ ، ٦٣٣ ، ٦٣٤ ، ٦٣٥ ، ٦٣٦ ، ٦٣٧ ، ٦٣٨ ، ٦٣٩ ، ٦٤٠ ، ٦٤١ ، ٦٤٢ ، ٦٤٣ ، ٦٤٤ ، ٦٤٥ ، ٦٤٦ ، ٦٤٧ ، ٦٤٨ ، ٦٤٩ ، ٦٥٠ ، ٦٥١ ، ٦٥٢ ، ٦٥٣ ، ٦٥٤ ، ٦٥٥ ، ٦٥٦ ، ٦٥٧ ، ٦٥٨ ، ٦٥٩ ، ٦٦٠ ، ٦٦١ ، ٦٦٢ ، ٦٦٣ ، ٦٦٤ ، ٦٦٥ ، ٦٦٦ ، ٦٦٧ ، ٦٦٨ ، ٦٦٩ ، ٦٧٠ ، ٦٧١ ، ٦٧٢ ، ٦٧٣ ، ٦٧٤ ، ٦٧٥ ، ٦٧٦ ، ٦٧٧ ، ٦٧٨ ، ٦٧٩ ، ٦٨٠ ، ٦٨١ ، ٦٨٢ ، ٦٨٣ ، ٦٨٤ ، ٦٨٥ ، ٦٨٦ ، ٦٨٧ ، ٦٨٨ ، ٦٨٩ ، ٦٩٠ ، ٦٩١ ، ٦٩٢ ، ٦٩٣ ، ٦٩٤ ، ٦٩٥ ، ٦٩٦ ، ٦٩٧ ، ٦٩٨ ، ٦٩٩ ، ٧٠٠ ، ٧٠١ ، ٧٠٢ ، ٧٠٣ ، ٧٠٤ ، ٧٠٥ ، ٧٠٦ ، ٧٠٧ ، ٧٠٨ ، ٧٠٩ ، ٧١٠ ، ٧١١ ، ٧١٢ ، ٧١٣ ، ٧١٤ ، ٧١٥ ، ٧١٦ ، ٧١٧ ، ٧١٨ ، ٧١٩ ، ٧٢٠ ، ٧٢١ ، ٧٢٢ ، ٧٢٣ ، ٧٢٤ ، ٧٢٥ ، ٧٢٦ ، ٧٢٧ ، ٧٢٨ ، ٧٢٩ ، ٧٣٠ ، ٧٣١ ، ٧٣٢ ، ٧٣٣ ، ٧٣٤ ، ٧٣٥ ، ٧٣٦ ، ٧٣٧ ، ٧٣٨ ، ٧٣٩ ، ٧٤٠ ، ٧٤١ ، ٧٤٢ ، ٧٤٣ ، ٧٤٤ ، ٧٤٥ ، ٧٤٦ ، ٧٤٧ ، ٧٤٨ ، ٧٤٩ ، ٧٥٠ ، ٧٥١ ، ٧٥٢ ، ٧٥٣ ، ٧٥٤ ، ٧٥٥ ، ٧٥٦ ، ٧٥٧ ، ٧٥٨ ، ٧٥٩ ، ٧٦٠ ، ٧٦١ ، ٧٦٢ ، ٧٦٣ ، ٧٦٤ ، ٧٦٥ ، ٧٦٦ ، ٧٦٧ ، ٧٦٨ ، ٧٦٩ ، ٧٧٠ ، ٧٧١ ، ٧٧٢ ، ٧٧٣ ، ٧٧٤ ، ٧٧٥ ، ٧٧٦ ، ٧٧٧ ، ٧٧٨ ، ٧٧٩ ، ٧٨٠ ، ٧٨١ ، ٧٨٢ ، ٧٨٣ ، ٧٨٤ ، ٧٨٥ ، ٧٨٦ ، ٧٨٧ ، ٧٨٨ ، ٧٨٩ ، ٧٩٠ ، ٧٩١ ، ٧٩٢ ، ٧٩٣ ، ٧٩٤ ، ٧٩٥ ، ٧٩٦ ، ٧٩٧ ، ٧٩٨ ، ٧٩٩ ، ٨٠٠ ، ٨٠١ ، ٨٠٢ ، ٨٠٣ ، ٨٠٤ ، ٨٠٥ ، ٨٠٦ ، ٨٠٧ ، ٨٠٨ ، ٨٠٩ ، ٨١٠ ، ٨١١ ، ٨١٢ ، ٨١٣ ، ٨١٤ ، ٨١٥ ، ٨١٦ ، ٨١٧ ، ٨١٨ ، ٨١٩ ، ٨٢٠ ، ٨٢١ ، ٨٢٢ ، ٨٢٣ ، ٨٢٤ ، ٨٢٥ ، ٨٢٦ ، ٨٢٧ ، ٨٢٨ ، ٨٢٩ ، ٨٣٠ ، ٨٣١ ، ٨٣٢ ، ٨٣٣ ، ٨٣٤ ، ٨٣٥ ، ٨٣٦ ، ٨٣٧ ، ٨٣٨ ، ٨٣٩ ، ٨٤٠ ، ٨٤١ ، ٨٤٢ ، ٨٤٣ ، ٨٤٤ ، ٨٤٥ ، ٨٤٦ ، ٨٤٧ ، ٨٤٨ ، ٨٤٩ ، ٨٥٠ ، ٨٥١ ، ٨٥٢ ، ٨٥٣ ، ٨٥٤ ، ٨٥٥ ، ٨٥٦ ، ٨٥٧ ، ٨٥٨ ، ٨٥٩ ، ٨٦٠ ، ٨٦١ ، ٨٦٢ ، ٨٦٣ ، ٨٦٤ ، ٨٦٥ ، ٨٦٦ ، ٨٦٧ ، ٨٦٨ ، ٨٦٩ ، ٨٧٠ ، ٨٧١ ، ٨٧٢ ، ٨٧٣ ، ٨٧٤ ، ٨٧٥ ، ٨٧٦ ، ٨٧٧ ، ٨٧٨ ، ٨٧٩ ، ٨٨٠ ، ٨٨١ ، ٨٨٢ ، ٨٨٣ ، ٨٨٤ ، ٨٨٥ ، ٨٨٦ ، ٨٨٧ ، ٨٨٨ ، ٨٨٩ ، ٨٩٠ ، ٨٩١ ، ٨٩٢ ، ٨٩٣ ، ٨٩٤ ، ٨٩٥ ، ٨٩٦ ، ٨٩٧ ، ٨٩٨ ، ٨٩٩ ، ٩٠٠ ، ٩٠١ ، ٩٠٢ ، ٩٠٣ ، ٩٠٤ ، ٩٠٥ ، ٩٠٦ ، ٩٠٧ ، ٩٠٨ ، ٩٠٩ ، ٩١٠ ، ٩١١ ، ٩١٢ ، ٩١٣ ، ٩١٤ ، ٩١٥ ، ٩١٦ ، ٩١٧ ، ٩١٨ ، ٩١٩ ، ٩٢٠ ، ٩٢١ ، ٩٢٢ ، ٩٢٣ ، ٩٢٤ ، ٩٢٥ ، ٩٢٦ ، ٩٢٧ ، ٩٢٨ ، ٩٢٩ ، ٩٣٠ ، ٩٣١ ، ٩٣٢ ، ٩٣٣ ، ٩٣٤ ، ٩٣٥ ، ٩٣٦ ، ٩٣٧ ، ٩٣٨ ، ٩٣٩ ، ٩٤٠ ، ٩٤١ ، ٩٤٢ ، ٩٤٣ ، ٩٤٤ ، ٩٤٥ ، ٩٤٦ ، ٩٤٧ ، ٩٤٨ ، ٩٤٩ ، ٩٥٠ ، ٩٥١ ، ٩٥٢ ، ٩٥٣ ، ٩٥٤ ، ٩٥٥ ، ٩٥٦ ، ٩٥٧ ، ٩٥٨ ، ٩٥٩ ، ٩٦٠ ، ٩٦١ ، ٩٦٢ ، ٩٦٣ ، ٩٦٤ ، ٩٦٥ ، ٩٦٦ ، ٩٦٧ ، ٩٦٨ ، ٩٦٩ ، ٩٧٠ ، ٩٧١ ، ٩٧٢ ، ٩٧٣ ، ٩٧٤ ، ٩٧٥ ، ٩٧٦ ، ٩٧٧ ، ٩٧٨ ، ٩٧٩ ، ٩٨٠ ، ٩٨١ ، ٩٨٢ ، ٩٨٣ ، ٩٨٤ ، ٩٨٥ ، ٩٨٦ ، ٩٨٧ ، ٩٨٨ ، ٩٨٩ ، ٩٩٠ ، ٩٩١ ، ٩٩٢ ، ٩٩٣ ، ٩٩٤ ، ٩٩٥ ، ٩٩٦ ، ٩٩٧ ، ٩٩٨ ، ٩٩٩ ، ١٠٠٠ ، ١٠٠١ ، ١٠٠٢ ، ١٠٠٣ ، ١٠٠٤ ، ١٠٠٥ ، ١٠٠٦ ، ١٠٠٧ ، ١٠٠٨ ، ١٠٠٩ ، ١٠١٠ ، ١٠١١ ، ١٠١٢ ، ١٠١٣ ، ١٠١٤ ، ١٠١٥ ، ١٠١٦ ، ١٠١٧ ، ١٠١٨ ، ١٠١٩ ، ١٠٢٠ ، ١٠٢١ ، ١٠٢٢ ، ١٠٢٣ ، ١٠٢٤ ، ١٠٢٥ ، ١٠٢٦ ، ١٠٢٧ ، ١٠٢٨ ، ١٠٢٩ ، ١٠٣٠ ، ١٠٣١ ، ١٠٣٢ ، ١٠٣٣ ، ١٠٣٤ ، ١٠٣٥ ، ١٠٣٦ ، ١٠٣٧ ، ١٠٣٨ ، ١٠٣٩ ، ١٠٤٠ ، ١٠٤١ ، ١٠٤٢ ، ١٠٤٣ ، ١٠٤٤ ، ١٠٤٥ ، ١٠٤٦ ، ١٠٤٧ ، ١٠٤٨ ، ١٠٤٩ ، ١٠٥٠ ، ١٠٥١ ، ١٠٥٢ ، ١٠٥٣ ، ١٠٥٤ ، ١٠٥٥ ، ١٠٥٦ ، ١٠٥٧ ، ١٠٥٨ ، ١٠٥٩ ، ١٠٦٠ ، ١٠٦١ ، ١٠٦٢ ، ١٠٦٣ ، ١٠٦٤ ، ١٠٦٥ ، ١٠٦٦ ، ١٠٦٧ ، ١٠٦٨ ، ١٠٦٩ ، ١٠٧٠ ، ١٠٧١ ، ١٠٧٢ ، ١٠٧٣ ، ١٠٧٤ ، ١٠٧٥ ، ١٠٧٦ ، ١٠٧٧ ، ١٠٧٨ ، ١٠٧٩ ، ١٠٨٠ ، ١٠٨١ ، ١٠٨٢ ، ١٠٨٣ ، ١٠٨٤ ، ١٠٨٥ ، ١٠٨٦ ، ١٠٨٧ ، ١٠٨٨ ، ١٠٨٩ ، ١٠٩٠ ، ١٠٩١ ، ١٠٩٢ ، ١٠٩٣ ، ١٠٩٤ ، ١٠٩٥ ، ١٠٩٦ ، ١٠٩٧ ، ١٠٩٨ ، ١٠٩٩ ، ١١٠٠ ، ١١٠١ ، ١١٠٢ ، ١١٠٣ ، ١١٠٤ ، ١١٠٥ ، ١١٠٦ ، ١١٠٧ ، ١١٠٨ ، ١١٠٩ ، ١١١٠ ، ١١١١ ، ١١١٢ ، ١١١٣ ، ١١١٤ ، ١١١٥ ، ١١١٦ ، ١١١٧ ، ١١١٨ ، ١١١٩ ، ١١٢٠ ، ١١٢١ ، ١١٢٢ ، ١١٢٣ ، ١١٢٤ ، ١١٢٥ ، ١١٢٦ ، ١١٢٧ ، ١١٢٨ ، ١١٢٩ ، ١١٣٠ ، ١١٣١ ، ١١٣٢ ، ١١٣٣ ، ١١٣٤ ، ١١٣٥ ، ١١٣٦ ، ١١٣٧ ، ١١٣٨ ، ١١٣٩ ، ١١٤٠ ، ١١٤١ ، ١١٤٢ ، ١١٤٣ ، ١١٤٤ ، ١١٤٥ ، ١١٤٦ ، ١١٤٧ ، ١١٤٨ ، ١١٤٩ ، ١١٥٠ ، ١١٥١ ، ١١٥٢ ، ١١٥٣ ، ١١٥٤ ، ١١٥٥ ، ١١٥٦ ، ١١٥٧ ، ١١٥٨ ، ١١٥٩ ، ١١٦٠ ، ١١٦١ ، ١١٦٢ ، ١١٦٣ ، ١١٦٤ ، ١١٦٥ ، ١١٦٦ ، ١١٦٧ ، ١١٦٨ ، ١١٦٩ ، ١١٧٠ ، ١١٧١ ، ١١٧٢ ، ١١٧٣ ، ١١٧٤ ، ١١٧٥ ، ١١٧٦ ، ١١٧٧ ، ١١٧٨ ، ١١٧٩ ، ١١٨٠ ، ١١٨١ ، ١١٨٢ ، ١١٨٣ ، ١١٨٤ ، ١١٨٥ ، ١١٨٦ ، ١١٨٧ ، ١١٨٨ ، ١١٨٩ ، ١١٩٠ ، ١١٩١ ، ١١٩٢ ، ١١٩٣ ، ١١٩٤ ، ١١٩٥ ، ١١٩٦ ، ١١٩٧ ، ١١٩٨ ، ١١٩٩ ، ١٢٠٠ ، ١٢٠١ ، ١٢٠٢ ، ١٢٠٣ ، ١٢٠٤ ، ١٢٠٥ ، ١٢٠٦ ، ١٢٠٧ ، ١٢٠٨ ، ١٢٠٩ ، ١٢١٠ ، ١٢١١ ، ١٢١٢ ، ١٢١٣ ، ١٢١٤ ، ١٢١٥ ، ١٢١٦ ، ١٢١٧ ، ١٢١٨ ، ١٢١٩ ، ١٢٢٠ ، ١٢٢١ ، ١٢٢٢ ، ١٢٢٣ ، ١٢٢٤ ، ١٢٢٥ ، ١٢٢٦ ، ١٢٢٧ ، ١٢٢٨ ، ١٢٢٩ ، ١٢٣٠ ، ١٢٣١ ، ١٢٣٢ ، ١٢٣٣ ، ١٢٣٤ ، ١٢٣٥ ، ١٢٣٦ ، ١٢٣٧ ، ١٢٣٨ ، ١٢٣٩ ، ١٢٤٠ ، ١٢٤١ ، ١٢٤٢ ، ١٢٤٣ ، ١٢٤٤ ، ١٢٤٥ ، ١٢٤٦ ، ١٢٤٧ ، ١٢٤٨ ، ١٢٤٩ ، ١٢٥٠ ، ١٢٥١ ، ١٢٥٢ ، ١٢٥٣ ، ١٢٥٤ ، ١٢٥٥ ، ١٢٥٦ ، ١٢٥٧ ، ١٢٥٨ ، ١٢٥٩ ، ١٢٦٠ ، ١٢٦١ ، ١٢٦٢ ، ١٢٦٣ ، ١٢٦٤ ، ١٢٦٥ ، ١٢٦٦ ، ١٢٦٧ ، ١٢٦٨ ، ١٢٦٩ ، ١٢٧٠ ، ١٢٧١ ، ١٢٧٢ ، ١٢٧٣ ، ١٢٧٤ ، ١٢٧٥ ، ١٢٧٦ ، ١٢٧٧ ، ١٢٧٨ ، ١٢٧٩ ، ١٢٨٠ ، ١٢٨١ ، ١٢٨٢ ، ١٢٨٣ ، ١٢٨٤ ، ١٢٨٥ ، ١٢٨٦ ، ١٢٨٧ ، ١٢٨٨ ، ١٢٨٩ ، ١٢٩٠ ، ١٢٩١ ، ١٢٩٢ ، ١٢٩٣ ، ١٢٩٤ ، ١٢٩٥ ، ١٢٩٦ ، ١٢٩٧ ، ١٢٩٨ ، ١٢٩٩ ، ١٣٠٠ ، ١٣٠١ ، ١٣٠٢ ، ١٣٠٣ ، ١٣٠٤ ، ١٣٠٥ ، ١٣٠٦ ، ١٣٠٧ ، ١٣٠٨ ، ١٣٠٩ ، ١٣١٠ ، ١٣١١ ، ١٣١٢ ، ١٣١٣ ، ١٣١٤ ، ١٣١٥ ، ١٣١٦ ، ١٣١٧ ، ١٣١٨ ، ١٣١٩ ، ١٣٢٠ ، ١٣٢١ ، ١٣٢٢ ، ١٣٢٣ ، ١٣٢٤ ، ١٣٢٥ ، ١٣٢٦ ، ١٣٢٧ ، ١٣٢٨ ، ١٣٢٩ ، ١٣٣٠ ، ١٣٣١ ، ١٣٣٢ ، ١٣٣٣ ، ١٣٣٤ ، ١٣٣٥ ، ١٣٣٦ ، ١٣٣٧ ، ١٣٣٨ ، ١٣٣٩ ، ١٣٤٠ ، ١٣٤١ ، ١٣٤٢ ، ١٣٤٣ ، ١٣٤٤ ، ١٣٤٥ ، ١٣٤٦ ، ١٣٤٧ ، ١٣٤٨ ، ١٣٤٩ ، ١٣٥٠ ، ١٣٥١ ، ١٣٥٢ ، ١٣٥٣ ، ١٣٥٤ ، ١٣٥٥ ، ١٣٥٦ ، ١٣٥٧ ، ١٣٥٨ ، ١٣٥٩ ، ١٣٦٠ ، ١٣٦١ ، ١٣٦٢ ، ١٣٦٣ ، ١٣٦٤ ، ١٣٦٥ ، ١٣٦٦ ، ١٣٦٧ ، ١٣٦٨ ، ١٣٦٩ ، ١٣٧٠ ، ١٣٧١ ،

وهذا الاضطراب الاقتصادي من شأنه - طبعاً - احداث اختلال في العلاقات الاجتماعية ودفع الناس الى الهجرة او الخروج على القانون كما كانت تفعل عصابات الغشتى وابن هود .

ومن اخطر الظواهر البارزة على صعيد المجتمع في هذا العصر عودة ظاهرة " الجلاء " التي كانت ملحوظة في المجتمع الاندلسي في حقبة سابقة (١) الى البروز والتأثير بشكل جذري اعمق واخطر من ذي قبل . ففي بداية هذه الحقبة اخذت الجماعات الاندلسية تنتقل من منطقة الى اخرى تبعا للظروف الحربية والاقتصادية ، ومع سقوط القواعد الاندلسية الكبرى - فنى نهايتها - اضطرت جموع الاندلسيين الى الهجرة جنوبا حتى غادرت الاندلس نهائيا - عدا الجماعات التي تحصنت فسى منطقة غرناطة . وهكذا تغير الوجه البشرى - الحضارى لجنوب اسبانيا بحلول الاسبان محل العرب الذين كانوا ارقى حضارة منهم . وهنا تجدر الاشارة الى ان العلاقات العربية - الاسبانية كانت تتم بالعداء والعنف في هذه الحقبة نظرا للصراع المصيرى القائم بين الطرفين . اما مسألة التأثير والتأثر فمسألة يحسن الالتفات اليها الا انها خارج نطاق بحثنا هذا . واذا كانت اسبانيا واوروبا قد فقدتا جماعة من انشط الجماعات في القرون الوسطى ، فان شمال افريقيا وتونس بالذات قد غنما اذكى عناصر تلك الجماعة حيث تطعمت الدولة الحفصية الناشئة في تونس بالمتقنين والمهنيين الاندلسيين . ولنا ان نتصور ان كثيرا من مميزات الطابع الاندلسي قد انتقل مع اولئك الى المجتمع التونسي .

نأتى الان الى التساؤل الاهم : ماذا كانت رد فعل الاوساط الثقافية الاندلسية ازاء هذا الوضع الحرج الذى انتهت بكارثة ؟  
يمكننا في هذا المجال الاشارة الى ثلاثة نماذج من ردات الفعل عند رجال الثقافة :  
النموذج الاول هو موقف التفاعل القوى المباشر مع الاحداث بحيث يواجه المثقف او العالم ظروف الموقف مواجهة يومية ويترك عمله العلمى اما ايماناً منه بضرورة العمل الوطنى والدينى واما رغبة منه فى الاستفادة الشخصية من اختلال

سير الامور . يمثل هذا الموقف عالم في الحديث مثل ابي الربيع بن سالم الكلاعي الذي ترك التدريس في بلنسية ليقاتل حول حدودها ويستشهد بعد ان احسن بخطر الغزو والداهم ، عالم زاهد آخر هو ابوبكر عزيز بن خطاب الذي كان معروفا " بشعار الزهد والعلماء " في مرسية ثم انتقل فجأة الى " زى اصحاب السيوف ... وسفك الدماء " حيث تولى حكما قصيرا مضطربا فيها دفع حياته ثماله .

اما النموذج الثاني فموقف من يساير الاحداث ويرتبط بها ولكنه يظل محافظا على نشاطه العلمي ولا يسمح لارتباطه بالاحداث ان يغرقه فيها بل يراقب الموقف بحذر حتى اذا تحجج لدرجة الخطر الشديد تركه وهاجر من وطنه يمثل هذا الموقف اصدق تمثيل ابن الابار ، المصنف <sup>البلنسي</sup> ~~بالطلي~~ الكبير ، الذي كتب لابي زيد بن ابي حفص والى بلنسية ثم تركه عندما لجأ الى الارجونيين وتنصر ، وعاد الى امير بلنسية الجديد ابن مردنيش وذهب سفيرا عنه الى تونس ابان محنة بلنسية . . . . . ولكن عندما سقطت بلنسية واخذ ابن مردنيش يغامر في سبيل السلطنة في المدن المتبقية من شرق الاندلس تركه ولجأ الى تونس لبدء حياة جديدة في ظل الحفصيين . (١) واما النموذج الثالث فموقف من ينصرف الى نشاطه العلمي انصرافا كليا ويظل يراقب الاحداث من بعيد . افضل مثل على ذلك صاحبنا ابن سعيد نفسه ، بالرغم من ان اباء واجداده تولوا الامارة وشغلوا مناصب سياسية ، نجده لا <sup>يلتفت</sup> ~~يتطرق~~ الى ذلك ، وينمنا كان الاندلسيون يصارعون انفسهم ويناضلون ضد الموحدين والاسبان في عهد ابن هود كان ابن سعيد يجول لمدينة الاندلسية مسجلا مادته العلمية لكتاب المغرب لا يعنيه من امر الحوادث شيء ، وقد غادر الاندلس نهائيا سنة ٦٣٦ هـ ، اي قبل سقوط بلد اشبيلية بعشر سنين (٢) مثل آخر على ذلك : احمد بن منق الاشبيلي المعروف بابن الرومية الذي وهب حياته لعلمي الحديث والنبات ورفض الاشتراك فسي تبعات الحكم او الوظيفة . (٣)

(١) - القدح ١٩١

(٢) - راجع الفصل الخاص بحياته من هذا البحث .

(٣) - القدح ١٨١

ومهما كانت المواقف المتخذة ، فان الحركة الثقافية في هذا العصر كانت نشطة خصبة . رغم الحوادث الجسام والقلق والاضطراب ، بل ربما كان لتلك الاحداث فضل في تنبيه الازدهار وتعميق الحس التاريخي والوعي العقلي عند المثقفين خاصة . وقد سبق هذه الفترة - كما اتضح - الشطر الاول المستقر المزدهر من عهد الموحدين حيث اتيج للثقافة الاندلسية في ظل من الامن والدعة مواصلة مسيرتها في ظل تفهم امراء الموحدين وتعاطفهم وتشجيعهم الفعلي في اكثر الاحيان مع ما عرف عن المعهد الموحدي من انشاء معاهد العلم ورعايتها والاشراف على الطلاب والحفاظ وعلالتهم . واذا كان من اثر سلبى للمعهد الموحدي الاول على الثقافة الاندلسية فهو توجيهه لبعض فروع العلم كعلوم الدين ، ووقوفه احيانا في وجه علوم اخرى كالفلسفة .

ثم تأتى حقبة التحول والاضطراب هذه ، ومتلاشى العلم الموحدي ، ولكن الثقافة الاندلسية تحتفظ بالكثير من حيويتها وزخمها وتظل قيسم الثقافة محترمة مقدرة باعتبارها قيسا في <sup>بعض</sup> ~~بعض~~ ذاتها . فتستمر المناقشات الفقهية والادبية والنحوية في المعاهد اشبيلية ومدارسها ومواصل الناس اقبالهم عليها للتخرج فيها والتزود من جوها العلمى النشط . وكان رجال الثقافة يجلسون العلم ومضعونه فوق كل اعتبار ومضحون في سبيلهم ، فهذا موسى والد ابن سعيد ، وهو سليل لعرق الاسر الاندلسية نسبا ومكانة ولما ، يلاحق الكتب انى كانت وسير الى اصحابها مهما اتضعت مكانتهم . كان امير الجزيرة الخضراء - <sup>ع</sup> كما يجده منهم من جفا ثم انه يخبر ولده ان ما ناله من الفوائد العلمية افضل من الولاية التى نالها <sup>(١)</sup> ففى اليوم ذاته <sup>بذ</sup>

وكان موسى هذا يقضي ايام اعياده " فى جهد عظيم من الكتب " وجد فى ذلك الراحة الحقيقية . ولقد حدثنا ابن سعيد كثيرا عن مكبات الافراد الذين ترجم لهم فى " القدح المعلق " (٢) وما كانت تحويه من فوائد . وما كان يبذل فى سبيل جمعها من جهد .

وارى ان كثيرا من المثقفين حاولوا تحدى عصرهم القاسى وسجابهة ظاهرة الفناء والتشتت بمزيد من الاعمال العلمية - التى تبقى بعد فناء المال والاهل والوطن - تأكيداً للذات والوطن وحرصاً على التراث وامجاد الرجال الذين افنتهم صروف الدهر . ولربما استطعنا على ضوء ذلك تفسير ظاهرة كثرة التواريخ والتراجم والسير فى هذه الفترة . وان الذى يتصفح كتاب " القدح المعلق " لابن سعيد يشعر بالجسوس الثقافى المزدهر الذى كان يعيشه الاشبيليون خاصة ، وكان مدينتهم بعيدة عن الاضطرابات وتهديدات الغزو والافناء . وان روح التحسنى ذاتها هى التى تلى على ابن الابار - افصح متحدث بلسان اهل العلم فى هذه الحقبة - ان يبدأ بالاعداد لكتاب التكملة سنة ٦٣١ وكتائب اراجون تقترب من اسوار ولايه بلنسية . وهو فصيح عن ذلك بعبارة تتم عن وعيه بالموقف الخطير : " وكان انبعاسى لهذا التقييد اول شهر المحرم سنة احدى وثلاثين وستمائة . . . ليُعلم انها ( لاندلس ) ما افلتت أهلّتها ، وان افضلت علتها ومطلت على البرء ادلتها ، ولاهوت نجومها وان اقوت رسومها . . . ومع غريبه الاسلام فيها . . . وجز قومها عن تلافياها ، فالعلم ما صرفت علفها ، ولا عدمت بالجملة حلقها . . . ومصدق ذلك اصل احسانهم والجل مبتور ، ونظم جملهم ( جميلهم ؟ ) والشمل منشور . . . ويبدو ان الكارثة والتشرد قد اثرا سلبيا فى هذه الروح المتحدية اذ يخبرنا ابن الابار

(١) - النسخ ١٦٩/٢

(٢) - القدح ٨٦

(٣) - ابن الابار ، التكملة لكتاب الصلة ، ص ٣

ان الاحداث التى " ختمت بالمصيبة الكبرى فى اشبيلية مصائبها ودهمت بالجلال المكتوب والرجاء المكذوب عصائبها " جعلته ينقطع عن الكتابة مدة من الزمن متعللا بما عانى من خطوبه ، ولكن الحاج الاصحاب عليه بالعودة الى التصنيف ، قبل ان يصيبه مكروه ويضيع ما لديه من علم ، اجبره على اتمام التأليف حفظا للحقيقة من الضياع ، بعد ان استخار " الله فى الاسعاف والاسعاد " (١) ويستخير الله مع ابن الابار مئات العلماء الاندلسيين الذين سيفاجئهم هول الصدمة فى البداية ثم يستفيقون فى مهاجرهم الجديدة ليعودوا سيرتهم الاولى .

\* \*

وليس من الممكن فى هذه المقدمة الموجزة ان نؤرخ للحركة الثقافية رجالا وفروها وخصائص ومراكز ومذاهب بالتفصيل . الا انه لابد من عرض عام للعلم الادبيى واهم الجغرافيين والرحلات على وجه الخصوص نظرا لان مصنفات ابن سعيد منتصب فى هذين العلمين اساسا .

يبدو شعر هذه الفترة غزيرا متوها ، مصطبغا بطابع عصره القلق المضطرب والشعر من طبيعته ان يكسب حدة وحيوية فى عصر كهذا . يبدو شعر هذه الفترة معبرا عن طابعها وروحها عندما يتوزع فى موضوعاته بين تسجيل الاحداث المتلاحقة ، والنكبات المتتالية من ناحية وبين الانصباب على وصف مجالس اللهو والغزل الفلمانى والخمريات من ناحية اخرى ، وكأنه يعكس واقع مجتمعه الذى يواجهه مرارة الحقيقة تارة وهرب الى اللهو واللذات تارة اخرى . وسيعبر الشعر فى هذه الفترة عن مشاعر الغربة خاصة عندما يستقر الشعراء فى مهاجرهم الجديدة بعد سقوط مدنهم الاندلسية

وسنرى كيف ان هذه الابعاد ستحجب ظلالها على شعرا ابن سعيد نفسه بشكل اوبآخر . وعلى الصعيد النفسى سينتج الشعراء نحو المزيد من الكد ذهنى وطلب الصورة البعيدة " الجديدة " كما سيالفنون فى اصطناع الاسلوب الرقيق المحمل بالمحسنات البديعية انجماما منهم مع " الظاهرة الزخرفية " المائدة فى مجتمعهم .

وقد اعتنت المصنفات الادبية فى هذا العصر - كمنشآت ابن البار وابن سعيد - عناية فائقة برواية الشعر ، حتى انها تتبعت الفقهاء والنحويين والمحدثين والنباتيين والفلاسفة والامراء فيما قالوه من شعر ولو كان لا يتمدى البيتين او الثلاثة . بل ان المصنف فى اغلب الاحيان لا يترجم للعالم اذا لم يكن له شعر . ومن اشهر شعراء هذه الحقبة ابن سهل الاسرائيلى الذى اعاد جوابى نواس فى خمرياته وغلانياته وامتاز بحدة فى الشعور ورقة فى التعبير ، وابوبكر الصابونى وابن حيون الاشبيللى ، وابن زهر الحفيد ، وابو البقاء الرندى ، وابن البار ، وابن سعيد . والطابع الغالب على الشعر اتجاه نحو طريقة المحدثين الا ان بعض الشعراء لاسباب معينة يسيرون على نهج طريقة العرب كـ <sup>(١)</sup> بعض قصائد ابن سعيد وكقصائد ابن سهل " الحجازية " ، غير ان هذه حالات فردية .

وواصل الاندلسيون اهتمامهم بفنهم الشعرى الخاص : الموشح ، فأخذ عدد الوشاحين يزداد وتوسعت موضوعات التوشيح ، الا ان ازدياد العناية بالصنعة اللفظية افقد الموشح بعض رفته . وما يدل على

(١) - القدح ٨

(٢) - تاريخ الادب الاندلسى (عصر الطوائف والمرابطين) : ٢٥٠ - ٢٥١

ازدياد أهمية الموشحات في هذا العصر ان ابن سعيد قام بوضع الموشحات جنباً الى جنب مع الشعر الكلامي في مؤلفه الموسوم الهام " المغرب " وربما كان ذلك لأول مرة في تاريخ التصنيف الادبي .

اما على صعيد الاعمال النقدية فنذكر كتاب ابى البقاء الرندى " الوافى في نظم القوافى " الذى يمكن اعتباره تعبيراً عن وجهة نظر مذهب الحديثين ، وسنعود الى هذا الكتاب عند الحديث عن النقد عند ابن سعيد . وما تجدر الاشارة اليه في هذا المجال " رسالة الشقدي (١) في المفاضلة بين الاندلس والمغرب التى تتضمن بالاضافة الى تعبيرها عن النعمة الاندلسية ورفضها لعلوم الاندلسيين ، بعض اشارات نقدية . واذا اعتبرنا مؤلف الرندى مثلاً لما يمكن تسميته بالنقد المنهجي في هذا العصر ، فان الرسالة هذه تمثل طابع النقد الذاتى التأثرى .

وفى مجال النقد الادبي قام ابو العباس الشريشى بشرح مقامات الحريري والتعليق عليها . وقد اثار شرح الشريشى اهتماماً كبيراً مما يدل على اعجاب الاندلسيين بفن المقامة (٢) كما شرح مقامات الحريري في هذا العصر محمد احمد بن سليمان الملقى . اما في فن الرسائل فقد اشتهر ابو المطرف بن عيسى الذى كتب لامراً بلنسيه فالمغرب فتونس . وقد قال عنه ابن سعيد : " شيخ كتاب زماننا وامام ادباء اواننا (٣) " واساميه في النشر كالمصوب مجازيه يقوم على العبارات القصيرة المسجوعة ، وعلية مسحة قوية من التعبير القرآنى جاءت من ثقافته الفقهية ، ان كان قاضياً .

(١) - النسخ ١٧٧/٤ - ٢٠٨

(٢) - السيوطي ، بغية الوعاة ، ص ١١

(٣) - القدح ٤٢



ويحدثنا ابن سعيّد عن حركة نحوية قوية شهدها هذا العصر فيقول ان " النحو عندهم ( الاندلسيين ) في نهاية من علوم الطبقة حتى انهم في هذا العصر كالصحاب عصر الخليل وسيبويه ..... وهم كثيروا البحث فيه وحفظ مذاهبه كذاهب الفقه ، وكل عالٍ في اى علم لا يكون متمكناً من علم النحو ..... فليس عندهم بمستحق للتميز <sup>(١)</sup> ومن اشتهر علماً النحو ابو علي الشلوبى الذى شرح " الجزولية " و " التوطئة " وكان له صيت ذائع تعدى الاندلس والمغرب وكان الناس يقصدونه في اشبيلية من جميع الانحاء ، واشتهر <sup>(٢)</sup> " باقرا " مصنفات الادب الجليلية " بالاضافة الى شهرته النحوية " ومن معاصري الشلوبى وتلاميذه ابو الحسن بن عصفور الاشبلى صاحب كتاب " المقرب " <sup>(٣)</sup> في النحو ، وقد عرف ابن عصفور باملومه التعليم السهل في التأليف وكذلك يمكن اضافة ابن مالك صاحب " الالفية " في نظم قواعد النحو الى نحوي هذه الحقبة وان كان قد عمر بعدها ( توفى سنة ٦٢٢ ) . وملاحظ ان الجهود النحوية كانت منصبة على الشرح وتبسيط القواعد ونشرها . وربما كان اهتمام العصر بالبراعة اللغوية من اسباب ازدهار هذه الحركة النحوية .

ومع هذه الحركة ظهرت فئة من الاساتذة تقوم باقراء كتب الادب وشرحها . من هذه الطائفة <sup>(٤)</sup> ابو الحسن الدباج ، والاعلم البطليوس اللذان كانا يعلمان في معاهد اشبيلية ، وقد تتلمذ عليهما ابن سعيّد نفسه .

---

(١) - النسخ ٢٠٥/١ - ٢٠٦

(٢) - القدح ١٥٢

(٣) - الغبريني عنوان الدراية ، ص ١٨٨

(٤) - القدح ١٥٥

وفى حقل التاريخ الادبى والتراجم وجمع النصوص الشعرية ،  
يبرز ابن سعيد وابن الابار عليهما على هذه الحقبة . وشمس  
مصنفاتها كافة الاتجاهات المنهجية التى عرفها فن التصنيف من قبل ،  
فالحلقة السيرة لابن الابار تترجم لشخصيات من الاندلس والمغرب  
منذ القرون الاولى اى انها مقيدة مكانا شاملة زمانا ، وكتاب " التكملة "  
له يهتم بالاندلسيين خصوصا فى نطاق الزمن الذى وصل اليه ابن  
بشكوال ( ٥٢٨ ) فى " الصلة " وان كان لا يتقيد بحدود الكتاب  
الاخير حرفيا . بينما يقوم كتاب " تحفة القادم " على معارضة " زاد السافر "  
لصفوان ابن ادريس ( ٥٩٨ ) ويختص بالاندلس ايضا لكنه زمنيا ينحصر  
فيمن سبق وفاته مولد المؤلف على وجه العموم (١) ، وسرى عند الحديث  
عن منهج ابن سعيد فى التصنيف كيف ان فن التصنيف الادبى هذا  
العصر استفاد من تطور العلوم فاخذ يميل الى الدقة فى التقسيم  
والتبويب بشكل تفصيلى كما يفعل النحاة والفقهاء والمناطق فى  
تقسيمهم وتبويبهم لفروع علومهم . وسيكون منهج ابن سعيد فى تصنيف  
" المغرب " افضل مثال على ذلك ، هذا المنهج الذى لوقارناه بمنهج  
" الاغانى " القائم على تداعى الرواية لادراك مدى الفرق الهائل  
الذى طرأ فى حقل التصنيف الادبى خلال اربعة قرون تقريبا .

اما فى نطاق الجغرافية والرحلات ، فان نشاط هذه الحقبة  
فى الحقلين تأثر بصورة واضحة بالنتائج الجغرافى وجهود الرحالة  
خلال القرن السادس ، هذا القرن الذى يمكن اعتباره الفترة الذهبية  
وعصر النضج لعلم الجغرافية والرحلات فى الاندلس خاصة والمغرب عامة .

---

(١) - ابن الابار ، المقتضب من تحفة القادم ، ص " ى "

ففى النصف الاول من القرن السادس ظهر الشرف الادريسي (٤٦٣ + ) الذى يعتبره الباحثون من اعلام الجغرافيين العرب ، والذى سيبدى جادة وطرافة فى ابحاثه الجغرافية ، فكتابه " نزهة المشتاق " من اهم الكتب التى تمثل ظاهرة الجمع بين الجغرافيا والوصفية والجغرافيا الفلكية ، وهو يضم مصورات جغرافية لاقسام الاقاليم السبعة وهذه تعتبر من الظواهر الجديدة فى الجغرافية العربية . كما انه فى هذا الكتاب اعتمد على مصادر اوربية اطلع عليها فى بلاط مضيئه روجير الثانى Roger II ملك صقلية ، بالاضافة الى مصادره العربية (١) وسرى عند الحديث عن جغرافية ابن سعيد ان كتاب " نزهة المشتاق " لادريسي واحد من اهم مصادره الجغرافية . اما فى النصف الثانى من القرن السادس فقد ظهر الرحالة الشهير ابن جبير ( ٥٤٠ - ٦١٤ ) الذى وان كانت رحلته وصفا للبلاد الشرقية ، فان انطباعاته وميوله ستترك اثرها عند قرائه المغاربة وخاصة المهتمين بالرحلة منهم . وسنجد ان ابن سعيد فى تسجيله لمشاهد بعض رحلاته سبهم بالنواحي الاقتصادية والثقافية كما فعل ابن جبير فى رحلته من قبله .

ومن رجال الجغرافية والرحلة فى المغرب ابن فاطمة الذى يكتشفه شىء من الغموض ، ولولا ما نقله عنه ابن سعيد من معلومات جغرافية تتعلق بغرب افريقيا ووسطها لما امكن التعرف الى طبيعة جهوده (٣) والراجح انه قام برحلة بحرية جنوبى مراكش وربما وصل الى ساحل الذهب على الساحل الافريقى الغربى .

(١) - انظر مادة (جغرافيا " فى الموسوعة الاسلامية ج ٧ ص ٢٦ ( الترجمة العربية )

(٢) - انظر فصل " ابن سعيد الرحالة الجغرافى " من هذا البحث .

(٣) - ابن سعيد ، بسط الارض فى الطول والعرض ص ١٤ ، ٣٦٤

(٤) - زكى حسن ، الرحالة المسلمون فى القرون الوسطى ، ص ١٢٢

وقد تعمق الحس الجغرافى فى الاندلس مع نشوء دول الطوائف فى المدن الاندلسية المختلفة حيث اخذت كل مدينة تفتخر على الاخرى . بما لها من حسنات ، وازداد هذا الحس عمقا عندما بدأ الاحتكاك قويا بين الاندلس والمغرب عهدى المرابطين والموحدين . ويعتبر العصر الموحدى عامة عصرا زدهار للنشاط الجغرافى خصوصا فيما يتعلق بافريقيا حيث توسعت الدولة الموحدية فى افريقيا الغربية ؛ كما يذهب بعض الباحثين الى ان المغاربة قاموا باكتشاف منابع النيل فى هذا العهد .

ومن اهم الخصائص التى تميزها التأليف الجغرافى فى عصر ابن سعيد امتزاج الجغرافيا بالتاريخ والادب . من دلائل ذلك كتاب "المعجب" لعبد الواحد الراكشي ( ٦٢١ ) الذى منج بين الجغرافية والتاريخ . وكتاب ياقوت "معجم البلدان" حيث امتزجت الجغرافيا بالتاريخ بالادب ، وكتاب "المغرب" لصاحبنا ابن سعيد نفسه الذى ارتبط فى ذهنه التصنيف الادبى بالتصور الجغرافى . ومن الخصائص الملحوظة ايضا نقل معارف السابقين وتنظيمها وتبويبها بعد صياغتها فى اسلوب ادبى - والميل الى ذكر العجائب والخوارق .

وانما لهذه الصورة الموجزة يجل بنا الاشارة الى اهم الاسماء فى نواحي المعرفة الاخرى . ففي علم الحديث اشتهر خلال هذه الحقبة ابن القطان الكتانى المعافى (٦٢٢-) وابو الربيع الكلاعى البلنسى ( ٦٣٣ ) الذى يعتبر عالم العصر الاول فى الحديث ، وابن الرومية ( ٦٣١ ) الذى عرف بميله الى المذهب الظاهرى .

---

(١) محمد المنوفى ، المعلوم والاداب والفنون على عهد الموحدين ص ٩٣

(٢) - انظر مادة "جغرافيا" فى الموسوعة الاسلامية

وَفِي حَقْلِ التَّصَوُّفِ بَرَزَ اسْمُ ابْنِ عَرَسٍ ( - ٦٣٨ ) وَتَلْمِيزُهُ ابْنُ سَبْعِينَ ( - ٦٦٩ ) وَنَظَرْنَا ابْنِ الْإِسْطِثَانِ أَمْضِيَا الشَّطْرَ الثَّانِي مِنْ حَيَاتِهِمَا فِي الْمَشْرِقِ .  
أَمَّا فِي عِلْمِ النَّبَاتِ فَنَشِيرُ إِلَى ابْنِ الرُّومِيَّةِ السَّابِقِ الذِّكْرِ الَّذِي قَامَ بِرَحْلَةٍ عِلْمِيَّةٍ إِلَى الْمَشْرِقِ لِدِرَاسَةِ النَّبَاتِ ثُمَّ عَادَ إِلَى أَشْبِيلِيَّةِ . وَنَخَصَ بِالذِّكْرِ ابْنُ الْبَيْطَارِ الْعَالِمَ النَّبَاتِيَّ الشَّهِيرَ ( - ٦٤٥ ) الَّذِي رَجَلَ إِلَى الْمَشْرِقِ أَيْضًا وَتَوَفَّى فِي دِمَشْقَ ، وَكَتَابَهُ " الْجَامِعُ " مِنْ الْمَصَادِرِ الْعِلْمِيَّةِ الْهَامَةِ فِي الْقُرُونِ الْوَسْطَى .

#### ( ٥ ) أَهْمُ الْمَرَكَزِ الْعِلْمِيَّةِ فِي هَذَا الْعَصْرِ :

أَمَّا فِيهَا يَخْتَصُّ بِمَرَكَزِ الْعِلْمِ ، فَانَّنَا نَرَى أَشْبِيلِيَّةَ تَحَافِظَ عَلَى مَكَانَتِهَا إِلَى مَا بَعْدَ مُنْتَصَفِ هَذِهِ الْحَقْبَةِ ( أَيْ حَوْلَى ٦٣٥ ) مُوَاصِلَةً دَوْرَهَا الَّذِي اضْطَلَعَتْ بِهِ مِنْذُ الْعَهْدِ الْمُوَحَّدِ الْأَوَّلِ .  
وَلَقَدْ اِمْتَاَزَتْ أَشْبِيلِيَّةُ بِكثْرَةِ مَعَاهِدِهَا وَأَقْبَالَ الطَّلَابِ عَلَيْهَا مِنْ سَائِرِ أَنْحَاةِ الْأَنْدَلُسِ - وَكَذَلِكَ الْمَغْرِبِ - لِلدِّرَاسَةِ فِيهَا . وَتَوَجَّهَ رَجَالُ الْعِلْمِ نَحْوَهَا لِإِظْهَارِ عِلْمِهِمْ وَنُبُوغِهِمْ . وَكَثُرَ مُصَنِّفِي هَذِهِ الْفَتْرَةِ وَهَلُمَّا فِيهَا وَفَقَهَا فِيهَا وَشَعْرَاهُ فِيهَا أَشْبِيلِيُّونَ : أَصْلًا أَوْ أَقَامَةً . وَنَخَصَ جَوَا أَشْبِيلِيَّةَ بِشَيْءٍ مِنَ التَّفْصِيلِ بَعْدَ قَلِيلٍ لِمُكْتَفِينَ هُنَا بِالْإِشَارَةِ إِلَى كَوْنِهَا الْمَرْكَزِ الْأَعْظَمِ لِلثَّقَافَةِ فِي هَذَا الْعَصْرِ .  
وَمَعَ اقْتِرَابِ سَقُوطِ أَشْبِيلِيَّةِ وَمُقْبِلَةِ الْأَنْدَلُسِ ، كَانَتْ الْظُرُوفُ تَعِدُّ تَوْنِسَ لِمَكَانَةِ أَشْبِيلِيَّةِ وَلِتَصْبِحَ أَهْمُ مَرْكَزِ ثِقَافَتِي فِي الشَّامِ الْإِفْرِيقِي . فَفِي ظِلِّ الْحُكْمِ الْحَفْصِيِّ ، أَكْثَرَ النَّظْمِ اسْتِقْرَارًا فِي الْمُنَاطِقَةِ عِنْدَهُ ، أَخَذَ الْأَنْدَلُسِيُّونَ يَتَوَافَدُونَ عَلَيْهَا بِكثْرَةٍ حَامِلِينَ مَعَهُمْ خَزَائِنَهُمُ الْعِلْمِيَّةَ لِيُعِيدُوا خَلْقَ جَوْهَرِ الْعِلْمِ مِنْ جَدِيدٍ .

ونلاحظ ان حياة ابن سعيد نفسه كانت - قبل رحيله الى المشرق - موزعة بصورة رئيسية بين اشبيلية وتونس حيث كانت الاولى متألفة في بداية الحقبة وحيث بدأت الثانية تتألق مع نهايتها وفي السنين التي تلت . ويصدق هذا القول على اكثر علماء اشبيلية خاصة والاندلس عامة .

الى جانب هذين المركزين الرئيسيين الهامين ، كانت هناك مراكز اخرى فى الاندلس لها دورها الثقافى مثل قرطبة وملنسيه في اوائل الحقبة ، الا انهما لم تكونا فى مكانة اشبيلية التي كانت عندئذ قاعدة السلطات ، واكثر امانا - نسبيا - من حيث التأثير بسير الغزو الاسبانى اذ لم يصلها الاسبان الا بعد ان احتلوا قرطبة بثلاث عشرة سنة وملنسيه بعشر سنين . وفي اواخر هذه الحقبة كانت الظروف تنهض غرناطة لتكون المركز العلمى الوحيد والاخير فى الاندلس . فبعد سقوط المدن الاخرى قصدوا بعض العلماء للعيش فى ظل اميرها ابن الاحمر الذى هادن الاسبان وبدأ يضع اسم امارته الجديدة . غير ان وضع غرناطة لم يكن واضحا فى الزمن الذى نتحدث عنه وكان ثمة خوف من سقوطها مع البقية ، لذا لم تزدهر الحركة العلمية بها اثناء تلك الحقبة بالذات وان كانت بذورها قد بذرت .

اما فى الامارة الحفصية ، فنشاهد الى جانب المركز الثقافى الاهم : تونس ، المدينة <sup>بجاية</sup> التي يعود ازدهارها العلمى - بصورة رئيسية - الى العلماء <sup>(١)</sup> الاندلسيين المهاجرين اليها من اشبيلية وملنسيه ومالقة ومرمية وشا طبة . ويبدو ان الصبغة الدينية كانت غالبية على النشاط الثقافى فى بجاية اذ قصدوا كبار متصوفة العصر وفقهائه وحفاظه . ومن المراكز العلمية الجديدة بالذكر فى هذا المجال جزيرة منورقة حيث اقام الرئيس العالم الاديب سعيد بن حكم القرشى نظاما مرنا مهادنا للاسبان . فكان بعض العلماء المهاجرين من الاندلس يقصدون بلاطه للاقامة او يعرون به طلبا للمساعدة . وكانت العلاقات العلمية ناشطة بين منورقة وتونس فى ذلك الوقت بفضل علماء الاندلس خاصة <sup>(٢)</sup> .

(١) - عنوان الدراية: ٥٥ ٤٣٥ ٥١٥ ١٣٩٥ ١٧٤٥ ١٨٨٥

(٢) - المصدر السابق: ٥ ١٣٥ ٢٠٥

(٣) - القدح: ٢٨

(٣) اشبيلية فى عصر ابن سعيد

١ - جواشبية الطبيعى والعمرانى :

تق اشبيلية على نهر الوادى الكبير الذى يمر بها آتيا من قرطبة منسابا نحو مصبه عند البحر المحيط . وهذا الموقع جعل منها مينا نهريا داخليا ، بالإضافة الى اهمية مركزها فى التجارة البرية . كما ان وجودها فى هذه المنطقة النهرية جعل منها قاعدة لمنطقة زراعية واسعة . وهذا الجوالطبيعى الاخضر كان له اثره فى تلطيف اذواق الاشبيليين وتعميق احساسهم بالمنظر الجميل : فالريف الاشبيلى يمتاز بـ " الماء الجارى والاشجار المتكاثفة كالنارج والليمون .. وغير ذلك <sup>(١)</sup> ، فهو " كرم التربة ، دائم الخضرة لاتكاد تشرق فيه بقعة لالتفاف زيتونه " حتى ان السائر يمشى اربعين ميلا فى مثلها " فى ظل الزيتون والتين <sup>(٢)</sup> . كما ان نهريها الذى يخرقهما يمتاز عن سائر الانهار بـ " كون ضفتيه مطرزين بالمنازه والبساتين والكروم ، متصل ذلك اتصالا لا يوجد على غيره " . وهذا الحس الطبيعى سحب نفسه على مظاهر العمران فى المدينة ، فقد اهتم الاشبيليون بـ " تزيين الخارج والداخل " من مبانيهم وراعوا تبييضها لتتناسب مع جو مدينتهم الاخضر فاذا " هي من تبييضهم لها نجوم فى سما الزيتون " على حد تعبير الشقندى الذى يصنف اشبيلية فى تلك الحقبة بالذات . وسيفتقد الاشبيليون هذا الانسجام بين البياض والخضرة الذى سيظل مقياسا لحكمهم على جمال المدن ونضارتها حتى ان ابن سعيد نفسه سيتعجب عند دخوله " الديار المصرية من اوضاع قراها التى تذكر العين بسوادها ، ويضيق الصدر بضيق اوضاعها ...

(١) - نفح الطيب: ٢٠٠/٤

(٢) - المصدر السابق: ١٥٠/١

(٣) - المصدر السابق: ١٩٩/٤

وفى الاندلس . . اذا توجهت من اشبيلية فعلى مسيرة يوم . . . مدينة شريش وهي  
فى نهاية من الحضارة والنضارة ، ثم يليها الجزيرة الخضراء كذلك ، ثم مالقة . . . . .  
وهذا كثير فى الاندلس (١).

## ٢ - عظمة اشبيلية فى العصر الموحدى :

عندما تألفت اشبيلية فى عصر ابن سعيد مركزا ثقافيا وحضاريا فى بلاد الاندلس  
ومنطقة المغرب الاسلامي كله ، لم يكن تألقها هذا امرا عابرا او حادثا جاء مع  
السلطان الموحدى ونشأ لظروف دقيقة محدودة . فاشبيلية كائن حضارى عريق  
اخذ ينمو تدرجا وصعدا مع حركة التاريخ حتى شهد كامل نموه فى العصر الموحدى .  
عندما كانت اسبانيا رومانية كانت اشبيلية قاعدة الرومان ، وعندما اصبحت قوطية  
اوضحت اشبيلية اكبر مدنها وارقي مركز فكري فيها ، وعندما غدت عربية امت  
اشبيلية مقر اول امرائها : عبد العزيز بن موسى بن نصير . لذا كان انقيادها  
لقوطية صعبا ، اذ تمردت عليها يوم كانت قرطبة اموية وانفصلت عن سلطنة  
خلفاء عبد الرحمن الثانى بن الحكم فى ظل امرائها بني الحجاج . وما ان خربت  
الفتنة البربرية قرطبة سنة ٤٠٠ هـ حتى غدت اشبيلية المدينة الاولى  
فى الاندلس : عمران وسياسة وثقافة .

تألفت مع تألق الشعر والادب فى بلاط بني عباد ثم اخذها المرابطون عاصمة  
لهم عندما حكموا الاندلس واخيرا غدت عاصمة الموحدين عندما انتقل اليها الخليفة العالم  
يوسف بن عبد المؤمن ، وواصل الاقامة فيها خلفاؤه من بعده اثناء وجودهم فى الشطر  
الاندلسي من دولتهم . وقد حظيت اشبيلية بالكثير من اهتمام هذا العاهل المثقف  
المشجع للعلوم وال عمران . فهو " الذى مصر اشبيلية وامربينا " سورها من جهة الوادى . .  
بعد هدم السيل له عام اربعة وستين (٥٦٤) - ولما استقر باشبيلية فى عام ستة وستين  
(٥٦٦) عقد جسرا على واديهما بالقنطرة العظيمة المؤسمة . . لعبور الناس . . . . .



ولاجازة المساكر للغزو ٠٠ جلب الماء في الساقية لمشرب اهلها ٠٠٠ وابتنى فيها الجامع الكبير ٠٠٠ وابتنى الصومعة الى نصفها وابتنى الزلاق لابواب اشبيلية ٠٠٠ احتياطا من السيل ، وابتنى قصبتها البرانية والداخلية ٠٠٠ وابتنى جميع اسوارها ٠٠٠ وفدى من الاسر من وجد عند الروم من اهلها ٠ وصحبت هذه النهضة العمرانية حركة تجارية مزدهرة وحركة ثقافية نشطة ٠ والواقع ان معظم ما اشرنا اليه من مظاهر الثقافة كان ينطلق من اشبيلية ايمتجه اليها ٠ وقد واصل خلفاء يوسف العناية باشبيلية : فأكمل ابنه المنصور صومعة مسجد ها الجامع بيننا بج " الجيرالدا " والجدير بالذكر ان هذا الجامع الاعظم بنى على يد جد ابن سعيد محمد بن عبد الملك والى اشبيلية من قبل الموحيدين ٠ كما قام المأمونون بيننا بج الذهب ٠ واذا كانت اشبيلية قد فقدت عظمتها السياسية تدريجا ابتداء بوفاة المنصور ومرورا بهزيمة العقاب وانتهاء برحيل المأمون عنها ووقوعها فريسة بين تنازع ابن هود والباجسى وابن الاحمر ، فانها لم تفقد مكانتها الحضارية عامة والثقافية خاصة بمثل هذه السوءة شأنها فى ذلك شأن سائر المدن العظيمة التى مرت بظروف مشابهة ٠ وهكذا ظلت متألفة شطرا كبيرا من هذه الحقبة الاخيرة حتى السنوات الاخيرة التى سبقت سقوطها عام ٦٤٦ هـ ٠

واشبيلية فى هذه الحقبة صورة ناطقة لطابع عصرها المتغير ، المتقلب ، المشحون بالحياة ، والناظر لاشبيلية من زاوية معينة يخرج بانطباع مغاير لانطباع الناظر اليها من زاوية اخرى ٠ فقد كانت هذه المدينة مجموعة من " الاجوا " التى تبدو متنافرة متباعدة من الخارج ولكن من يحاول ان ينظر اليها عن كثب يمكنه ان يكتشف وحد تلك الاجوا المتباينة ، التى يكون تمازجها العجيب : " اشبيلية " ٠

---

(١) — البيان المغرب ١٣٨/٣ — ١٣٩

(٢) — المغرب ١٦٢/٢

فقد كانت اشبيلية قاعدة السلطة السياسية وكانت قاعدة انطلاق جيوش  
الموحدين للغزو وكانت مركز الثقافة الاول في الاندلس والمغرب . . . .  
وكانت مركزا تجاريا عظيما . . . وكانت — اخيرا لا آخر — مدينة الطرب واللهو  
والفرجة . . . ومايجاز كانت كعبة للثقافة كافة الميول والاهواء ، فقد جمع فيها  
الغرب الاسلامي كافة مخزونه الحضارية في آخر فترة وازهى فترة من فترات  
تألقه الحضارى . وربما — نظرا لذلك — يمكننا قبول المبالغة المشهورة التى  
رواها لنا الشقندى عن عوام اشبيلية : " لو طلب لبن الطير في اشبيلية . . وجد " (١)

### ٣ - اشبيلية وحياة اللهو والطرب :

فى هذا الجو الطبيعى الجميل التفت عناصر عديدة من السكان . من  
بقايا الرومان والقوط ، الى الاسبان الاصليين ، الى العرب ، الى البربر  
الى الجالية اليهودية ، الى عناصر مجلوبة اخرى كالصقالبة ، لتكون شعب  
اشبيلية الناطق بالعربية ، الخاضع للموحدية ، المعتز بالاندلسية . ومن الطبيعى  
الا يرى هذا الشعب المزيج في التزمت والجد والصرامة والوقار قيما يجب التمسك  
بها حرفيا . لذلك ليس من المستغرب ان نجد " اهل اشبيلية اكثر العالم طنزا  
وتهكما " اذ انهم " قد طبعوا على ذلك " حتى طارت لهم شهرة طبقت الافاق  
فعرفوا بانهم " اخف الناس ارواحا ، واطبعهم نوادر ، واحملهم لمزاح باقبح ما يكون  
من السب ، قد مزنوا على ذلك . فصار لهم ديزنا حتى صار عندهم من لا يتنذل فيه  
ولا يتألفن مقونا ثقيلًا . . . وطبيعى ان يقدر هذا الجو الضاحك المرح مظاهر  
اللهو على اختلاف انواعه خاصة في هذا العصر الذى تشجع ظروفه الاجتماعية  
والنفسية على ذلك . وهكذا اصبحت اشبيلية " باهلها يضرب المثل في الخلاعة ،  
وانتهاز فرصة الزمان المبلعة بعد الساعة " . . . وقد سعد هذا الوادى ( وادى اشبيلية )

(١) - المغرب ٢٨٦/١

(٢) - نفح الطيب ١٩٩/٤

(٣) - المصدر السابق ١٥١/١

(٤) - المصدر السابق ١٩٩/٤

بكونه لا يخلو من مسرة ، وان جميع ادوات الطرب وشرب الخمر فيه غير منكـر  
لانه عن ذلك ولا منتقد ، مالم يؤد السكر الى شر وعريضة ٥٥ " واذا عرفنا ان هذا  
الكلام اوردته اديب اندلس كبير هو الشقندي في مجال الفخر باشبيلية عاصمة  
الاندلس امام امير موحدى وفي مناظرة ضد مغرس متطرف - دون ان يخشى لومة  
لائم ، ادر كما ان الرأى العام عندئذ كان يقدر هذه الجوانب من الحياة ولا يستحى  
او ينفر منها . بل ان الشقندي يشير صراحة الى ان مقاومة الدولة لذلك باسم  
الدين لاتجدى ، فيقول : " ٥٥ " وقد رام من وليها من الولاة المظهرين المدين  
قطع ذلك ، فلم يستطيعوا ازالته (١) فاذا كان هذا القول ينطبق على عصر الموحدين  
الملتزمين بعقيدة محددة ، فما بالك بعهود الامراء الضعاف الذين توالوا على حكم  
اشبيلية من بعدهم ؟

وقد ادى جوالمح واللهو الى تشجيع الطرب والغناء حتى غدت اشبيلية  
المركز الموسيقى الاول فى الاندلس وارتبط ذكرها بذكر الموسيقى حتى ان ابن  
رشد عندما اراد الفخر بمدينة قرطبة فى مناظرة بينه وبين ابن بكر بن زهر قال له :  
« ما ادرى ما تقول غير انه اذا مات عالم باشبيلية فاريد بيع كتبه حملت الى قرطبة  
حتى تباع فيها ، وان مات مطرب بقرطبة فاريد بيع الاته حملت الى اشبيلية (٢) » وقد  
مدح ابن رشد اشبيلية من حيث مكانتها الموسيقية - حيث اراد ذمها - ويحدثنا  
الشقندي عن تنوع الالات الموسيقية فى اشبيلية فيقول : " وقد سمعت ما فى هذا  
البلد من اصناف ادوات الطرب كالخيال والكريج والعود والروطة والرياب والقانون  
والمونس والفنار والزلامى والشقرة والنورة وهما مزماران الواحد غليظ الصوت والاخر  
رقيقه ، والبوق ، وان كان جميع هذا موجودا فى غيرها من بلاد الاندلس فانه فيها  
اكثر واوجد (٣) .

(١) - نفح الطيب ١٩٩/٤

(٢) - المصدر السابق ١٤٧/١

(٣) - المصدر السابق ٢٠٠/٤

وسنرى كيف ان هذا الجو الضاحك ، المرح ، الخليع ، الطروب قد عكس نفسه  
في مصنفات ابن سعيد وفي جوانب من حياته الخاصة حتى غدا عنصرا اساسيا من عناصر  
شخصيته .

#### ٤ — جو الجد والعلم والتدين في اشبيلية :

من مظاهر عظمة اشبيلية ان جو اللهو والطرب لم يتمكن ان يسيطر عليها ليجعلها  
مدينة منازة وحانات فحسب . فقد سابت شهرة اشبيلية في العلم شهرتها  
في اللهو واذا كانت هذه الشهرة الاخيرة عمت آفاق الاندلس فان الشهرة الاولى  
وصلت الى المشرق : شامه وعراقه ، ولا تكاد مصادر هذه الفكرة كالقدح والتكلمة  
وهوان الدراية تمر بشخصية علمية دون ان تذكر علاقتها باشبيلية سواء اكانت  
هذه العلاقة اقامة او دراسة وتديسا او امامة او توطنا او زيارة .  
ومنتديات العلم في اشبيلية عديدة في مقدمتها بلاط الموحدين الذي اصطبغ  
بصبغة علمية رفيعة ايام يوسف عبد المؤمن وابنه المنصور بماض من اكابر رجال الفكر  
والادب والنقح — وقد اشرنا الى اشهرهم — كما ان المأمون — آخر خليفة موحدى في  
الاندلس — عرف بتشجيعه الشديد للعلم وشغفه الشخص بالعلوم حتى  
عد عالما<sup>(١)</sup> ، بالاضافة الى ذلك كانت دور الامراء والاعيان تستضيف اهل العلم وتعتنى  
بالخزائن العلمية . ولقد كانت يعطو داربنى يوسف — وهم ولاية المدينة من قبل  
الموحدين — في مقدمة الدور المهمة بعلم التاريخ والجغرافيا والادب ، خاصة  
وان هذه الاسرة قد الزمت نفسها مسؤولية هامة الا وهى وضع موسوعة ادبية — تاريخية —  
جغرافية عن الاندلس خاصة والمغرب عامة ، هى كتاب " المغرب " الكبير ، وكان  
الاثرياء الذين يقيمون لانفسهم القصور النخمة يحرصون على اتمام مظاهر ابهتهم  
باضافة المكتبات اليها ، فهذا ابن حسان الاشبيلي يبنى قصرا يشبه " منزل السلطان "  
ويلحق به مكتبة كبيرة يستقبل فيها زواره من محبى العلم ، يحدثنا ابن سعيد عنه :

" دخلت اليه مع والدى وهو بهذا القصر فسيهوقد ملأه من الكتاب . فسافرت ابصارنا في قملك الساحة العريضة الطويلة . . .

وكانت مجالس العلماء والمساجد اهم مراكز التدريس العامة التى لا تقتصر على طبقة دون طبقة بل هى مفتوحة للجميع اغنيا وفقرا ، بلديين وغرباء ، من ذلك مجلس الشلمونى امام النحو فى عصره واستاذ ابن سعيد وابن سهل وابن بكر الصابون . يحدثنا ابن سعيد ان مجلسه " باشبيلية كان غاصا بالبلديين والغرباء من الافاق . . ثم رحلت فوجدت ذكره قد ملأ مسامع الشام والعراق ، ومن مراكز العلم المشهورة فى اشبيلية جامع العبدى حيث كان ابو الحسن الدباج الذى كان من الادب بمنزلة عالية (٣) والذى كان " امتن الناس دينا واخلصهم لله يقينا " يتولى الامامة واقراء الادب

والى جانب ما شهدناه من نماذج الخلاصة والانحلال الخلقى نلتقى فى هذه المدينة الجامعة بنماذج رائعة للورع والتقوى فهذا الشيخ ابوبكر بن قصورة بن زهر الايادى الاعظم يتصف بـ " حال جليل من الصيانة ، والخير والامانة ، حتى قدمه اهل بلده اماما بجامعهم الاعظم وكان رحمه الله — حقيقا بان يؤتم به ويقدم . . . (٤) وهذا الفقيه ابو عمران موسى المارتلى يشتهر بالزهد والانقطاع حتى كان فى ذلك واحد وقته " يزوره الملوك ويتركون به ويستوهبون دعاءه . . وكان لا يقبل من احد شيئا وانما كان له ما يقوم به من ملك ورثة من جهة طيبة . وكان مع ذلك يعمل الخوص بيده فى خلوته ويبيعه ويتصدق منه لانه كان يرى كراهية البطالة عن شغل لمثله (٥) وكانت دور العلم هى الجامع الذى يلتقى فيه اهل اللهو والطرب من شعرا وزجالين وشاحين ومتغنين كابن سهل وابن عتبة وابن جحور والصابونى باهل الجد من

(١) — القدح ١٥٢

(٢) — المصدر السابق ١٥٥

(٣) — المصدر السابق ١٥٠

(٤) — الغصون الياصرة ١٣٥ — ١٣٧

(٥) — انظر الفصل الخاص بخصيته من هذا البحث

فقهاً ونحويين ومقرئين كالدباج والاعلم البطليوسى والشلوبينى وابن عصفور ، فتمت  
فى رحاب المعرفة وحدة شخصية المدينة الضاحكة الجادة ، اللاهية المتدينية  
الناضة بتدفق الحياة اولا واخيرا .

ومن الطريف ان نشير فى الختام ان ملاح شخصية اشبيلية - على ما هو عليه من  
تنوع وخصب - سنراها تنطبق الى حد كبير على شخصية ابن سعيد الاديب الجغرافى  
النام الطريف ، بل ربما جاز لنا القول ان ابن سعيد اصدق معاصريه تعبيرا عن روح  
اشبيلية .

#### (٤) - اسرة بنى سعيد

من حق بنى سعيد علينا فى هذا البحث ان نخصص بشئ من الالتفات لاسباب  
عدة ، اولها ان هذه الاسرة لعبت دورا مرموقا فى تاريخ الاندلس الثقافى والسياسى  
وخاصة فى عصر الموحدين ، وثانيها ان بعض افرادها البارزين ساهموا فى الاعداد  
لكتاب المغرب قبل ان يقوم آخرهم صاحبنا على بن سعيد باظهاره فى ثوبه  
النهائى . فهو لا اذن مشاركون رئيسيون فى الكتاب الذى تحاول هذه الدراسة  
ابرازه بشكل خاص باعتباره مصدرا اوليا فى الابحاث الاندلسية . اما ثالث هذه  
الاسباب فهو ان تعرفنا الى اسرة بنى سعيد شخصا وثقافيا سيمكننا من فهم  
" البيئة العائلية " التى نشأ فيها ابن سعيد نفسه والتى تأثر بها خلقيا وعلميا  
الى حد بعيد كما سنرى عند دراستنا لشخصيته .

واسرة بنى سعيد اسرة عربية معروفة ارتبط ذكرها بتاريخ الكفاح الاسلامى المبكر  
ضد مشركى قريش عندما اشتد ضغطهم على النبى واصحابه قبل الهجرة . فهذه الاسرة  
تفتى الى عمار بن ياسر العنسى الذى احتل هو ووالداه حر الهجر فى مكة تحت  
سياط القرشيين حتى استحقوا قول الرسول : " صبرا آل ياسر فان موعدكم الجنة " .

وتشاء الظروف ان يكون لعمار دور آخر مشهود فى معركة الجمل ، ودور اكثر اهمية فى معركة صفين اذ انه قتل مخلفا وراءه جدلا عنيفا بين انصار علي — واتباع معاوية حول تفسير العبارة المنسوبة للنبي والموجهة له : " تقتلك الفئة الباغية " .

ويدور ان بعض احفاد عمار قدم الى الاندلس فى عهد الفتح او بعده بقليل ، اذ نجد احد احفاده وهو عبدالله بن سعد بن عمار يحل بالقلعة التى ستعرف بقلعة بنى سعيد ( وهى عبارة عن اقلعية كبيرة فى ريف غرناطة تتكون من القلعة السعيدية — اكبر حصن بها — ومن حصني القُبْذاق والمُعْبين ) وتعرف ايضا بقلعة يحصب او ( *Alcala' la Real* )<sup>(٢)</sup> ويصبح اميرا على اليمانية من جند دمشق وهو الـ يوسف الفهرى والى العباسيين فى الاندلس ، ويقف تبعا لذلك فى وجه ~~بنى عمار~~ الامويين قاطبي جده<sup>(٣)</sup> .

وبعد قتل عبدالله المذكور على يد الداخل ، يختفى ظهور هذه الاسرة عن مسرح الاحداث المشهورة حتى يثور احد افرادها ، وهو خلف بن سعيد ، زمن ملوك الطوائف ويستقل بالقلعة وتوابعها .  
عبد الملك بن سعيد ( ٤٩٦ — ٥٦٢ )<sup>(٥)</sup>

ويظل بنو سعيد فى قلعتهم حتى يظهروا من بينهم عبد الملك بن سعيد الذى ساهم فى مقاومة المرابطين اثناء ثورة الاندلس عليهم ، ثم ايد الموحدين واستمر فى اماره منطقته باسم عبد المؤمن اول خلفائهم . ويدور ان عبد المؤمن شك فى

(١) — المغرب ٢ / ١٦٠ ، ١٨٢ ، ١٨٥٤

(٢) — آنخل بالنشيا ، تاريخ الفكر الاندلسى ص ٢٤٤

(٣) — المغرب ٢ / ١٦١

(٤) — المصدر السابق ٢ / ١٦١

(٥) — انظر المصدر السابق ٢ / ١٦١ ، وكذلك النخج ٣ / ١٠١

ولائه له فاستقدمه الى مراكش وسجنه ، الا انه عاد فعفا عنه واعلى قدره . وكانت وفاته بحضرة مراكش . وقد عرف عبد الملك بتشجيعه للعلم ومساهمته فيه ، ففـي (١) اواخر حكم المرابطين قدم عليه ابو محمد عبد الله الحجارى ( ٤٩٩ - ٥٤٩ ) ومدحه وصنف له بناءً على طلبه كتاب " المسهب فى غرائب المغرب " الذى اصبح فيما بعد نواة لكتاب " المغرب " ويروى ان عبد الملك نفسه هذب " المسهب " وزاد عليه ثم عهد به الى ابنائه من بعده <sup>فيهم</sup> الحجارى وبنى سعيد - اذن - رابطة من العلم ورابطة من الولاء والخدمة . فهو كما ذكر واضع نواة المغرب بمهسبه الذى الفه سنة ٥٣٠ من ستة اجزاء وضمنه فضائل اهل الاندلس والمغرب على اساس ذكر المشاهير منذ زمن الفتح حتى عصره مع رواية شئ من اشعارهم واخبارهم التاريخية ممزوجة بشئ من المعلومات الجغرافية . وللحجارى اتصال بالامير احمد بن عماد الدولة بن هود امير " روطه " فى عهد الطوائف ، وقد اسر فى اثنا مرافقته لهذا الامير فى احدى غزواته ولم ينقذه من الاسر الا عبد الملك بن سعيد السابق ذكره . وصفه على بن سعيد بانه " جاحظ المغرب " وروى ان والده <sup>(٢)</sup> موسى بن سعيد اطنب فى الثناء عليه من طريق البلاغة نظما ونثرا ومعرفة بالتصنيف <sup>(٣)</sup> محمد بن عبد الملك بن سعيد ( ٥١٤ - ٥٨٩ )

كان ولى عهد والده ، عبد الملك وقائد جنده . اتصل بالمرابطين اول الامر حيث صار مقدما عند يحيى بن غانیه واليهىم على غرناطة ، ثم ولاء الموحدون اعمال اشبيلية وغرناطة واعمال سلا بالمغرب الاقصى وعلى يديه بُنى الجامع الاعظم باشبيلية ، وقد اشتهر محمد بالقدرة والكفاءة فى الحكم كما كان واسع الثراء يميل الى الابهة فى منزله وملبسه ومواكبه حتى ان الخليفة الموحدى المنصور عوله وصادر املكه فترة من الزمن ، الا انه عاد وعفا عنه وعوضه لما عرف عنه من الاهتمام بامور الرعية .

(١) - المغرب ٣٥/٢ تاريخ الفكر الاندلسى ٢٢٢

(٢) - المغرب ٣٥/٢

(٣) - المصدر السابق ٦٢/٢ النج ١٠٠/٣



وسار محمد على سنة والده في تشجيع العلم فواصل الاهتمام بتوسيع كتاب  
"المغرب" كما شجع رجال العلم والشعر حتى قصده الرصاصى البلى (٥٧٢)  
شاعر العصر الكبير "الذى كان يمدح الخلفاء"، والى في مدحه وتعظيمه.

الشاعر ابو جعفر احمد بن عبد الملك (٥٥٩ - ١)

هو شقيق محمد السابق ذكره ، يعتبر اشهر اسرة بنى سعيد ، واحد الشعراء  
البارزين في عصر الموحدين . وفي حياته عدة ظواهر تستلفت النظر . فلقد كان  
مخلصا مع ذاته منسجما مع مزاجه الشعرى لا يخضعه لمتطلبات وزارة او كتابة  
حاول والده عبد الملك ان يكل اليه وظائف في الدولة فانسل منها ، كما ولاه ابو  
سعيد عثمان بن عبد المؤمن والى غرناطة وظيفه الكتابة وارغمه على ذلك  
فهجاه وساءت علاقته معه وادى ذلك الى قتله . ولابى جعفر شبه بابن زيدون .  
فلقد احب شاعرة تدعى حفصة الركونية ، واخذ يرسلها بالاشعار وتلاقى معها  
ونافس في حبها مولاها ابا سعيد بن عبد المؤمن مما ادى الى مزيد من التدهور في علاقته  
به وانتهى الامر بقتله . ولابى جعفر يد طولى في اضافة مواد جديدة الى "المغرب"  
فقد كان شاعرا يميل الى فنون الادب بطبعه ما افصح له مجال الاهتمام بهـــــ  
الرسالة الموسوعة المتنامية .

(٢)

والدا بن سعيد ، موسى بن محمد بن عبد الملك (٥٧٣ - ٦٤٠)

هو ابرز ابنا الوالى محمد ، يتوازي في حياته خطان : العمل للدولة  
في الامارة والولاية ، والجهد الشخصى في حقل التقييد والتصنيف ، الا انه  
على العموم اقل احتفالا بالناحية الاولى واكثر ميلا الى الثانية وربما كانت حياته  
مرحلة وسطى في تاريخ الاسرة من اهتمامها بالعمل السياسى اساسا الى تحولها  
شيئا فشيئا نحو العمل العلمى .

(١) - المغرب ١٦٤/٢ : الرايات ٦٤٠ ، ابن الخطيب : الاحسة ٩٤/١ ، نفق ٢١١/٥ ؛  
العمري ، المسالك ١١/ ورقة ٢٧٩ (مخطوط طبقوسراي)

(٢) - المغرب ١٧٠/٢ : النفج ٣ / ٩٩ ١١٤٤ - ١٢٨ .

فالملاحظ ان اسرة بنى سعيد منذ ايام خلف بن سعيد حتى ايام محمد بن عبد الملك والد موسى كان يغلب عليها الطابع السياسى مع اهتمامها بالناحية العلمية ، الا انه مع ظهور الشاعر ابن جعفر وموسى بدأ الاتجاه ~~يحتج~~ نحو العلم يتغلب على الاتجاه السياسى ، وسرى ان هذا التطور سيتوجج بظهور صاحبنا على بن سعيد الذى سيتترك المهام السياسية والرسمية - اللهم الا تولى الكتابة لبعض الامراء وقت الحاجة ، وهى وظيفة ذات طابع ادبى - ويتجه بصورة رئيسية نحو حقل التصنيف . ولعل سر هذا التحول راجع الى تدهور الاوضاع السياسية فى الاندلس وارتباط العمل السياسى بالاطار والنكبات ، مما حدا بالاسرة الى الاتجاه نحو اهتمامها الاخر الذى ازداد نموه مع تصاعد النشاط العلمى فى العهد الموحدى ، والذى كان الملجأ الامين الوحيد فى مثل تلك الظروف .

هذا وقد استمر موسى فى خدمة الموحدين ، وكان ضمن حاشية المنصور التى صحبته فى وقعة الارك المشهورة سنة ٥٩٢ هـ ، ثم كتب للخليفة عبد الواحد ( المخلوع ) واتصل بالعدل وصحبه فى رحلته الى مراكش سنة ٦٢٤ ( ٢ ) وبعد مقتله عاد الى <sup>الاندلس</sup> حيث كتب لمنافسه ابن العلاء المأمون وهو آخر خليفة موحدى يحكم الاندلس . وفى ظل حكم ابن هود تولى امرة الجزيرة الخضراء بين سنتى ٦٣٠-٦٣٢ ( ٣ ) الا انه اخبر عن الولاية بسبب الوشايات ومنذ ذلك الحين لم يتول موسى عملا رسميا فى الاندلس ، خاصة عندما بدأ الصراع على الحكم فى اشبيلية ذاتها بين ابن هود والباجى وابن <sup>صهر</sup> الاخير مما اتاح له فرصة التنقل ومقابلة العلماء والاخذ منهم . ويظن المؤرخون فى ذكر كلف موسى بالرحلات العلمية واللقاءات الشعرية والادبية ، فلقد زار معظم المدن الاندلسية قبيل مغادرته النهائية للاندلس سنة ٦٣٦ ومند ر ان يكون

( ١ ) - المغرب ١ / ٢٢٩

( ٢ ) - القدر ٢١١

( ٣ ) - المصدر السابق ١٤٢

قد فوت الالتقاء بعلم من اعلام العلم والادب في عصره ، ومعظم رجال الثقافة الذين رأهم ابن سعيد هم اصدقاؤه (١) شخصيون لوالده . ومن ضمن العلماء الذين تتلمذ عليهم او استفاد منهم ابن رشد والحافظ وابوبكر الجدي وابوبكر بن زهر ، وابو وليد الشقندي (٣) .

ويحدثنا ابن سعيد ان والده موسى له " الحظ الاوفر " في كتاب المغرب كما انه اوحى له بفكرة كتاب المشرق " بؤكان " اشغفهم ( بنى سعيد ) بالتاريخ واعلمهم به . . وقد عاش سبعة وستين سنة ولم اره يوما يخلو مطالعة كتاب ، او كتب ما يحلـه حتى ايام الاعياد . (٤)

ولموسى نظم يعيل الى الطريقة الوهظية وتمتاز كتابته النثرية بتغلب عنصر الفكرة عليها مع عناية بالشكل لا توغل كثيرا في التكلف . ويبدو في الوصية المطولة التي كتبها لابنه علي ، واخر حياته ، حكيماً مطلقاً له نظرات في الاخلاق وآراء فلسفية العلاقات الشخصية والاجتماعية وفي مواجهة الحياة عامة . ويمكن اعتبار الوصية هذه نموذجاً طيباً لنظرة رجل حكيم مجرب الى الناس والزمان والاشياء في ذلك العصر فهي تتجاوز اطار النصائح العرفية الشائعة لتقدم مواقف شخصية لها طابعها الخاص . وهي اجمالاً يغلب عليها طابع التفاؤل وتتسم بالحث على مقارعة صروف الدهر وعدم الاستسلام لها . ومنرى ان ابن سعيد سيتأثر بهذه الوصية ويستفيد منها في حياته الحافلة . وقد وصل موسى مع ابنه ايما المتونس حيث اقام هناك بين سنتي ٦٣٦ - ٦٣٩ يشتغل بالكتابة لولى العهد الحفصي ابي يحيى ، وان شابت علاقته بهذا الامير السعيات والوشايات كذلك . ثم رحل - مع ابنه ايضا - الى مصر حيث توفي في الاسكندرية سنة ٦٤٠ هـ .

#### شخصيات اخرى من بنى سعيد

ترجمنا فيما سبق لاهم رجالات بنى سعيد في حقل السياسة والادب وللمساهمين منهم في " المغرب " بالذات وقد اتفق ان كان هؤلاء اجداد علي بن سعيد او اعمامه الاقربين . واكالا للاستقصاء نشير هنا بايجاز الى شخصيات اخرى من الاسرة السعيدية لها صلة بابن سعيد بـ قريب او بعيد .

(١) المغرب ١ / ٢٢١

(٢) النفخ ٣ / ١٢٨

(٣) المغرب ١ / ٢١٤

(٤) المصدر السابق ٢ / ١٢٠

١ - أبو بكر محمد بن سعيد<sup>(١)</sup> : تولى أعمال غرناطة أيام المرابطين . وله اهتمام بالأدب والشعر .

٢ - حاتم بن سعيد<sup>(٢)</sup> : كان من أصحاب ابن مردنيش الناصر بيلنسيه والشـرق

الاندلس في بداية عهد الموحدين ، وكان يقرض الشعر ، توفي سنة ٥٩٢ هـ .

٣ - مالك بن محمد بن عبد الملك : هو عم علي بن سعيد . قام برحلات في الاندلس والمغرب واستقر كاتباً عند يحيى بن غانية الميورقي الذي احتل تونس وحارب

الموحدين أيام محمد الناصر . وكان يتعاطى نظم الشعر أيضاً .

٤ - عبد الرحمن بن محمد بن عبد الملك : هو عم آخر لعلي بن سعيد كان معروفاً بالحدة وسعة الغضب فترك الأهل وغادر الاندلس إلى المغرب ومن هناك قام برحلة طويلة مربها الغرب الأوسط ( الجزائر ) فتونس ، فالاسكندرية فالقاهرة . فالحجاز للحج ، فدمشق ، فحلب ، فالموصل ، فبغداد ، ففارس ، حتى وصل إلى بخارى وعكف هناك على الدرس . وقد بعث إلى أهله بالاندلس رسالة يصف فيها أحداث رحلته بإيجاز ويذكر انطباعه عن كل بلد زاره ، وقد حفظ لنا ابن سعيد هذه الرسالة ، ويبدو أنه اطلع عليها ضمن سجلات الاسرة وانها اثارت في نفسه الشوق إلى الترحال . ولعبد الرحمن شعر جميل في التشكى من الغربة . وقد قتله التتار عند اكتساحهم لبخارى حوالي سنة ٦١٥ هـ .

(٥)

٥ - أبو عبد الله محمد بن الحسين بن سعيد : من بني سعيد الذين برزوا في تونس

في ظل الامارة الحفصية ، وكان من قادة الجيوش ، عمل للامير أبي زكريا ( ٦٤٧ - ) وابنه المستنصر ( ٦٧٥ - ) وقد ساعد ابن سعيد ووالده على

التقدم عند الامير أبي زكريا أثناء نزولهما في تونس ، إلا أنه سرعان ما انقلب عليهما وسعى في طيورها . ولابن سعيد قصائد طويلة في مدحه ومعانيته واستعطافه .

(١) - المغرب ١٦٣/٢ - المصدر السابق ١٦٨/٢ ، الاضافة ٣١٠/١

(٢) - المغرب ١٧١/٢

(٣) - المصدر السابق ١٧٢/٢ ، النسخ ١٣٢/٣

(٤) - المصدر السابق ١٦٨/٢ ، النسخ ٣ ، ٤٤ ، ٨٥

وكان هذا القائد كسائر افراد الاسرة السعيدية ، يتعاطى فنون الادب نثرا وشعرا .

\*

xx

من هذا العرض السريع لتاريخ الاسرة السعيدية نجمل خصائصها الهامة المتركة فى علو النسب ووضوحه ، وارتفاع المكانة عـبـر العصور ، والمركز القيادى والمسحة الارستقراطية ، والاسهام الغنى فى الحركة الثقافية شعرا وادبا وتصنيفا ، وروح الاقدام والمغامرة...

وهى خصائص سيكون لها فى نفسية ابن سعيد وحياته ومكانته نصيب واضح .

## الفصل الاول

تاريخ حياة ابن سعيد

( ٦١٠ - ٦٨٥ هـ / ١٢١٣ - ١٢٨٥ م )

==\_==\_==\_==\_==\_==\_

### ١ - حياته في الاندلس :

- مولده في غرناطة
- نشأته ودراسته في اشبيلية
- تنقله مع والده في أرجاء الاندلس

### ٢ - حياته في الغربية :

- اقامته في تونس
- رحلته الاولى الى المشرق
- عودته الى تونس
- رحلته الثانية الى المشرق
- عودته الاخيرة الى تونس ووفاته بها

## تاريخ حياة ابن سعيد

فى حياة ابن سعيد دوران متميزان بارزان : دور اقامته فى بلده ، ودور رحلاته وتغريه . ورغم ان الدور الثانى يغطى الدور الاول من حيث الامتداد الزمانى والاتساع المكانى والنشاط العلمى فانه لا يفوقه من حيث التأثير العميق فى تكوين ابن سعيد النفسى والعلمى . ولولا هذا الدور الاول وما امتاز به من اعداد وتجارب لما تمكن ابن سعيد من مواجهة الدور الثانى وتحدياته ومصاعبه بقدر كبير من الاستعداد والقدرة .

وينقسم الدور الاول فى حياة ابن سعيد فى ثلاث فترات : فترة مولده وطفولته فى غرناطة . وفترة صباه وشبابه ودراسته فى اشبيلية ، ثم فترة تجواله فى ارجاء الاندلس مع والده لجمع المادة العلمية لمؤلفاتها وخاصة كتاب " المغرب " . وملاحظ انه ليس شمة فاصل تام الوضع بين الفترة الثانية والثالثة فقد كان ابن سعيد يصحب والده فى جولات قصيرة فى المدن القريبة من اشبيلية اثناء فترة دراسته بها ، كما انه كان فى الفترة الثالثة - فترة التجوال فى الاندلس - يمر باشبيلية ويقيم بها عاما او بضعة شهور دارسا او مستعيدا ذكريات لهوه . غير ان التمييز يزداد وضوحا عندما يقرر الوالد والابن حوالى سنة ٦٣٢ هـ مغادرة الاندلس ، عندئذ يترك ابن اشبيلية نهائيا ويتجهان صوب جنوب شرقى الاندلس حيث يمضيان ما يقارب الاربع سنوات ( ٦٣٢-٦٣٦ ) فى زيارات لمدن تلك المنطقة كمرسية ومالقة .

اما الدور الثانى ، وهو دور المرحلة والاغتراب ، فينقسم فى خمس فترات :  
 فترة اقامته مع والده فى تونس ، وفترة رحلته المشرقية الاولى التى  
 زار خلالها مصر وبلاد الشام والعراق وبعض مدن فارس والديار الحجازية  
 للحج ، ثم فترة عودته الى تونس ، ثم فترة رحلته المشرقية الثانية التى يبدو انها  
 امتدت حتى اقاصى خراسان متجاوزة حدود الرحلة الاولى ، واخيرا فترة  
 رجوعه الاخير الى تونس ووفاته بها .

اسمه ونسبه وكنيته ولقبه :

(١)

هو على بن موسى بن محمد بن عبد الملك بن سعيد بن خلف بن سعيد بن محمد  
 بن عبد الله بن سعيد بن الحسين بن عثمان بن محمد بن عبد الله بن سعد بن عمار  
 بن يسار العنسى . يكنى بأبى الحسن وهي — كما هو معروف — كنية تطلق على  
 كل من يتسمى عليا فى المشرق وهو من ضمن الالقاب التى كان يتيمن المشارقة  
 باطلاقها مقرونة بلفظة " الدين " كشمس الدين وضايا الدين . ويظهر ان من يتسمى  
 عليا ينال لقب " نور الدين " اذ لكل اسم لقب خاص من هذا النوع .

١ — حياته فى الاندلس

= / = / = / = / = / = / =

مولده بغرناطة :

عند الحديث عن اسرة بنى سعيد تبين ان قلعته كانت اقطاعية تابعة لمدينة  
 غرناطة . فمدينة غرناطة — اذن — هى اقرب المدن الاندلسية اليهم ، وعندما اصبح  
 محمد بن عبد الملك بن سعيد ، جد على ، واليا للموحدين تولى ولاية غرناطة قبل  
 ان يرتقى فى سلم الولاية ويتولى اعمال العاصمة اشبيلية .

(١) — المغرب ١٧٢/٢

(٢) — المصدر السابق ١٦١/٢ ، يلاحظ ان بين على والجد الاكبر ياسر ستة عشر جدا خلال ستة

قرون وهو على ما يظهر تناسب محتمل بين العدد والزمن .

(٣) — نبهنى الى ذلك استاذى الدكتور جبرائيل جبور



ويبدو ان رجالات بنى سعيد كانوا يتركون عائلاتهم واطفالهم فى مدينتهم الاولى عند ما يتولون اعمالا خارجها . وهذا ما قد يصدق على موسى ، والد ابن سعيد ، الذى نراه فى رفقة خلفاء الموحدين وامرائهم منذ سنة ٥٩٦ حيث رافق الخليفة المنصور فى موقعة الارك . وايا كان الامر فان المصادر لا تسعفنا بذكر مكان موسى سنة ٦١٠ وهى السنة التى ولد فيها ابن سعيد ، وان كان من غير المستبعد ان يكون مقيما فى غرناطة نفسها ، مسقط رأس ابنه ، فى تلك السنة . فمن استقرا تاريخ الاسرة يتبين ان محمد بن عبد الملك بن سعيد ، والد موسى ، كان متوليا لعمال غرناطة قبل حوالى عشرين سنة من مولد على<sup>(٢)</sup> ، وان اخاه ابا جعفر احمد بن عبد الملك خلفه فى منصبه حيث استوزره عثمان بن عبد المؤمن صاحب غرناطة ، وان ابنه موسى بقى مع عمه احمد قائما له ببعض اعمال الكتابة . فقد كان موسى متعلقا بعمه الشاعر ابي جعفر معجبا بموهبته الشعرية " مقدا له على سائر اقاربه " . ومن المرجح ان موسى بقى فى خدمة الموحدين بغرناطة بعد مقتل عمه على يد عثمان المذكور حتى مولد ابنه فى تلك السنة بها .

ولا يمكن الجزم الى متى ظل ابن سعيد فى غرناطة : هل قضى عددا كبيرا من سنوات طفولته بها ام ان والده اخذه معه الى اشبيلية وهو فى سنى صقلته الباكورة . واغلب الظن انه بدأ يحتك ببيئة اشبيلية ويعيش فيها وهو فى حوالى العاشرة من عمره . وفى سنة ٦٢١ نجده مع والده فى اشبيلية ، وكان والده عندئذ على اتصال بالخليفة الجديد عبد الواحد الذى بويغ بالخلافة لتوه . ويلاحظ ان ابن سعيد لا يتحدث عن اية ذكريات باكرة له فى غرناطة بينما يورد كثيرا من ذكريات صباه فى اشبيلية مما يوحي انه ترك غرناطة قبل ان يعى الاشياء والحوادث وعيا كاملا . اما بعض اشعاره التى يتشوق فيها الى جلسات لهوه فى غرناطة فسنرى انها تعود الى مرحلة شبابه عندما كان ينتقل بين المدن الاندلسية .

(١) — المغرب : ١٧٤/٢ ، النفع : ٤١/٢

(٢) — المغرب : ١٦٢/٢

(٣) — المصدر السابق : ١٦٤/٢

(٤) — النفع : ١٢٤/٣

نشأته ودراسته فى اشبيلية :

كان لابد لكل من اراد نيل قسط من الثقافة فى تلك الفترة من تاريخ الاندلس من ان يقصد اشبيلية مركز الثقافة الاعظم فى تلك الفترة من الوقت • وكان طبيعيا ان يشجع موسى بن سعيد ولده عليا على الدراسة لماعرف عن اسرة بنى سعيد من ميل الى العلم والتأليف • ثم ان موسى اتجه الى الاقامة فى اشبيلية عندما كان ابنه بين العاشرة والرابعة عشرة • لاشتغاله فى خدمة الخليفيتين ابى محمد عبد الواحد والعاقل<sup>(١)</sup> ، وهكذا شجعت الظروف العلمية والعملية انتقال ابن سعيد الى العاصمة وهو فى حوالى العاشرة •

وفى اشبيلية قضى ابن سعيد عهد صباه ، وفيها تلقى علومه على يد عدد من علماء الادب والنحو من امثال ابى على الشلمونى النحوى ، والاعلم البطليوس مقرئ من اشياخ الازهر<sup>(٢)</sup> ، وابى يحيى بن هشام الكاتب ، وابى الحسن الدباج مقرئ الادب وامام جامع العباس ، كما التقى فيها بكثيرين غيرهم من شعراء وعلما ورجال دولة مكونا مع الجميع صداقات وطيدة وثمررة على الصعيد العلمى والشخصى • ولعل ابعد هذه الصداقات اثرا فى ميله الشعرى وتكوينه النفسى صداقته مع الشاعر الاشبيللى ابن سهل الاسرائيلى التى ذكرها فى عدة مواضع من كتابه " القدح المعلى " بقوله : " قرأت معه على الاستاذ ابى الحسن الدباج زمانا ، وبادرنا لانواع اللذات ميدانا فميدانا ، وكان مهوى هوانا ، ومجمع لذاتنا ومنانا ، بمج الغضة والعروس ، والسلطانية وشتنبوس لانكاد نخلو من التفج فى تلك الادواح والقصور ••• دعوته يوما الى ••• الفضة ••• وخرجت مرة معه الى السلطانية ••• وتنزهنا مدة بالعروس ••• ثم ركبنا نهر اشبيلية ••• ثم صعدنا الى قم الخليج ••• وحضرت معه يوما مجلس الاستاذ ابى على الشلمونى<sup>(٣)</sup>

(١) — التفج ١٢٦/٣

(٢) — انظر الحديث عن اساتذته بالفصل الخاص بمؤلفاته وعلومه •

(٣) — القدح : ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ •

وكما تعود ابن سعيد منذ صغره مخالطة رجال العلم والادب في ظل والده تعود معه ايضا منذ تلك السن المبكرة الرحلات بحيث لو وصفت حياته بانها رحلة متواصلة لما كان ذلك تجاوزا للحقيقة . فقد سنحت له الفرصة وهو ما زال في السنة الرابعة عشرة من عمره للقيام برحلة الى مراكش ضمن حاشية الخليفة الموحدي العادل الذي كان والده منتظما في سلك خدمته . ففي سنة ٦٢٤ اضطر العادل للذهاب الى مراكش بسبب امتناع كثير من امراء المدن الاندلسية عن مبايعته من ناحية وسبب اضطراب الحالة في مراكش نفسها من ناحية اخرى تاركا الامر في الاندلس لاختيه ابى العلاء المأمون . وفي هذا الجواز الى بر العدو ( المغرب الاقصى ) صحبه رهن من علماء الاندلس وشعرائها المقربين اليه من ضمنهم موسى والد ابن سعيد والثرى المتأدب ابن حسان الاشبيلي من اعيان اشبيلية ، وابوعمر بن حكم القبطلي (٥) احد وجوه جزيرة قبطل من اشبيلية وابو المعالي احمد القيحاظي من رجالات جيان وقد اصطحب موسى ولده عليا في هذه الرحلة الملكية التي اتاحت له الاجتماع بعدد كبير من الشخصيات الاندلسية والمغربية ، ومشاهدة حاضرة الدولة الموحدية ، والتعرف الى بيئة المغرب التي تختلف من عدة اوجه عن بيئة الاندلس . ولكن يبدو ان ظروف تلك الرحلة لم تكن مساعفة ، فقد قتل العادل في تلك السنة ولا نعلم كيف كان موقف والد ابن سعيد من تلك الحادثة ، الا انه على اى حال كتب رسالة تهنئة وهو بمراكش الى ابى العلاء اديس المأمون الذي اخذ البيعة لنفسه في اشبيلية . وكان المأمون هذا من خلفاء الموحدين المشهورين بتشجيع العلم وكان لبنى سعيد اتصال به قبل توليه الخلافة .

(١) — روض القرطاس ١٦٣ ، كتاب العبر ٢٥١/٦

(٢) — القدح ٢١١

(٣) — المصدر السابق ١٤٩

(٤) — المصدر السابق ٢٠٠

(٥) — المصدر السابق ٢١١

(٦) — روض القرطاس ١٦٣ ، كتاب العبر ٢٥١/٦

(٧) — النفع ١٢٢/٣

وبدوان موسى وابنه بقيا في المغرب مدة من الزمن تقارب السنتين وذلك لجمع المادة التاريخية والشعرية الخاصة بمراكش لكتاب "المغرب" ففي سنة ٦٢٧ نجدهما مارين بسبتة ، المواجهة لبر الاندلس من الطرف المغربي ، بعد ان التقيا بكتبهما ابي القاسم عبد الرحمن العثماني <sup>(١)</sup> والارجح انهما كانا قادمين من مراكش في تلك السنة . وفي هذا الوقت تقلص نفوذ الموحدين في الاندلس واخذ نجم ابن هود الناصر عليهم ، يعلو بعض الوقت ، ويظهر ان والد ابن سعيد رأى من حسن السياسة الاتصال بهذا الحاكم الاندلسي الجديد للاستفادة منه . ففي سنة ٦٢٩ نرى موسى مع ابنه علي في غرناطة يحاول الالتقاء بابي عبد الله محمد بن عمار البرجي كاتب عسكر الناصر ابن هود <sup>(٢)</sup> . وفي السنة التالية ، سنة ٦٣٠ ، يعود ابن سعيد ووالده معه — ادرجه الى ملاعب صباء في اشبيلية ، ~~ويشتغل بالعلوم~~ وقد بلغ سن العشرين حيث يعاود <sup>(٣)</sup> الاتصال بابن سهل ، ويلتقى بالشاعر الاديب ابي الوليد بن طيفور المراكشي المارتلي ، والافلح اللخمي ، وزير ابن هود ، الذي كان عهد به مع والده " فسي اتصال مزاورة ، واطراد مجالسة ومحاضرة " واقتباس من ادبه واستفادة . وقد زين له ابن سهل الاسرائيلي يوما ان يشاركه في هجاء هذا الوزير الذي بدأت تظهر عليه بعض امارات الخطرسة ، غير انه عاد الى مدحه واسترضائه بتأنيب شديد من والده موسى <sup>(٤)</sup> .

وهنا نجحت جهود والد ابن سعيد في محاولته الاتصال بابن هود . فقد ولاء امرة الجزيرة الخضراء — من اعمال ملكة اشبيلية — بحسن وساطة الوزير الافلح اللخمي . فكانت تلك مناسبة طيبة لابن سعيد يعود فيها الى درسه ولهوه معا . وما يدل على نضجه وحسن تحمله للمسؤولية في تلك السن المبكرة ، وهي سن الحادية والعشرين ( ٦٣١ هـ ) انه ناب عن ابيه في امرة الجزيرة الخضراء فترة من الوقت .

(١) — القدر ١٩٦

(٢) — المصدر السابق ٢١٨

(٣) — المصدر السابق ١٨٣

(٤) — المصدر السابق ١٤٠ — ١٤٢

(٥) — المصدر السابق ١٤٠ — ١٤٢

ولكن ذلك لم يمنع من اخذ حظه من اللهو في مراحب الجزيرة الخضراء متعاطيا الشعر مصاحبا للعلماء . الا ان هذا العيش الهنيء لم يطل بسبب الوشايات التي اغرت صدر الوزير الافلح فسعى في تأخير والد ابن سعيد عن الامارة سنة ٦٣٢

وفي هذه الفترة كانت اشبيلية هدفا لتنافس ثلاثة ثوار : الباجي وابن هود وابن الاحمر . ويبدو ان ابن سعيد بقي مع والده هذه الفترة في منطقة اشبيلية واتصل باميرها الباجي ومدحه بقصيدة هناؤها فيها يانهزام ابن هود ، الا ان الباجي لم تطل مدة حكمه فما لبث ابن الاحمر ان فرض سيطرته على اشبيلية " وقتل ملكها المعتضد الباجي ، وكنت حينئذ هنالك وانشدته قصيدة اولها :

لمثلك تنقاد الجيوش الجافل وتذخر ابنا القنا والقنايل (٤)

ولانعلم مدى علاقته بابن الاحمر ، الا انه علاقته به لم تطل . ونصل هنا الى الفترة الخطيرة الحرجة من حياة الاندلس ، فقد اخذت قواعد هـ الكبرى تسقط تباعا في يد الاسبان وعلى رأسها مدينة قرطبة سنة ٦٣٣ هـ . ويبدو ان موسى وولده ادركا في هذه الاثناء ان الاندلس لم تعد بالمكان الصالح للقامة . ولم يعد في الامكان التنبؤ بثبات اية منطقة في وجه الزحف الاسباني الآتي من الشمال والشرق والغرب . واعتقد انهما قبل ان يغادرا الاندلس نهائيا قررا المرور بالمدن الاندلسية الواقعة في الطريق بين اشبيلية والساحل الجنوبي الشرقي من الاندلس ، لمواجهة لتونس ، لجمع بعض المادة العلمية عنها .

وقبل انهاء الحديث عن هذه الفترة الاشبيلية من حياة ابن سعيد ، اذكر عددا من الشخصيات العلمية التي قابلها ابن سعيد في اشبيلية ، وان لم يكن بالامكان تحديد موعد تلك اللقاءات على وجه الدقة — مع ان الراجح ان اكثرها تم بين سنتي ٦٣٠-٦٣٢ :

(١) — القذح ٢ — ٣

(٢) — المصدر السابق ١٤٢

(٣) — النفح ٣/٣٦

(٤) — المغرب ١٠٩/٢

- ١- ابو محمد عبد الحق الزهرى القرطبي . . من حفاظ ~~الاندلس~~ <sup>(١)</sup> وادبائها ومؤرخيها  
جالسته كثيرا في اشبيلية . . وكان والدى يكرمه لحفظه
  - ٢- الاديب الهيثم ابو غالب الهيثم : " حافظ اشبيلية لم الق بها احفظ منه " (٢)
  - ٣- الطيب الوشاح ابو الحجاج يوسف بن عتبة : " اجتمعت به في اشبيلية " (٣)
  - ٤- ابو الحسن على بن جردر : " كان زجالا مطبوعا ، صاحب والدى مدة ، ولقيته انا  
باشبيلية " (٤)
  - ٥- ابو بكر الصابوني : " اجتمعت به في اشبيلية والناس يجعلونه شاعرها المشار اليه . . " (٥)
  - ٦- ابو بكر محمد الاندى : " قرأ معى على الشلمونى امام نحاة المغرب . . تركته وقد رجع  
من اشبيلية الى بلده " (٦)
  - ٧- ابو العباس احمد بن بلال : " لقيته بالجزيرة - من توابع اشبيلية - فلقيت خيرا من يلقى  
مع تصرف في الادب ومعرفة بالشعر وقول له ، وتركته هناك . . " (٧)
- هذا بالاضافة الى ابن سهل ومن ذكرت من اساتذته ومن ~~مؤرخي~~ كره اثناء الحديث من

قيل .

ابن سعيد في جولاته الاخيرة بالاندلس :

اشرت الى ان ابن سعيد ووالده قررا مغادرة الاندلس بعد تدهور الحالة حوالى سنة  
٦٣٣ . وبدا وانهما غادرا اشبيلية نهائياً في اوائل تلك السنة متجهين نحو الجنوب الشرقي  
في المنطقة الواقعة بين مرسية ومالقة ، لجمع ما فاتهما من مادة الكتاب " المغرب " والظاهر  
ان النية كانت متجهة للمصرو وبطنس ثم الرحيل الى المشرق واداء فريضة الحج . وقد حاولا  
الاستفادة من مرورهما بكل مدينة واقعة في طريقهما :

- (١) - المغرب : ١٢٠/١ وانظر ترجمته ايضا في القديح ١٣٥ ، وفي ابن الزبير حلة الصلة ص ١٠
- (٢) - المغرب ٢٥٨/١ = = = = ١٥٨ وفي الرايات ١٨
- (٣) - المغرب ٢٥٨/٠ = = = = ١٦١ وفي الرايات ٢١
- (٤) - المغرب ٢٦٢/١ = = = = ١٧٢
- (٥) - المغرب ٢٦٣ = = = = ٦٩ وفي الرايات ٢١ وفي ابن البار التحفة  
رقم ١٠٠ وكذلك ابن شاکر ، فوات الوفيات ١٦٨/٢
- (٦) - المغرب ٣٣٨/١ ، وانظر ترجمته في القديح ايضا ١٦٨
- (٧) - المغرب ٣٢٦/١ ، = = = = ٨٦

ففى قرمونة التقى ابن سعيد بشاعرها ابن البلاج القرمونى (١) وفى مالقة اقام مدة (٢) حيث التقى ابن سعيد بقاضيه ابن عبد الله ابن عسكر الذى كان " متبحرا فى العلوم " (٣) وشاعرها ابن النعيم رضوان بن خالد الذى كان " من شعراء العصر المشهورين " (٤) ومزجالها ابن على الحسن الدباغ " وهو امام فى الهجو على طريقة الزجل " (٥) ووصف ابن سعيد فترة وجوده فى مدينة مالقة بانها الوقت الذى كانت فيه " نية الرحلة المشرقية والزورة النبوية قد ثارت حينئذ فى خاطرى وملك باطنى وظاهرى " وقد اودعه القاضى ابن عسكر السابق الذكر ابياتا لانشادها فى الروضة النبوية (٦) مما يدل على ان ابن سعيد كان على اهبة الرحيل بالفعل . وآخر ما تصادف ابن سعيد فى الاندلس عام ٦٣٦ عندما كان مارا بمرسية مع ابيه حيث اجتمعا بواليتها العلامة عزيز بن خطاب والوزير الاندلسى الغرناطى المتغرب سهل بن مالك . وارجح ان يكون مرورهما بالمدينة فى شهر محرم وهو الوقت الذى يجمع فيه الامير ابن خطاب ، وقبل شهر رمضان من ذلك العام وصل ابن سعيد برفقة ابيه الى تونس (٧) .

## ٢ - حياته فى الغرب

### اقامته فى تونس:

كان من الطبيعى ان يختار ابن سعيد ووالده تونس ملجأ اول لهما بعد مغادرتهما الاندلس . فقد كانت تونس عندئذ فى ظل الامارة الحفصية التى استطاعت ان تظهر نفسها بمظهر الامارة القوية المستقرة ، المشجعة للعلم وقد وردت الاشارة الى ان اغلب رجال العلم الاندلسيين اتجهوا نحو تونس بعد النكبة . فكان اجتماع ذلك العدد الضخم من رجال العلم بها سببا هاما لجذب ابن سعيد ووالده نحوها . اضاف الى ذلك ان احد بنى سعيد وهو ابو عبد الله بن الحسين ، كان قائدا بارزا فى الدولة الناشئة .

- |     |                       |
|-----|-----------------------|
| (١) | - المغرب ٣٠٠/١        |
| (٢) | - المصدر السابق ٤٢٣/١ |
| (٣) | - المصدر السابق ٤٣١/١ |
| (٤) | - المصدر السابق ٤٣٧/١ |
| (٥) | - المصدر السابق ٤٣٨/١ |
| (٦) | - القدح ١٣٠           |
| (٧) | - المصدر السابق ١٤٦   |

وتدل فترة اقامتهما في تونس على انها اجلا حجهما ورحلتها المشرقية . فقد بقيا فيها حوالى عشرين ودخلا في خدمة اميرها الحفصى ابن زكريا ( ٦٤٧ - ) ( ١ ) وهو اول امير حفصى يستقل بتونس عن الدولة الموحدية ويكون فيها دولة مستقلة ولا يمكن تحديد سبب بقاءهما في تونس على وجه الدقة طوال هذه المدة : اهو من اجل الكسب والاعداد المالى للرحلة ؟ ام هو من اجل جمع مواد المغرب ؟ ام للثنيين معا ؟ والذي يزيد الامر غموضا انها غادرا تونس مضطرين بعد ان ادت الوشايات الى تأخيرهما عن اعمالهما وبعد ان خشيا ان تؤدى تلك الوشايات الى ما هو ادهش من التأخير ( ٢ ) .

وفى خلال هذه الفترة تولى ابن سعيد قراءة المظالم لابن زكريا الحفصى بفضل وساطة ابن عمه ابن عبد الله بن الحسين بن سعيد ، قائد الامير . ولكن ابن عمه هذا ما لبث ان انقلب عليه ، واخذ يسعى ضده حتى نجح في تأخيره عن قراءة المظالم . وقد نظم ابن سعيد فيه كثيرا من القصائد يمدحه ويمعته ويمتعطفه ( ٣ ) رجاء ان يعيل اليه ويعود اليه مساعدته ، الا انه - على ما يظهر - لم ينجح في اعادته الى سابق سيرته .

ويبدو ان السبب في انقلاب ابن عبد الله بن الحسين ضد ابن عمه ، ابن سعيد ، هو تقرب الاخير من اخذ منافسيه - وهو الوزير ابن جامع - الذى اخذ يتوسط لابن سعيد عند الامير ابن زكريا ويرفع له امداحه . ورغم ان ابن سعيد يقول ان الصحبة كانت وثيقة بين ابن عمه والوزير ابن جامع ، فان النص التالى يوحى وكأن السبب فى انقلاب ابن عمه ضده راجع الى تقربه من الوزير ابن جامع : " وكان سبب التغير بينى وبين ابن عمى الرئيس المذكور ان ملك افريقية استوزر ابا العلاء ادريس بن على بن جامع ، فاشتغل على ، واولانى من البر ما قيدنى وامال قلبى اليه ، مع تأكيـد

( ١ ) - النفع ٤٤/٣ - ٤٥

( ٢ ) - المصدر السابق ٤٤/٣

( ٣ ) - المصدر السابق ٤١/٣ - ٤٤



ما بينه وبين ابن عمي من الصحة ، فلم يزل ينهض بي ، ويرفع امداحي للملك ، ويوصل اليه رسائل منبها على ذلك ، ومرشحا ، الى ان قبض الملك على كاتب عسكره ، وكان يقرأ بين يديه المظالم ، <sup>فأصبح</sup> فلحقني الى من يخلفه في ذلك لهبه الوزير علي - مع اني كنت من كتاب الملك - فقلدني قراءة المظالم المذكورة ، وسفر لي الوزير عنده <sup>ففي</sup> دار الكاتب المؤخر ، فأنعم بها ، فوجد الوشاة مكانا متسعا للقول ، فقالوا وزوروا من الاقاويل المختلفة مامل بها حيث مالوا ، وظهر منه مخايل التغيير ، فجعلت ادارته واستعطفه فلم ينفع فيه قليل ولا كثير ، الى ان سعى في تأخير والدي ، ثم سعى ففني تأخيري عن الكتابة وقراءة المظالم . . . " (١)

ومعذا هذا التأخير بقي ابن سعيد في ظل الوزير ابن جامع يكتب له ويتولّى جميع اموره ، واولاه الوزير من العناية ما عوض عليه جفا ابن عمه (٢) . غير ان سعي ابن عمه ضده لم يتوقف مما اثاره واجس ابن سعيد وخشى ان ينجح في مساعيه ولا يتمكن الوزير ابن جامع من حمايته . وهنا رأى انه من الافضل ترك تونس تجنبا لما قد يجبره عدا ابن عمه ضده من ويلات ، واخذ يلح على ابن جامع في ان يسمح له بذلك وان يرفع رغبته للملك في الرحيل الى المشرق برسم الحج . ولكن ابن جامع لاه على تخوفه وقلة ثقته به والح عليه بالبقاء ولم تؤد امداحه ومعاتباته واستعطفاته الى اقناع الوزير بتركه يرحل (٣) .

وظل ابن سعيد مع ابن جامع فترة قصيرة <sup>في</sup> ففني توجس وحذر . وما لبث ان توفي ابن جامع (٤) . فلم يبق لديه عندئذ نصير في تونس وكان طبيعيا ان يفكر هو والديه في الرحيل عنها .

وفي هذه الاقامة التونسية الاولى جمع ابن سعيد كثيرا من المواد العلمية التي استفاد منها في تصنيف كتابه الهام " القدح المعلق " وبلغ نشاطه العلمي ذروته خلال هذه الفترة باجتماعه الى ابن الابرار الذي يعتبر من كبار مصنفى القرن السابع الهجري في المغرب .

(١) - النسخ ٤٤/٣ - ٤٥

(٢) - المصدر السابق ٤٥

(٣) - المصدر السابق ٤٥/٣ - ٤٧

(٤) - المصدر السابق ٤٧/٣

(٥) - هو محمد بن عبد الله القاضي بن الابرار . انظر ترجمته في المغرب ٣٠٩/٢ ، والقدح ١٩١ ، عنوان الدراية ١٨٣ ، فوات الوفيات ٢٢٦/٢ ، النسخ ٢٨٢/٤ .

وتعود أهمية اجتماعه بابن الأبار في تونس إلى أنهما لم يلتقيا في الأندلس قط ، فقد كان ابن سعيد في الغرب بإشبيلية وكان ابن الأبار في الشرق ببلنسية ولا توجد إشارة إلى أن ابن سعيد وصل في جولاته الأندلسية الأخيرة إلى بلنسية فقد بدأ جولاته تلك بعد سنة ٦٣١ وكانت بلنسية عنده عند تعرض للغزو الأرجواني كما أن ابن سعيد نفسه يذكر بأنه لم يجتمع به " إلا في هذه الحضرة العلية " (١) ، ويقصد مدينة تونس .

ويتحدث ابن سعيد عن اجتماعاته بزميله ابن الأبار فيقول : " ولـى معه مجالسات آنق من خلق الشباب ، وأبهج من الـروض عند نزول السحاب " ، ويذكر أنه فارقته وقد " بقيت من فوائده في النفس بقية " (٢) ، ونرى أن ابن سعيد يعتمد على ابن الأبار في بعض الروايات الهامة في المغرب (٣) ، ويوردها باعتبارها روايات شفوية لأنقولا من كتب ما يدل على أنه استقاها منه مباشرة أثناء تلك الجلسات التي نرى أنها كانت تتحول أحيانا إلى مساجلات شعرية يتبارى فيها الاثنان في وصف منظر معين (٤) .

ومن أخبار ابن سعيد ذات الطابع العلمي في هذه الفترة ما أن الأمير أبا زكريا الحفصي شك في ديانة اثنين من علماء الأندلس المقيمين بتونس وهما ابن الصفار القرطبي وعبد الواحد الواعظ الأعشى الأشبيلي إذ شاع عنهما الخبر بفساد النيات " و " ذم المحسن والمسيء " من الأحياء والأموات " .

...../...

(١) - القدح ١٩١

(٢) - المصدر السابق ١٩١

(٣) - المغرب ٣١٦/٢ ٣٦٣

(٤) - النفع ٥٥/٣

و " الكفر والالحاد " ، وحدث ان قتل مجهول الواعظ الاعلى بسبب تلك الاشاعات فاوكلت الى ابن سعيد مهمة التحقيق فى " المسودات والبطائق " التى وجدت فى بيته . ويشير ابن سعيد انه تصفحها ونقل منها بعض الاشعار والمجاوبات - وان كانت - على حد تعبيره - ما يقضى بالبعد " من المخلوق ~~من~~ والخالق " ( ١ )

ومن الصداقات العلمية والشخصية الشجرة التى كونها ابن سعيد خلال هذه الفترة صداقته مع الكاتب الاديب ابى العباس احمد بن ابراهيم الغمانسى ( ٢ ) الذى كان يتولى الكتابة للامير ابى زكريا الحفصسى والذى وصفه ابن سعيد نفسه بانه " لسان الدولة العلية وكاتب سرها " ، والممول عليه فى نظمها ونشرها . . . . .

وقد كانت لهما جلسات شعرية عديدة فى تونس ( ٣ ) كما ان المراسلات بينهما ظلت مستمرة - شعرا ونثرا - اثنا غياب ابن سعيد فى المشرق ( ٤ ) ، وتدل تلك المراسلات على قوة العلاقة بين الاديبين .

\* \* \*

وخرج ابن سعيد ووالده من تونس سنة ٦٣٩ فى جو ترقب وحذر قاصدين مصر ، وذلك بعد وفاة الوزير ابن جامع ، كما تقدم .

---

( ١ ) - القدح ٢٠٣ - ٢٠٥ ٢١٠٤

( ٢ ) - انظر ترجمته فى القدح ١٢ - ١٩

( ٣ ) - المقتطف ، ورقة ٥٤ ، ٥٦ ، وكذلك النسخ ٥٧/٣ - ٥٨

( ٤ ) - القدح ٥ ١٩٤

رحلته الاولى :

وصل ابن سعيد ووالده الى الاسكندرية سنة ٦٣٩ (١) وكان سلطان مصر عندئذ الصالح الايوبي (٦٣٢ - ٦٤٢) . وفي الاسكندرية ترك ابن سعيد والده الذي كان على ما يبدو قد انهك من طول السفر ، ورحل الى القاهرة ، مركز الحركة الثقافية الناشطة عندئذ ودار السلطنة ، الا انه اضطر الى العودة الى الاسكندرية بسبب اشتداد المرض على ابيه فعرضه حتى توفي في شوال سنة ٦٤٠ (٢) . وادابن ادراجهم الى القاهرة حيث كان له مطارحات ولقاءات مع كثير من شعرائها البارزين عندئذ .

وفي القاهرة اجل ابن سعيد حجه مرة ثانية ، ومقي هناك حتى سنة ٦٤٣ حيث جاء ابن العديم الى مصر مندوها . عن ملك حلب الايوبي الناصر .

وكانت فترة السنوات الثلاث التي امضاها ابن سعيد في مصر فترة حاسمة في حياته فقد فقد والده ، موجهه وناصحه ، في ديار الغربة وهو مازال ابن تسع وعشرين سنة . ثم انه واجه ولاول مرة في حياته مجتمعا مشرقيا تختلف بعض تقاليدہ وبعض طبائشع اهله عن تقاليد المغاربة وطبائشعهم . وهي ناحية تنبه لها ابن سعيد وسجلها فيما بعد (٣) .

ويبدو انه استطاع ان يدخل مجتمع مصر الادبي وان يكون صداقات وثيقة مع شعرائها واعيانها وعلماؤها بالرغم من شعوره بالغربة الشديدة وخيبة امله التي انعكست في شعره عندئذ (٤) فقد التقى هناك بابي الحسين الجزار وابن ابي الاصبع وسيف الدين بن سابق وايدمر التركي والبها زهير وجمال الدين بن مطروح وابن يغمور وكانت لقائه معهم جلسات زالت عنها الكلفة كوساجلات في الغزل والوصف (٥) .

---

(١) - النفح ١٤/٣

(٢) - المغرب ١٧٢/٢

(٣) - النفح ١٠٦/٣

(٤) - المصدر السابق ٤٨/٣

(٥) - المصدر السابق ٣٨/٣ - ٣٩

وخلال هذه الإقامة القاهرية تمكن ابن سعيد من اعداد مادة الجزء الخاص بمصر من كتاب المغرب كما ان فترة اقامته هذه حفلت بشتى انواع الانفعالات مما اكسب شعره شيئا من حرارة الشعور الصادق : فهو يتذكر اشبيلية الجميلة التي لا تشبهها مدينة هنا ومتشوق ، وهو يتعجب من طباع الناس ، وهو يتألم من نذورات الناس منه ، وهو يأسى لقيام الحواجز بينه وبين اداء فريضة الحج (١) .

وهنا ما جاء ابن العديم الحلبي (٢) الى مصر ، استطاع ابن سعيد — كعادته — ان يكون معه صداقة ادبية قوية . وبما لاشك فيه ان ابن العديم ذكر له اخبار الملك الناصر ومدى حبه للعلم وتشجيعه للعلماء ورغبته في صحبتته الى حلب فوجد ابن سعيد في ذلك ما شجعه على القيام برحلته الجديدة هذه حيث حل ضيفا في بلاط الملك الناصر سلطان حلب (٦٣٤ — ٦٥٩) وببدو انه في طريقه من القاهرة الى حلب مر بمدينة بيت المقدس حيث التقى ببعض بلدييه من الاندلسيين الذين كانوا في رحلة حجهم (٣) كما مر بمدينة الخليل حيث اجتمع الى احد نقباء الطالبين (٤) .

وما لبث ابن سعيد ان تعرف الى الناصر واصبح من مجالسيه الذين يتحدث اليهم في خلواته العلمية والشعرية ومداعبهم ويتبادل معهم النواذر (٥) . بل ان الناصر اولى موضوع تصنيفه " للمغرب " و " المشرق " اهتماما خاصا و اشار عليه بالاضافة الى ذلك بعمل مؤلف موجز شامل هو " المقتطف من ازهار الطرف " وفتح امامه خزائنه العلمية الخاصة ووعده بمساعدته في الاطلاع على خزائن الموصل وبغداد (٦) و " تبعه من الدنانير والخلع والتواقيع بالارزاق ما لا يوصف " (٧) .

وقد ارتاح ابن سعيد الى سلطان حلب ومدحه <sup>بمصابر</sup> ~~بمصابر~~ كان يعتبرها من اجود شعره منها القصيدة التي يقول فيها :

ملك ترى في وجهه آية الرضا وتقرأ من امداحه سورة الحمد (٨)

(١) — النفع ٢٨/٣ — ٨١

(٢) — هو كمال الدين عمر بن ابي جراد المشهور بابن العديم اديب فقيه قاض محدث (٥٨٨ — ٦٦٠ هـ)

راجع ترجمته في معجم الادباء لياقوت ج ١٦ ص ٥٥ — ٥٧

(٣) — القدح ٢١٣؛ المغرب ١/١٠٩ (٤) — رحلة التجاني ٣٠٨ — ٣٠٩ (٥) — النفع ٣٩/٣ — ٤٠

(٦) — المصدر السابق ٣٩/٣ — ٤٠ (٧) — المصدر السابق ٤٠/٣ (٨) — المغرب ٢/١٧٤

والقصيدة التي مطلعها :

جدلى بما القى الخيال من الكرى لا بد <sup>للأصيف</sup> للصيف العلم من القرى

والتي يقول فيها :

من معشر خبروا الزمان رياسة وسياسة حلوا الذرى حمر الذرا

وفى حلب تفاعل ابن سعيد مع الجو الثقافي الذي كانت تحركه شخصيات علمية وشعرية كابن العديم والشهاب التلعفري وهون الدين العجمي والتاج بن شقير وابن نجيم الموصلي والشرف بن سليمان الاربلي وآخرين من بنى صاحب من ابنا كمال الدين بن العديم (١) .

ومن حلب <sup>انتقل</sup> الى دمشق ، وزيارة دمشق كانت حلما من احلامه منذ ان كان يلتقى بالرحالين الاندلسيين العائدين من المشرق فيصفون له جمال المدينة ورهتها (٢) . وهناك التقى بسلطانها توران شاه المعظم و " حضر مجلس خلوته " (٣) ، والتقى بمن فيها من اهل الادب والعلم ونظم فن منتزهاتها ولعبها قصائد جميلة . ويجب ان تكون زيارته لدمشق بين سنتي ٦٤٢ - ٦٤٨ لان توران شاه ، الذي رثاه ابن سعيد ، قتل في تلك السنة الاخيرة .

يظهر ان ابن سعيد انتهاز فرصة انتقاله من حلب الى دمشق فزار في طريقه كلا من حمص وحماة بحثا عن الخزائن العلمية ومن اجل خلق صداقات جديدة وروية اجواء جديدة فهو يذكر انه التقى بالملك الصالح نور الدين صاحب حمص الذي اقترح عليه ان يكتب له بعض الابيات على تفاحة عنبر اراد الصالح اهداها لابن عمه الملك الصالح نجم الدين ايوب ملك الديار المصرية (٤) . وهذا يؤكد ان رحلته الى دمشق بدأت في سنة ٦٤٢ اذ ان الصالح نجم الدين ايوب كان قد توفي في تلك السنة .

(١) - النفح ٤٠/٣

(٢) - القدح ١٨١

(٣) - النفح ٤٠/٣

(٤) - المصدر السابق ٥٥/٣

وفي حماه كانت له على العاصي جلسات سحرا وحت اليه بهذه الابيات اللطيفة :

حمى الله من شطى حماة مناظرا      وقفت عليها السمع والفكر والطرفا  
يلومون ان اعصى التصون والنهي      بها واطيع الكأس واللهو والوصفا  
اذا كان فيها النهر عاص فكيف لا      احاكيه عصيانا واشربها صرفا (١)

ومن دمشق اتجه ابن سعيد الى العراق • وكان ذلك " في عقب سنة ثمان واربعين وستمائة" (٢) •

ولاندري لماذا لم يطل المقام بابن سعيد <sup>في</sup> في المدينة التي احب • فهو لا يكاد ينهي فيها سنة واحدة • • • ربما كان ذلك بسبب شعوره بجو الفتنة القريب الذي اودى بحياة توران شاه في تلك السنة ذاتها •

ومن دمشق توجه الى الموصل مارا بتلعفر وسنجار من نواحي الجزيرة مسجلا لبعض الفوائد الاخبارية والادبية (٣) • وفي الموصل بقى مدة قصيرة والتقى بعدد من شخصياتها الادبية وسجل ما اراد من اشعار واخبار • وفي طريقه الى بغداد مر بالحلة (٤) حيث جمع مادة ترجمته لشاعرها <sup>صحيح</sup> الحلبي •

وفي ذلك الوقت كانت بغداد تشهد آخر خليفة عباسي هو الخليفة المستعصم بالله الذي سيقتله هولاكو سنة ٦٥٦ •

ويحدثنا ابن رافع <sup>في</sup> السلافي اخذ الذين اقاموا ببغداد وارخواهم ولعلمائها (٧٧٤) ان ابن سعيد " دخل بغداد هو والناصر داود الى الخليفة ابي احمد المستعصم (٥) وللناصر داود هو واحد سلاطين الايوبيين بالشام • ضاع ملكه من يده فالتجأ الى الناصر صاحب حلب سنة ٦٤٧ • ثم ارسل ثروته امانة لدى الخليفة المستعصم وحاول دخول بغداد عندما ضاقت به ارض الشام (٦) • وكان الناصر داود هذا ميالا الى الادب والشعر (٧) فلاغربة

(١) — النفع ١٢/٣

(٢) — المصدر السابق ٤٠/٣

(٣) — الفصون ٥٩

(٤) — المصدر السابق ٧

(٥) — ابن رافع كتاب تاريخ علماء بغداد، ص ١٤٥

(٦) — انظر مادة الناصر داود " في الموسوعة الاسلامية •

(٧) — النفع ١٦٤/٣

في ان يصاحب ابن سعيد صديق الايوبيين ومادحهم اثناء وجودهما في بغداد . غير انه من المستبعد ان يكون الناصر قد رافق ابن سعيد طوال رحلته من الشام الى بغداد عبر الموصل اذ لا يمكن ان يتفق رحالة متمهل يبحث عن الاخبار والمصادر مع لاجئ مطارده يجد في البحث عن مأوى .

ولانعلم الى اى مدى توطدت العلاقة بين ابن سعيد والمستعصم ، وايا كان الامر فان ظروف المستعصم السياسية لم تكن تسمح له عندئذ بالتفرغ لرحالة مغربي . الا ان ابن سعيد يخبرنا انه وطد علاقته بصاحب اعمال الخليفة المستعصم فخر الدين بن قاضي القضاة الدامغانى ( ١ ) . كما تعرف الى زعيم آخر من زعماء دولة بغداد يقال له <sup>صفي</sup> الدين فخرج معه الى النزهة وطارحه الشعر ( ٢ ) .

ومن رجال الشعر الذين اجتمع بهم في بغداد النجم بن شجير البغدادى الذى انشده من شعره كثيرا ودعاه الى زيارة قطرب <sup>على الشاطىء الغربى</sup> من دجلة حيث اقيمت جلسة خمرة ادبية سجل ابن سعيد بعض وقائعها ( ٣ ) .

ومن بغداد انحدر ابن سعيد مع فخر الدين الدامغانى " الى البصرة فى دجلة ، ورحلتى معه تحتل سفرا ، زيارتها فى هذا المكان انا لما وصلنا الى البصرة حللنا بين نهر الابلة ونهر معقل وضرب المصاحب ( الدامغانى ) هناك خيمة وفيها ماء يرتفع ويدور كالأهلة برسم الجلوس للناس . وجاءه الوافدون من المسلمين والنصارى والمجوس والصايبه فسبح لى القول <sup>فانشدته</sup> . . . " واورد بضعة ابيات ( ٤ ) .

ومن المدن الفارسية التي مر بها ابن سعيد فى رحلته الاولى هذه ( ٥ ) مدينة ارجان ( ٦ ) ، وبعد ذلك لالتقى بابن سعيد الا فى الديار الحجازية حاجا . وهكذا تمكن من الوصول الى مكة بعد حوالى خمسة عشر عاما من مغادرته الاندلس قضاها فى التعرف على ابرز رجالات المشرق فى دنيا العلم والادب والسياسة <sup>و</sup> زيارة اهم مراكزه الثقافية وفى الاطلاع على عدد كبير من المصادر والكتب المشرقية .

( ١ ) - المقتطف ورقة ٥٥

( ٢ ) - القدح ٩

( ٣ ) - المقتطف ٥٣ - ٥٤

( ٤ ) - المصدر السابق ٥٥

( ٥ ) - النسخ ٤٠ / ٣

( ٦ ) - ورد عنها <sup>في</sup> معجم البلدان " عامة المعجم يسمونها ارغان . مدينة كبيرة . . . بينها وبين البحر " مرحلة ، بينها وبين شيراز ستون فرسخا ، بينها وبين سوق لاهور <sup>فرسخا</sup> . . . اراجع معجم البلدان



ويظهر ان ابن سعيد ادى فريضة حجة سنة ٦٥١ • يستنتج ذلك من قوله : سألت اهل البحرين في سنة احدى وخمسين وستائة حين لقيتهم بالمدينة النبوية عن البحرين ٠٠٠ " (١) اذ يبدو انه ذهب لزيارة الحضرة النبوية في المدينة <sup>بصدد</sup> ~~بصدد~~ ان حج في مكة • وهذا النص يدل على ان ابن سعيد اغتنم فرصة حجه ايضا لتقيد الفوائد العلمية • وطبيعى ان يشاق ابن سعيد الى المغرب بعد هذه الغيبة الطويلة ، الشائقة ، الغنية • الا انه لابد ان يمر مودعا صاحب نعمته الملك الناصر صاحب حلب الذى كان له نعم النصير في تلك الغيبة • وعز على الناصر ان يفارقه ابن سعيد فيخمر بلاطه علما - جاء من بلاد الاندلس البعيدة • فلا " يفتح له في المغرب با • الى ان حضره <sup>عند</sup> ~~عند~~ وانشده ابياتا منها هذا البيت :

قضيت خير العمر <sup>فك</sup> ارضكم فتمتعوا اهلى بما قد بقى

فارتاح وظهر منه الحنان • وقال للوزير ابن يغمور : " صدق يسرح بما يكفيه من الاحسان فاخذ في السفر وجرى مع القدره (٢) الذى اُوصله الى ساحل مدينة اقلبيية بتونس في سنة ٦٥٢ (٣) •

عودته الى تونس :

وعندما وصل ابن سعيد الى تونس بعد طول غيبة كان الترحيب به من اصدقائه القدامى حارا وحائا على الافادة • فهذا ابو العباس اللباني يرحب به :

يا زائرا خير بيوت ديانة <sup>ورياضة</sup> ~~ورياضة~~

افض ازاهر علم تجلو علينا رياضه

قد تم حجك لكن بقى طواف الافاضة (٤)

وفي ذلك الوقت كانت الامارة الحفصية قد توطدت وازدهرت وتولى حكمها - بعد ابيه - ابو عبد الله المستنصر الذى ذاع صيته في حقل السياسة والعلم بالنظر لاتساع نفوذه وتشجيعه للعلم والعلماء •

(١) - القلقشندى قلائد الجمان ص ١٢٠

(٢) - القدر ٨

(٣) - النفع ٤٠/٣

(٤) - القدر ٩

واتصل ابن سعيد بالمستنصر ونال عنه درجة رفيعة (١) .  
ومما لاشك فيه ان سنوات اقامته بتونس كان بالنسبة له فترة استراحة ومراجعة للمادة  
المجمعة . . . وتهذيب لها <sup>وتبويب</sup> . . . ففي هذه الفترة صنف كتاب " الغصون " .  
وربما كتاب جامع طبقات الشعراء كله (٢) الذي ترجم فيه لكثير من شعراء المشرق  
المعاصرين الذين يود المغاربة الالمام باخبارهم واشعارهم .  
رحلته الثانية :

لا تسهب المصادر التي بين ايدينا في ذكر هذه الرحلة الثانية \* ولكن لدينا  
من الاشارات ما يكفي لتأكيد ها . فالمعروف ينقل عن كتاب ابن سعيد " عدة <sup>المستخرج</sup> المستخرج  
وقوله للمؤلف \* انه ارتحل من تونس الى المشرق هذه المرة سنة ٦٦٦ هـ <sup>ويروي</sup> انه  
عنه اخبارا مشرقية من حصيلة الرحلة الثانية (٣) . . . ودلالة اخرى على حصول هذه  
الرحلة تأتي من المصنفين المشاركة الذين توهموا انه توفي في اثنائها مما يدل على  
تأكدهم من وجوده في المشرق في تلك الفترة (٤) .

ولا تشير المصادر الى انه اوغل الى خراسان في رحلته الاولى . الا ان كتاب  
القدح وهو كتاب الف في فترة متأخرة ( فهو يذكر وفيات سنة ٦٨١ ) (٥) يذكر لنا هذه  
الحكاية : " وكان ~~بخراسان~~ مسائرا لبعض ملوكها ، فلقبهم ملوك وسيم  
من الاتراك (٦) . . . " ثم ذكر بيتين بعد اكمال الخبر وهذا يدل على ان هذه  
الزورة الخراسانية كانت جزءا من الرحلة الثانية بل كانت احد اسبابها الهامة . اذ يبدو  
ان ابن سعيد اراد ان يكمل برنامج مشاهداته لبلدان الشرق الاسلامي واطلاعه على  
المصادر العربية بفارس . . . على عادته <sup>ففي</sup> كل عمل يقوم به اذ انه لا يفتن الا بنتيجة  
واقعية متكاملة لكل ما يقوم به من اعمال .

- 
- (١) - النسخ ٤٠/٣
  - (٢) - انظر فصل " علمه ومصنفاته "
  - (٣) - النسخ ١٣٠/٣
  - (٤) - وفات الوفيات ٢١٢/٢
  - (٥) - القدح ١١٢
  - (٦) - المصدر السابق ٩

والظاهر ان ابن سعيد بعد اقامة في تونس استغرقت اربعة عشر عاما (٦٥٢-٦٦٦) قد شعر بنوع من <sup>الرتابة</sup> التوقية التي لم يعتد عليها وهو الذي قضى صباه سائحا بين الاندلس والمغرب وقضى شبابه وجزءا من كهولته <sup>محبوسا</sup> ~~حبيسا~~ في تونس ومصر والشام والعراق والحجاز. ولربما بقيت في نفسه امور منذ الرحلة الاولى لم يستطع اليها من سبيل في ذلك الوقت مك اطلاق على بعض المصادر ومشاهدة لبعض المدن والاقطار خاصة وان الفتن كانت مستعرة عندئذ بين الايوبيين في الشام ومقايا العباسيين وامرائهم في بغداد . . . . . بينمما كان الزحف المغولي يكتسح كل قوة في طريقه . . . وهو امر قد يكون من ضمن الاسباب الهامة التي عجلت برحيل ابن سعيد الى تونس سنة ٦٥٢ رغم الحاج اصدقائه المشاركة . وخلال هذه الفترة حدثت احداث خطيرة في المشرق . فقد اكتسح هولاكو بغداد سنة ٦٥٦ ووقعت معركة عين جالوت التي انهزم فيها المغول لأول مرة سنة ٦٥٨ . . . واختفت دولة الايوبيين خلال ذلك لتحل محلها دولة المماليك . ولقد خلف ابن سعيد وراءه في المشرق اصدقاء اعزاء لم يعد يسمع عنهم شيئا . . . . . يود لو عرف مصيرهم اولقيهم مرة اخرى . . . وهكذا وجد المصنف النشيط المحب للحركة والاستطلاع <sup>و</sup> نفعه مدفوعا للقيام برحلة مشرقية اخرى ترضى في نفسه كل هذه الدوافع . " ولما دخل الاسكندرية لم يكن عنده اكثر من السؤال عن الملك الناصر فاخبر بحاله وما جرى له مع التتر حتى قتلوه بعد الامان . . . . . وارتكب في حلب التتر والمرتدون ماتم عنه الاسماع ، وكان فيمن قتل بتلك الكائنة البهلر ابن <sup>المصرى</sup> المحم . . . . . ( ١ ) فلقد قتل كثيرون من الاصدقاء القدامى . . . ولكنها كانت شيمة العصر . . . وما كان لهذ الفاجعة ان تكون امرا مفاجئا غريبا بالنسبة لابي الحسن الذي تعودها منذ صباه في وطنه الاندلسي للفقيد . وكان لابد للرحلات ان تأخذ مداها ، ولا بد للمصنفات ان تكتمل . وهكذا واصل ابن سعيد سيره الى خراسان وربما جاز الى ما بعدها . والمصادر هنا لاتسعدنا بذكر مراحل هذه الرحلة . وهناك عبارة في ترجمته بالقدح تقول : " وسار ما بين عبادان وقزوين " ( ٢ )

( ١ ) — النفج ١٣٠ / ٣

( ٢ ) — القدح ٢

اي انه اخترق بلاد العجم من أقصى جنوبيه الغربى الى اقصى اطرافها الشماليه ،  
هذا اذا جاز استنتاج ذلك من تلك العبارة الغامضة . واذا صح ذلك فان هذه الجولة  
تمت فى رحلته الثانية اذ تشير المصادرا الى انه لم يتجاوز فى رحلته الاولى مدينة ارجان فى  
الجنوب الغربى من بلاد العجم كما تقدم .

ومن الامور الجديرة بالالتفات فى حياة ابن سعيد اشارة باحثين محدثين هما المستشرق  
هاملتون جب (١) والدكتور زكى محمد حسن (٢) الى ان ابن سعيد فى رحلته الثانية طلب  
الاجتماع بهولاكو التترى فاتح بغداد او انه اجتمع به فعلا وان هولاكو ~~استضافه~~ استضافه عنده .  
ومن سوء الحظ انهما يحتمان عن ذكر مصادره هذا الخبر وطريقة توصلهما الى التاكيد  
منه او ترجيحه . وانا لاملك الا ان اتحفظ ازا<sup>١</sup> خبر كهذا : فابن سعيد فى جميع كتب<sup>٢</sup>  
التى اطلعت عليها لا يشير الى هذا اللقاء او مجرد التفكير فيه من قريب او بعيد مع انا نراه  
يذكر اجتماعاته بكثير من الامراء والملوك فاذا كان لقاءه مع هولاكو قد تم فلماذا ياترى يغفل<sup>٣</sup>  
تماما رغم اهميته ؟ ثم ما بال المؤرخين المغاربة كابن الخطيب وابن فرحون والمقرئ لا يشيرون  
الى ذلك ايضا رغم اطلاعهم على اغلب كتب ابن سعيد التى لم تصل الينا ؟ .

وسايزيد الشك فى امكانية حدوث هذا اللقاء هو ان قائد حربيا كهولاكو ليس له من  
الميل الادبى ما يدفعه الى استقبال مصنف مغربى رحالة كابن سعيد . والملاحظ انه فى جميع  
ما وصلنا عن ابن سعيد ~~لا نجد غير اشارة واحدة عن هولاكو وردت~~ <sup>لا نجد غير اشارة واحدة عن هولاكو وردت</sup> ~~ما وجدنا على يد~~ فى كتاب "عدة المستنجد" وعقلية  
المستوفز<sup>٤</sup> وقد اوردها المقرئ فى النسخ على النحو التالى : "قال - اى ابن سعيد -  
انه سار - اى الناصر - نحو هولاكو . . . فانزله ، واقام يشرب معه الى ان وصل الخبر بوقعة  
عين جالوت على التتر . . . فقتلوه وخلصوا كتفه ، وجعلوه فى احد الاعلام على عاداتهم فى  
اكتاف الملوك" (٣) . ومن الواضح تماما ان هذا الخبر عن الناصر ، ولكن قراءة الخبر دون انتباه  
الى الضمائر المستترة خصوصا <sup>فى</sup> الفعل "سار الى هولاكو" ودون التفات الى بقيته قد توهم  
المرء بان الذى سار الى هولاكو هو ابن سعيد نفسه . وايا كان الامر فان التحفظ ازا<sup>٥</sup> الخبر  
واجب حتى يظهر مصدر موثوق يؤكد اوينفيه .

(١) هاملتون جب ، دراسات فى حضارة الاسلام ص ٢٧٧

(٢) - انظر مقدمة المغرب (قسم مصر) ص ١٢

(٣) النسخ ١٣١/٣ - ١٣٢

رجوعه الاخير الى تونس وفاته :

- ١ - نقل المقرئ عن ابن الخطيب - وثق من يمكن ان يؤرخ لابن سعيد بحكم القطر والمدين والزمين - انه <sup>توفي</sup> بتونس في حدود سنة خمس وثمانين وستة (١)
  - ٢ - وذكر ابن فرحون (٨٠٠-) ايضا - ويبدو انه ينقل عن ابن الخطيب - انه توفي بتونس في السنة المذكورة (٢) .
  - ٣ - وذكر المؤرخ المصرى جلال الدين السيوطى (٩١٢-) مارواه ابن فرحون وابن الخطيب (٣) .
  - ٤ - الا ان بعض المؤرخين المشاركة على رأسهم ابن شاکر الكتبى (٤) (٧٦٤-) وابن تغرى بردى (٥) ذهبوا الى ان ابن سعيد توفي سنة ٦٧٣ . وقد حدد ابن شاکر مكان الوفاة فقال انه دمشق وحدد ابن تغرى بردى تاريخها باليوم والشهر والسنة فذكر انه توفي يوم السبت حادى عشر شعبان ثلاث وسبعين <sup>سنة</sup> .
- ولكن هذه الرواية تبدو ضعيفة اذا ما قورنت بالرواية الاولى من حيث قوة المصادره . كما ان هناك اشارة من مصنفات ابن سعيد نفسه قد تساعد على ترجيح الرواية الاولى . فالى ملاحظ ان كتاب "القدح المعلى" لابن سعيد يصل فى ذكره لتاريخ الوفيات حتى سنة ٦٨١ وهو وان كان اهدى الى الامير ابى <sup>وكيل</sup> زكريا ابن المستنصر قبل توليه الحكم سنة ٦٧٥ فان ذلك لا يمنع المصنف من اضافة بعض المعلومات الجديدة اليه بعد ذلك (٦) . وناه على ما تقدم ، فان ما يمكن ترجيحه بقدر كبير من التاكيد هو ان ابن سعيد <sup>توفي</sup> بتونس سنة ٦٨٥ هـ (٧) .

- 
- (١) - النفح ٤١/٣
  - (٢) - الديباج المذهب ٢٠٨
  - (٣) - السيوطى ، حسن المحاضرة ٢٦٦/١
  - (٤) - فوات الوفيات ٢١٢/٢
  - (٥) - ابن تغرى بردى ، المنهل الصافى ، ورقة ٤٥٣ ( مخطوط دار الكتب )
  - (٦) - انظر مقدمة "القدح" التي كتبها الاستاذ ابراهيم الابيارى محقق الكتاب .
  - (٧) - توصل الى هذا الاستنتاج ذاته كل من الدكتور شوقى ضيف فى مقدمة المغرب ( قسم الاندلس ) ص ٨ ، والدكتور زكى محمد حسن فى مقدمة المغرب ( قسم مصر ) ص ١٧ و ابراهيم الابيارى محقق كتابى " الغصون اليا نعة " و " اختصار القدح المعلى " لابن سعيد .

## الفصل الثاني

### شخصيته وثقافته العامة

- ١ - شكله وهيئته
- ٢ - عوامل تكوين شخصيته
  - بيئته العائلية وشخصية والده
  - بيئة اشبيلية الاجتماعية والثقافية
  - ثقافته وهاقتها بشخصيته
  - حالة الاخلاق في المجتمع عامة
  - كثرة اتصالاته ورحلاته
- ٣ - مزاياه الشخصية وميوله
  - لباقة ومجاملته
  - تقديره لروح الدعابة
  - حسن ذوقه وتقديره للجمال
  - بين لهوه وتدينسه
  - جلده وصبره
  - نزعة الاندلسية المغربية
  - هل من نزعة مذهبية خاصة ؟

١ - شكله وهيئته

لانتعفنا المصادر بوصف هيئة ابي الحسن ومظهره الخارجى \* ولكننا نستطيع ان نتصور - باطمئنان - ان هذا الفتى الغرناطى المولد ، الاشبلى النشأة والتربية سليل الارستقراطية الاندلسية العريقة ، فنادم الامراء ومجالس الملوك ومصادق الشعراء والعلماء اينما ذهب وحيثما حل من اشبيلية الى مراكش الى تونس الى القاهرة الى حلب الى دمشق الى بغداد ، اقول اننا نستطيع ان نتصور - باطمئنان - انه كان بهى الطلعة مقبولا فى مظهره بل محببا الى النفس منذ اول لقاء .. والا لما كان بإمكانه ان يخلق هذا العدد الهائل من الصداقات وان يكون نجم جلسات شعراء القاهرة وان يجالس الناصر فى خلواته وان ينادم <sup>طويلا</sup> كوكبا شاه وان يخلق تلك العلاقات الوثيقة مع ابن سهل الاندلسى والتيفاشى التونسى وابن العديم الحلبى .

ومانحن بصدد الزعم هنا ان حسن المظهر وحده كفى بفعل كل ذلك ... ولكن الذى لا ريب فيه هو ان الذى لا يتمتع بمظهر مقبول محبب الى النفس لا يمكن ان ينفذ الى قلوب الناس بسهولة ...

ولانخال ان المجاملة وحدها هى <sup>التي</sup> ~~التي~~ دفعت ابا العباس التيفاشى لقول البيت التالى <sup>في</sup> ابن سعيد :

ومن محياء - والله الشهيد - اذا يبدو الى بصرى ابهى من <sup>المر</sup> ~~المر~~ (١)

وليس لنا ان نجارى ابا العباس <sup>في</sup> وصفه لصديقه بانه " ابهى من القمر " ..

حسبنا ان نخرج من ذلك انه كان بهى الطلعة ، حسن المنظر .

والإضافة الى ذلك يبدو ان ابن سعيد كان حسن الصوت مجيدا للالقاء ، وقد تنبه الى هذه الميزة الملك الناصر الايوبي سلطان لا حلب في اول لقاء شخصي له معه ، ان قال له مداعبا بعد ان القى ابن سعيد قصيدة مدح فيه وحدثه عن جهوده في تأليف " المغرب " و " المشرق " : " اخترت لك لقبا يليق بحسن <sup>صوتك</sup> ~~صوتك~~ وإيرادك للشعر فان كنت ترضى به ، والا لم يعلم به احد غيرنا — وهو البلبل... (١) "

## ٢ — عوامل تكوين شخصية

يلعب العامل الجسماني دورا له اثره في تكوين الشخصية\* ويبدو ان ابن سعيد لم يجد فيما يختص بهذا العامل عائقا يمنعه من الاندماج بالناس والظهور في المجتمعات ، بل ان الدلائل تشير الى انه ساعده على التفاعل مع بيئته الاجتماعية المختلفة الى مدى بعيد . ان لا توجد اية اشارة الى ان الرجل كان يشكو من نقص يتعلق بجسمه <sup>أو هيئته</sup> . ولنا ان نتصور ان تمكنه من القيام بتلك الرحلات الطويلة المتعددة في ظروف المواصلات التقليدية الشائعة عندئذ — وقد قام برحلته الثانية الى المشرق وقد قارب الستين — وتأليفه لذلك العدد الكبير من المصنفات ، ومدامته على حضور مجالس اللهو والنزهات حيثما حل ، اقول لنا ان نتصور ان تمكنه من كل ذلك يشير الى انه كان يتمتع <sup>بصحة</sup> ~~بصحة~~ جسمية قوية وصحة جيدة على وجه العموم .

واذا كان للعامل الجسماني اثره الذي لا ينكر ، فان العوامل النفسية والمنزلية والثقافية والاجتماعية لها الاثر الاعمق في صهر الشخصية واعطائها خصائصها وميزاتها الهامة . وجعلها ما <sup>هو</sup> ~~هو~~ عليه . وهذه في نظري اهم العوامل التي اثرت في شخصية ابن سعيد :



١ — بيئته العائلية وشخصية والده :

انحدر ابن سعيد كما اشرت من اسرة اندلسية عريقة ذات اصل عربي معروف وذات تاريخ بارز في الحياة الاسلامية . وكان اجداده الاقربون شخصيات مرموقة في عهدي المرابطين <sup>والموحدين</sup> فمنهم الوزير ومنهم القائد ومنهم الشاعر المبرز ومنهم البحاثة <sup>المصنف</sup> (١) وما لاشك فيه ان خصائص تلك البذور الوراثية دخلت في تركيب شخصية صاحبنا — ابي الحسن .

وفتح ابو الحسن عينيه . . . وقرأ تاريخ اسرته السياسي والعلمي — وكله مسجل — فاذا به سجل يدعو للفخر ويدفع لمواصلة العمل . . ونظر ابو الحسن الى اقرب افراد اسرته اليه . . الى <sup>ابيه</sup> موسى . . فاذا به رجل بارز من رجالات دولة الموحدين . واذا به كاتب محتاجة له مكانته وشأنه بين علماء الاندلس .

والواقع اننا مهما اسهبنا في شرح تأثير الاب على شخصية الابن لانكون مبالغين (٢) فقد ظل يوجهه في كل الظروف توجيهها (قيفا رزينا حقق اغراضه دون ان يؤثر على شخصية الابن تأثيرا سلبيا . . . ان طول مرافقته لوالده ومصاحبته له في الحل والترحال والاستماع الى آرائه وتوجيهاته في كل ظرف لم يخلق منه شخصية ضعيفة تنتظر المساعدة والتوجيه باستمرار . . بل كان ~~من~~ كل ذلك بالنسبة له اعدادا لتحمل مسؤولية المستقبل ، ولقد كان ابن سعيد عند حسن ظن ابيه ، فعند وفاته بالاسكندرية بقي ابن سعيد وحيدا في ديار الغربة وكانت الظروف غير مشجعة بالنسبة له — كما ينعكس ذلك في شعره خلال تلك الفترة — ولكنه لم ييأس ولم يتخل عن <sup>الرسالة</sup> الرسالة العلمية التي ورثها عن اسرته واعتبرها هدفه الاكبر في الحياة وهو ازال شابا في التاسعة والعشرين من عمره بل واصل السير وحيدا ، دون ان يدفعه فقد لوالده وعونه الاكبر على الرجوع الى المغرب .

ولقد خلق والده عنده هذا الاحساس بالمسؤولية منذ سن مبكرة يمثل هذا الاتجاه في انابته عنه في ولاية الجزيرة الخضراء وهو ما زال في الحادية والعشرين من العمر ، وفي استصحابه الى المغرب مع موكب العادل وهي ابن خمس عشرة وفي السماح له بمرافقته في زيارته المتعددة لزملائه علماء الاندلس ورجالاتها البارزين وفي محادثاتهم والاخذ عنهم .

(١) — انظر القسم الخاص بالحديث عن " بنى سعيد "

(٢) — ومن الغريب الانجد شيئا عن دورانام في حياة ابن سعيد . ان لم اعثر على اية اشارة

ولم يألأب في ابنه الميل الأدبي فشجعه . . واول كل اليه مهمة علمية تاريخية الا وهى اكمال كتاب " المغرب " الذى عمل اجداده على تصنيفه لمدة قرنين من الزمان ، والبدء في اعداد كتاب المشرق متم الكتاب الاول ومكمله .

ومن خلال الامثلة العملية الحية خلق الاب في نفس الابن تقديرا للجهد العلمى وللصبر والجلد واحترام الحقيقة، أخبر— يوم توليه حكم الجزيرة الخضراء — ان احدهم يمتلك بعض المصادر التي تهمة . . . فبعث اليه يطلبها منه فأبى . . فذهب بنفسه الى بيته — رغم جفوة اللقاء — ونقل ما اراده وشكره بأدب وانصرف . ولما تعجب ابنه من مشيه الى منزل ذلك الرجل بنفسه قال له — بأسلوب يتوخى تجسيد العبرة واعطاء القدوة — " انى لامشى له ولكن امشى للفضلاء الذين تضمنت الكراميس اشعارهم واخبارهم متأراهم لوكانوا احيا " في موضع انفت ان امشى اليهم ؟ " فاجاب الابن " لا " . فقال الاب : " فان الاثريين عن العين " . ثم اراد يؤان يبنه ابنه الى اولىسة العلم بالنسبة للسياسة في عصر الثورات والاضطرابات فعقب على الزيارة قائلا : " الم تعلم يابنى اننى سررت بهذه الفائدة اكثر من الولاية " (١)

ودخل الفتى علي والداه في يوم عيد فاذا به " في جهد عظيم من الكتب " فقال له " ياسيدى انى هذا اليوم لاتستريح ؟ " فنظر الى كالمغضب وقال : " اظنك لاتفعل ابدا " اتري الراحة في غير هذا ؟ والله لا احسب راحة تبلغ مبلغها ولوددت ان الله تعالى يضاعف عمري حتى اتم كتاب المغرب على غرضي " وكان لهذه اللفتة اثرها في نفس الفتى — وذلك الاثر البعيد الذى وصفه لنا بقوله " فانار ذلك في خاطري ان صرت مثله زولا التذ بنعيم غير ما التذ به من هذا الشأن ولولا ذلك مابلغ هذا التأليف الى ماتراه " (٢) .

وحرص موسى — فوق ذلك — على غرس الثقة بالنفس في شخصية الابن من خلال احترام تخصصه العلمى والتمسك به رغم كل شىء " . . . ومتى دفعك الزمان الى قوم يعرفون من العلم ما تحسنه حسدا لك وقصدا لتصغير قدرك عندك وتزهيدا لك فيه فلا يحملك ذلك على ان تزهد في علمك وتركن الى العلم الذى مدحوه فتكون مثل الغراب الخ " (٢) . وينتشر الاب الاحداث والمناسبات ليبصر ابنه بطباع الناس وحقائق الحياة . . .

(١) — النسخ ٩٥/٣ — ٩٦

(٢) — المصدر السابق ٩٩/٣

(٣) — المصدر السابق ١٢٣/٣

حدث ذات يوم ان كان الاب والابن جالسين فى مجلس ابن البناء الاشبيلي الذى كان يتصف بالميل الى نوع من الجد المشوب بالحق على الناس . وسأل ابن سعيد الرجل ان ينشده شيئا من غزله " فاعتذر وخجل وفكر ولم يات بشئ " فلما خرجا من عنده بادره ابوه بقوله : " ما اخالك تعقل ، هذه صورة ينطبع فيها عشق او ارتياح اوشى من اسباب الورقة انما اسال منه ان ينشدك فى فتنة اوسخط املاء فطبعه <sup>اصل</sup> الطباع الى ذلك " ( ١ )

وفى اثنا الثورة <sup>اليهودية</sup> المتوكلية كانت الخواطر ثائرة والنفوس قلقة ، وكان من حسن السياسة ان يتبعد الانسان عن كل ما يشير <sup>الرببة</sup> الى <sup>الرببة</sup> ويخلق الاعداء ، وحدث فى تلك الفترة ان تولي الافلح اللخمى عملا لابن هود فداخله نوع من الخيلاء المثيرة للاشمئزاز وصادف <sup>ان</sup> فى <sup>موكب</sup> له وابن سعيد وصديقه ابن سهل الاسرائيلي موجود ان فى المكان فقال ابن سهل : وزيرنا يا ويحنا افلح ، فأكمل ابن سعيد : فهل ترانا معه نفلح ، <sup>وواصل</sup> ابن سهل : يقرأ راجيه على فيه لا ، فختم : ابن سعيد : فحاجة المسكين لا <sup>تنبه</sup> . فبلغ الهجاء الافلح فاسرها فى نفسه وقطع عطاء لابن سعيد . ولم ابوه بالامر فاستدعاه ومخه بشدة قائلا : ما ابعد الفلاح عن وجهك ما كفى بك ادخلت روحك <sup>في</sup> النيمة بهجو الاعيان ، حتى رضيت ان تكون زاملة يهودى شاعر فاشتريت معه فى الصفة بالهجو وانفرد بحصول المعنى " وكان هذا الكلام كافيا لتوضيح معالم الطريق امام الفتى الذى خجل من عمله واقسم الا يعود الى مثل ذلك . ثم <sup>هش</sup> والده على نظم قصيدة اعتذار . . . ففعل والقاها <sup>في</sup> محضر الافلح رغاء السخرية التى قول بها فى البداية " ( ٢ ) وما لاشك فيه ان هذه التجربة المبكرة القاسية كان لها اثرها فى علاقات ابن سعيد بمن اتصل بهم <sup>مضى</sup> ذوى النفوذ والسلطان .

والى جانب الاستفادة من الوقائع العملية كان الاب يعمل على انضاج تفكير الابن بالحكايات وضرب الامثال . فقد كانا يوما يتحدثان " فى اختلاف مذاهب الناس وانهم لا يسلمون لاحد <sup>في</sup> اختياره ، فقال ( الاب ) : متى اردت ان يسلم لك احد <sup>في</sup> هذا التأليف - اعنى المغرب - ولا يعترض اتعبت نفسك باطلا ، وطلبت غاية لا تدرك ، وانا اضرب لك مثلا . . . .

( ١ ) - القدح ١١٩

( ٢ ) - المصدر السابق ١٤١

ثم قص عليه حكاية الرجل الذي خن <sup>مك</sup> ابنه الى الطريق ومعهما حمار واحد فركباه  
معا ثم تناوبا ركوبه ثم مشيا معه راجلين والناس ينتقدونهما <sup>فك</sup> كل حال (١) فالاب حريص  
الا يهتم ابنه بالانتقادات التي توجه الى عمله العلمي . من ناحية - وهو يريد ان يبصر ابنه  
باختلاف نزعات الناس واهوائهم من ناحية اخرى .

ويستمر الاب المجرب ، العليم ببواطن الامور ، الذي شهد دولا تنهار ودولا تقوم ،  
والذي اكتشف بعد احداث مريره مرتبوطنه ان الاشتغال بالعلم هو اثنان الاعمال <sup>فك</sup> هذه  
الدنيا الفانية - يستمر في توجيه ابنه حتى آخر يوم في حياته - ففي اثناء مرضه الاخير  
بالاسكندرية كتب لولده وصية (٢) تكون بمثابة دستور له في غيبته شملت كثيرا من النصائح  
الشخصية والعلمية ، فمن ذلك قوله :

ولا تجالس من فشا جهله	واقصد لمن يرغب <sup>في</sup> صنعته
ولا تجادل ابدا حاسدا	فانه ادعى الى هيبته

وقوله محذرا اياه من التطرف في الاعتداد بالنفس :

ووف كلاحقه ، ولتكن	تكسر عند الفخر من حدثك
ودعوته اياه لتغليب العقل على الشهوة :	
ولتزن الاحوال وزنا ولا	ترجع الى ما قام في شهوتك
ولتجعل العقل محكا وخذ	كلا بما يظهر في نقدك
وتذكيره له بمبادئ السلوك الهامة في الغيبة متمثلا بقول القائل :	

يزين الغريب اذا ما اغترب	ثلاث فمهن حسن الادب
وثانيه حسن اخلاقه	وثالثة اجتناب الريب

ومعلق على ذلك بقوله : واذا اعتبرت هذه الثلاثة ولزمتها <sup>فك</sup> الغيبة رأيتها جامعة نافعة  
لا يلحقك . . مع استعمالها ندم . . " (٣)

(١) - النسخ ٩٣/٣ - ٩٤

(٢) - المصدر السابق ١١٦/٣ - ١٢٤

(٣) - المصدر السابق ١١٨/٣

وينبهي الى ضرورة الاستفادة من تجارب السابقين والنظر اليها باحترام وتقدير —  
 وعدم الاعتماد كلياً على النظر الشخصي : " وفي امثال العامة من سبقك بيوم فقد سبقك بعقل ،  
 فاحذ بامثله من جرب واستمع الى ما خلد الماضون بعد جهدهم وتعبهم من الاقوال لغانها  
 خلاصة عمرهم ، ولا تتكل على عقلك .. " (١) ويرسم له طريق التعامل مع الناس : " واقلل  
 من زيارة الناس ما استطعت ولا تجفهم بالجملة .. ولا تقل ايضاً اعد في بيتي .. واستريح من  
 الناس فان ذلك كسل داع الى الذل والمهانة ( ٢ ) .

وهكذا يتضح الاثر البعيد الذي خلفه والده في شخصيته . وهو — كما تبين — تأثير  
 ايجابي مشر على كافة المستويات . ويمكن القول ان حياة ابن سعيد مارت في خط الاتجاه  
 الذي سار عليه والده في الشطر الثاني من حياته بعد ان نفّس يده من العمل السياسي  
 نهائياً واخذ يجول في المدن الاندلسية مقابلاً العلماء مسجلاً لفوائدهم ، متعرفاً على المدن  
 واحوالها الجغرافية وصفات سكانها عن كثب . وهذا الشطر الثاني من حياة الاب هو الذي  
 خطه وعاه الابن وشارك فيه مشاركة فعالة ، ثم واصل السير فيه من بعده .

## ٢ — بيئة اشبيلية الطبيعية والاجتماعية والثقافية :

معد البيئة المنزلية العائلية ، تأتي البيئة الاجتماعية .  
 ولقد قضى ابن سعيد سنوات عمره الحاسمة في اشبيلية التي كانت الاشارة الى جوها  
 الطبيعي الجميل ومبانيها الانيقة ولطف سكانها المتعددي الاجناس ومرحهم ، وخصب  
 الحياة الثقافية فيها وكونها المركز الاكبر للعلم والسياسة — معا — في الاندلس . ونستدل من  
 شعر ابن سعيد ومن مذكرات رحلته التي اشار فيها الى الفروق بين مصر والاندلس ، ان الفتى  
 قد انغزل منذ صغره بجمال المدينة الطبيعي الخلاب وترى ذوقه على رؤية شوارعها ومبانيها الانيقة  
 وتعود على العيش بين اهاليها المعروفين بتأديبهم وحسن مظهرهم ولياقتهم وظرفهم ، وكانت له  
 مع صديقه الشاعر ابن سهل الاسرائيلي نزعات وجولات في ضواحي المدينة وساتينها . ومن  
 ناحية اخرى فان وجوده مع والده في المدينة اتاح له فرصة التعرف عن كثب على طبقتهم  
 الاجتماعية الارستقراطية من علماء ووزراء وقواد وشعراء مما اعطاه مجالاً للتأمل في اخلاق القوم  
 وطباعهم ومظهرهم ومسكنهم وملبسهم وحدثهم وطرق تفكيرهم .

(١) — النسخ ٣ / ١١٩

(٢) — المصدر السابق ٣ / ١٢٠

وسرى ان من مميزات ابن سعيد في ترجمته للشخصيات عدم الاكتفاء بذكر الحقائق التاريخية والحرص في معظم الاحيان على اعطاء انطباعه الشخصي الذي يكون عبساراً عن تقويمه للشخصية الرجل او ذكر ميزة هامة تميز شخصيته . . ولعل لهذه اللقاءات المبكرة مع علية القوم في اشبيلية اثره في هذا الجانب عند ابن سعيد خاصة وان والده كان يهتم بلفت نظره الى طبائع الناس الذين <sup>يلتقيان</sup> يتلقون بهم (١) .

بالاضافة الى ذلك سيؤثر جواشيبيلية الضاحك اللاهى وجوها العلمى والاجتماعى المتسامح في شخصية ابن سعيد كلاً في ناحيته . وقد كان ابن سعيد يشارك في الجوين مشاركة فعالة ، هذه المشاركة <sup>التي</sup> ستكسبه سعة في الافق وميلا الى التسامح الدينى والاجتماعى والفكرى ، وما انسجماه مع ابن سهل الاسرائيلى في مجال اللهوفى منتديات العلم معا الادليل مرونته ومعه عن التعصب . وسنأتى الى ذلك تفصيلا عند الحديث عن مزاياه الشخصية .

### ٣ - ثقافته العامة :

يؤثر نوع الثقافة في الشخصية ، كما ان الشخصية بدورها توجه الثقافة وتطبعها بطابعها والعوامل المكونة للشخصية يكون لبعضها اثر في تشكيل الثقافة ولورثتها ووضع حدودها وآفاقها . وفيما يتعلق بثقافة ابن سعيد العامة ، فان البيئة الاندلسية الغنية بمقومات الثقافة ساهمت في اطلاعه على كثير من آفاق المعرفة السائدة عندئذ وشخصية والده كان لها دورها الثقافى الضخم واتصالاته المبكرة باعيان الاندلس والمغرب اعطته خبرة في شؤن الناس والمجتمع ما كان يمكن ان يجدها في الكتب . ثم جاءت رحلاته الكبرى واتصالاته العديدة بشخصيات العالم الاسلامى من امراء وعلما وشعرا لتوسع وتعمق ثقافته الحية وخبراته المباشرة .

وثقافة ابن سعيد العامة يمكن ان يلصقها المرء في نواح عدة من آثاره وشخصيته ومنهج تفكيره . ولسنا هنا بصدد الحديث عن ثقافته بمعناها العلمى او ماتعنيه من مجالات التخصص في فروع معينة من المعرفة فلهذا لمكان آخر في الفصل الخاص بعلمه ومنهجه العلمى .

والمقصود هنا النزعة العامة في مواجهة كافة الامور علمية وغير علمية وطريقة النظر الى الاشياء وما يمتلكه المرء من " حكمة " ومعنى نظر في شؤون الحياة والمجتمع . واذا امكن التمييز بين مجالى " التخصص العلمى " و " الثقافة العامة " فانه لا يمكن الفصل التام القاطع بينهما فكلاهما يرفد الاخر ويتفاعل معه . وقد انعكست ثقافة ابن سعيد الخصبة الواسعة في الظواهر التالية :

- أ - تعود على اصول الحياة الاجتماعية الراقية حيث نشأ في بيئة راقية اصلا ثم اخذ يتنقل بين بلاطات الامراء في المغرب والمشرق حيث التقى بابن يغمور في مصر والناصر الايوس في حلب والمعظم في دمشق . ولا شك انه لم باصول المعاملات وطرائق السلوك الاجتماعى الراقى في البيئة التى نشأ فيها والبيئات التى تنقل فيما بينها . وسنهتم بتفصيل هذه الناحية عند الحديث عن مزاياه الشخصية مكثفين هنا بالاشارة اليها .
- ب - تفهمه الدقيق للطبائع<sup>لطبائع</sup> الافراد والجماعات . وهذا ينعكس بوضوح في كتاب " القدح " الذى ترجم فيه لاشخاص التقى بهم حيث تكشف تعليقاته على شخصياتهم وتصرفاتهم فهما دقيقا لنفسية الافراد . كما ينعكس في اشاراته الى طبائع المجتمعات التى تعرف اليها فتراه يتنبه الى الفروق الدقيقة بين اخلاق المغاربة والمشاركة (١) بل يستطيع التنبيه الى الفارق بين اخلاق اهالى القاهرة واخلاق اهالى القسطنطينية (٢) على قرب وشدة شبهة بين المدينتين المتجاورتين . . . وهو المغربى الوافد الذى قدم من بلاد تختلف طبائع اهلها عن طبائع الجماعتين .
- ج - اتصافه بثقافة تاريخية واسعة : وهذه الثقافة التاريخية تنعكس بوضوح في كثرة الاشارات التى ترد في شعره والتى تكون مستمدة من حوادث التاريخ العام او تاريخ الادب او القصص الدينى . وهذا يدل على مدى هضمه لكل ذلك حتى اصبح جزءا من نتاجه الذاتى (٣) .
- د - تعدد فروع اهتمامه العلمى : وهذا ما يتضح في مصنفاته بين مختارات لنصوص شعرية الى تاريخ البلدان والدول والاشخاص الذين ينسب اليهم ذلك الشعر الى وصف جغرافى لتلك البلدان .

(١) - مسالك الابصار ٤ ، ورقة ١١١

(٢) - النسخ ١٠٦/٣

(٣) - راجع الفصل الخاص بشعره

فكتابا " المغرب " و " المشرق " عبارة عن مختارات ضخمة من الشعر بالاضافة الى تراجم مختصرة للشعراء وتاريخ المدن والدول <sup>التي</sup> قامت بها ووصف جغرافى لتلك المدن . وكتاب المرقصات - على سبيل المثال - كتاب له طابع نقدي بالاضافة الى كونه مختارات شعرية وشعرية تغطى فترة حياة الادب العربى منذ القدم حتى عصر ابن سعيد . اما كتاب " بسط الارض " فهو كتاب جغرافى علمى دقيق ( ١ ) ، بكلمة اخرى ان ابن سعيد كان ادبيا ومؤرخا ومصنفا جامعا وجغرافيا رحالة .

وهل ضوء هذا التعدد المتباين فى فروع اهتمامه العلمى وعلاقته هذا التعدد بشخصيته يبرز السؤالان التاليان :

- هل كان ابن سعيد يتأرجح <sup>في</sup> بينه الشخصى وبين خط التصنيف <sup>في</sup> الادب - ومايلحق به وبين اتجاه العمل الجغرافى وما تبعه ام انه كان ينظر للثنتين باعتبارهما وحدة متكاملة وانه ليس ثمة <sup>في</sup> تأرجح فى الاختيار . ويستتبع ذلك : هل ان الادب والجغرافيا كانا يسيران جنب الى جنب منذ البدء ام انه مال الى احدهما فى فترة معينة من حياته واتجه الى الآخر <sup>في</sup> فترة اخرى ؟

- هل كان هناك - من ناحية اخرى - تعادم بين متطلبات جهد العلم عامة وبين النواحي الاخرى فى حياته الشخصية كميله الى مجالس اللهو والتزهد والالتقاء باصدقائه واندماجه فى اجواء المرح والدعابة وما يستتبع ذلك من تخلص من مسؤوليات التقيد والتصنيف؟ للاجابة على السؤال الاول نلاحظ ما يلى :

ان التصور الجغرافى كان اساسيا فى كتاب " المغرب " وهو الكتاب الذى <sup>نزل</sup> ابن سعيد <sup>لنفسه</sup> لاكماله منذ شبابه فكتاب " المغرب " قائم على تلاحم قوى بين الجغرافية والادب ، وكل التراجم والنصوص الشعرية ترتبط باجواء مدنها واصناف تلك المدن وطبائع اهلها . ولا نستطيع ان نتصور " المغرب " بدون التقسيم الجغرافى المستند اليه . كما ان التاريخ والترتيب الزمنى روحيا مراعاة دقيقة اذ لا تبدأ تراجم العلماء والشعراء الا بعد الحديث عن الامارات والدول <sup>التي</sup> عاشوا <sup>في</sup> ظلها .



ومن هنا كان الاهتمام بالتاريخ والجغرافية لايسير في اتجاه مضاد للعمل الادبي بل يغنيه ويكمله وكل جهد في حقل تسجيل الملاحظات الجغرافية او الفوائد التاريخية يرتبط بالجهد الاكبر المبذول في ترجمة الشعراء وجمع اشعارهم .

وقد كان ابن سعيد يعنى هذه العلاقة بين الجغرافية والتاريخ من ناحية — وبين التصنيف الادبي من ناحية اخرى بل انه كان يدرك ان الادب وحده لايمكن ان ينهض علما مستقلا بذاته وانه يتوكل على العلوم الاخرى فنراه يقول : " ان هذا الفن الادبي متطفل على سواء متوشح بغيره من الفنون توشح البلبل بالدهج من اسفله الى اعلاه ، ولذا احتجنا مع الاستضلاع من صميم فنه الى مطالعة غيره من الفنون التى مزجناه بها مزج الصبا بالما . . . . . وهكذا نرى ان ابن سعيد عجز لم يكن متأرجحا بين الميلين لانه جمع بينهما في انسجام متكامل . كما انه ليس ثمة دليل على ان الميل الجغرافى او التاريخى سيطر على فترة معينة من حياته فلقد بدأ ابن سعيد مصنفا ادبيا بكتاب " المغرب " وانتهى مصنفا ادبيا ايضا بكتاب " القدح المعلى " وكتاب " المقتطف من ازاهر الطرف " . اما فيما يختص بالعلاقة بين حياته الشخصية وجهوده العلمى عامة فالملاحظ ان الرحلة غدت متعة شخصية عند ابن سعيد ولم تكن عملا اضطراريا فقد كان بإمكانه البقاء في بلاط الناصر الايوبي صاحب حلب الذى كان متمسكا به مانعا في رحيله عنه ( ٢ ) وقد غدت متعة الشخصية هذه جهوده العلمية كما اننا نلاحظ ان ابن سعيد قد نزهاته وجالس لهوه مع اصدقائه — الذين هم من العلماء والشعراء او الظرفاء — يقيد ما يسمع منهم من اشعار وطرف ادبية . . . بل ان تلك الجلسات كانت ماثرا للأفكار والاشعار ومجالا لاشتراكه مع زملائه في نظم القصائد المشتركة ( ٣ ) . وهنا ايضا يوجد التكامل بين الميول الشخصية والعمل العلمى ويرفد احدهما الاخر بحيث تغنى فوائد تلك الجلسات اعمال التصنيف ومشجع الميل لاغناء التصنيف على الدائمة على تلك الجلسات .

---

( ١ ) — مسالك الابصار ٨ / ورقة ٣٨٢

( ٢ ) — القدح ٨

( ٣ ) — انظر احاديثه عن امثال هذه الجلسات وما نتج عنها من فوائد ادبية في القدح ٧٣ — ٧٧ والمقتطف ٥٤ — ٥٦

ولابن سعيد قصيدة "إتية" تكشف عن نظريته في هذا الأمر حيث يربط بين حياة  
التفكير وصفاء الأفكار والتخلي عن المسؤوليات العائلية وبين العمل  
العلمي وما يتطلبه من تفرغ :

أنا شاعر أهوى التخلي دون ما      زج<sup>كيميا</sup> تخلص الأفكار  
لو كنت ذا زج لكنت منغصا      في كل حين رزقها امتار  
دعني أرح طول التغرب خاطري      حتى أعود ومستقر قـرار  
كم قائل : قد ضاع شرب شبابي      ما ضيعته بطالة وعقار  
أذ لم أزل في العلم أجهد دائما      حتى تانت هذه الأفكار (١)  
فابن سعيد يربط هنا بين حياته الخاصة وجهده العلمي الذي يلتزم  
به التزام الناس بأزواجهم ومسؤولياتهم العائلية . وهكذا نرى  
التوافق تاما بين الجانبين الشخصي والعلمي .  
ومن الخير قبل أن ننتهي<sup>ننتهي</sup> الحديث عن ثقافة ابن سعيد أن  
نشير إلى علاقة ثقافته بأنواع الثقافات المعروفة في عصره :  
يمكن القول أن ثقافته أقرب ما تكون إلى ثقافة الكتاب  
والكاتب له وظيفة مهمة في المجتمع الإسلامي لأنها من امتع الوظائف  
وأكثرها خبثا ، فهو الذي يجالس الخليفة أو والي أو الأمير ؛  
يجالس في أوقات خلوته ومعه ليمتعه بطرائف الشعر  
والحكايات وليقرأ عليه ما يشاء من كتب تهمة ، وعلى الكاتب  
أن يكون مستعدا للقيام بسفارات خاصة لولى الأمر عندما يستدعي  
الأمر ذلك . فللكاتب مكانة نرى صيغة سياسية وعلمية  
وإدارية وأدبية فهو بمثابة السكرتير الرسمي والخاص  
للأمير . ومنصب كهذا يتطلب من صاحبه - بجانب اللياقة الشخصية -  
ثقافة تاريخية وأدبية عريضة بالإضافة إلى التمكن من كتابة الرسائل الرسمية  
والخاصة . وما يدل على أهمية هذا المنصب أن عددا من الشخصيات

البارزة في التاريخ الاسلامي اضلعت باعبائه : فقد شغله رجال  
من امثال عبد الحميد الكاتب وابن العميد وابن زيدون وابن  
خلدون وابن الخطيب .

وقد تولى ابن سعيد شيئاً مقارباً <sup>من</sup> ذلك عند الامير  
ابى زكريا صاحب تونس وتولى الوظيفة كاملة عند  
وزير ابن جامع كما انه قام ببعض واجبات الكاتب عند الناصر  
صاحب حلب وعند توران شاه في دمشق . ولعل كتاب "المقتطف  
من ازاهر الطرف" نموذج مصغر لما يجب ان يكون عليه الكاتب  
من حسن الثقافة العامة <sup>وتد</sup> ويكون للكاتب - اذا كان مبرزاً - تخصص  
يركز عليه جهده ويشتهر به . فكاتب كابن زيدون تفوق في مجال الشعر والنثر الفنى  
لجانب قيامه بوظيفته . وابن خلدون ركز على التاريخ وفلسفته . وكذلك كان لابن سعيد  
تخصص استحوذ على اكبر قسط من اهتمامه الا وهو الروايات الادبية والتصنيف في حقل الترجمة  
للشعراء والعلماء حسب اصول معينة .

هذه العموم فان ثقافة ابن سعيد الواسعة في افاقها ، المتعددة في نخبها ، التي  
تلاقت فيها حرارة التجربة الشخصية مع مطالعات واسعة في كتب الادب والتاريخ والجغرافيا  
كان لها اثرها الكبير في خلق اتزان في شخصيته وفي <sup>اضفاء</sup> مسحة من التسامح والموضوعية عند  
تجاه شخصيات الاخرين وتصرفاتهم وافكارهم . وسأتى لتفصيل ذلك عند الحديث عن ميزاته  
الشخصية مكثفين هنا بالاشارة الى ثقافته العامة بعبارة عاملاهما من عوامل تكوين شخصيته .  
ع- حالة الأخلاق في المجتمع عامة

كما المحدث سابقا ، لم يكن عصر ابن سعيد بالعصر الذي يشجع على انتهاز مبدأ الصراحة  
في القول والعمل ولا اتباع منهج الثقة التامة بالاصداق والمخدومين . وقد لفته حادث هجائه  
للوزير الافلح درساً قاسياً . كما علمته معاصرته لفتن الاندلس في عهده الاخير الكثير من  
العيب . فكان لكل ذلك اثربين على شخصيته سنعمل على استجلائه عند الحديث عن مزياته  
الشخصية .

٥ - كثرة اتصالاته ورحلاته :

جال ابن سعيد كثيرا .. واتصل بالكثيرين .

جال بلدانا تختلف في مظاهرها الطبيعية والعمرانية وشهد شعوبا تختلف في طبائعها ..  
واتصل بأشخاص تتنوع طباعهم وتتعدد تنوع ملامحهم بتعدد اسمائهم .  
كل ذلك له اثر البعيد الخطير .. وعلى الاخص بالنسبة لشخص <sup>ذكي</sup> دقيق الملاحظة  
كابن سعيد ....

فلقد زار مراكز المحافظة وهو في الخامسة عشرة بعد فترة خصبة قضاها في المجتمع  
الاشبيلي المتفتح ، ولقد جال معظم مدن الاندلس قبل ذلك معه ، ثم جاء الى تونس وهو  
في السادسة والعشرين ورحل الى مصر وهو في التاسعة والعشرين ..  
والرحلة في بيئتين متباينة تدفع المرء الى التأمل والمقارنة والتأني الى استخراج العظة  
والعبرة التي تؤدي التوصل اليها بهذا الطريق العلمي الحي الى تحقيق ثبج عقلي وسعة  
ادراك وفهم متزن لكثير من مظاهر المجتمع وطبائع الناس .  
وهذا القول ينطبق على ابن سعيد الى حد بعيد فقد انعكس على تأثره بهذا العامل  
على نفسيته ومولفاته بشكل واضح .

٣ - مزاياه الشخصية

تفاعلت تلك العوامل المتعددة في نفسية ابن الحسن .. فأى نتائج كان ؟  
في اعتقادنا ان الطبع الهادئ والعاطفة المتزنة والتعقل الرزين .. كل ذلك ~~كان~~  
ممزوجا بثقة في النفس ونظرة متفائلة للامور <sup>وهو</sup> والخيطة الرئيسى في شخصية ابن سعيد وهو الذي  
يمكن ان يفسر كل مزاياه الشخصية الاخرى ..  
لم يكن الرجل حاد الطبع جياش العاطفة ، ولم تكن لديه عقدة نقص <sup>يرفعه</sup> لاتخاذ مواقف  
حادة ~~سلبية~~ متطرفة سلبا او ايجابا .

"الاعتدال" .. ذلك هو جوهره النفس .

اذ يبدو ان تركيبه في الاساس قائم على هدوء العاطفة والبعد عن الانفعالات ثم

جاءت العوامل البيئية من شخصية <sup>أبي</sup> الحكيم وبيئته مدينة مفتحة ... وصدقات شخصية

متسامحة .. ومطالعات طويلة متنهضة .. ورحلات واتصالات استغرقت سنين طوالا ، لتدعم

ذلك التركيب الاصلى <sup>فهي</sup> تكوينه المبكر ولتنتج هذه الشخصية الهادئة ، المتزنة ، البعيدة عن اى تطرف

وانفعال ، <sup>التي</sup> تغلب العقل على الشعور بسهولة ويسر .

وبجانب هذه المزية الاولى والرئيسية اتصفت شخصية ابن سعيد <sup>بما</sup> بمزايا اخرى

تؤكد هذه المزية الكبرى وتظهر كانعكاسات جانبية لها ..

#### ١ - لباقته ومجاملته :

فمن ذلك لباقته وقدرته على المجاملة : فابن سعيد لبق مجامل واللباقة " صنعة "

قديمة تعلمها ابو الحسن في فترة مبكرة في مجالس اشبيلية .. <sup>وهي</sup> صنعة تتناسب مع

شخصيته ولا ترهقه من امره عسرا فهو يجامل بشكل طبيعي <sup>عفوي</sup> وهو من خلال

هذه المجاملة الصادقة - ان كان ثمة مجاملة صادقة على وجه هذه الارض ! -

يكون الصدقات الحميمية بسرعة مذهلة وباعداد ضخمة . والشخص الذي يصطنع

المجاملة واللباقة لا يمكن ان يكون صداقه حقيقية واحدة ... " ( وهنا نستثنى نفاقه

الذي لا بد منه في علاقاته الرسمية برجال السلطة ) <sup>(١)</sup> .

وابن سعيد كمعادته معتدل <sup>في</sup> صداقاته وفي مجاملاته التي يكون من خلالها تلك

الصدقات . فهو لا يحب كثيرا لانه لا يكره كثيرا فمن يمتلكه الحب الشديد <sup>يتملكه</sup> يتملكه الكره

الشديد ايضا .

ومما لا شك فيه ان ادبه ومنزلته العلمية لهما اثر في صداقاته . ولكن الذي لا شك فيه

ايضا ان الادب والمنزلة العلمية وحدهما لا يجذبان صديقا واحدا .

والمرونة التي يتمتع بها ابن سعيد في معاملة الناس عامة واصدقائه خاصة هي  
 " اداة " ضرورية من " ادوات " عمله الكبير : الاطلاع على المصادر واخذ الاخبار  
 الشفوية من اصحابها ... وله في ابيه ، والى الجزيرة الخضراء الذي مشى الى بيت  
 " احدهم " من اجل العلم ... اسوة حسنة . ولابن سعيد في هذا المجال اخبار يروها  
 عن نفسه تكاد تصل به الى درجة البرود العجيب .

زوى ابو الحسن : " انشدنى ( ابوبكر محمد بن الاسبتى ) يوما قصيدة قال

فيها :

اذا رأيت نجواً الافق بادية \* فاعلم بان الثريا راحته والظلمة

فقلت : هذا بيت لافهم له معنى . فاغناظ وقال : " لو كنت تفهمه لكت من بنى آدم ،  
 احسن الشعر وانبل ما يكون معناه غامضا عن امثالك . فاضحكى " (١)

والان ... علينا ان نعترف ان الذين يخرجهم مغرور ، معجب بشعره ، من دائرة  
 " بنى آدم " ثم يضحكون هم قلائل للغاية .

والغرابية ليست في الحكاية فحسب بل في الطريقة الهادئة التي يرويها ابن سعيد  
 وكأنه يحدثنا عن احدى نزواته في اشبيلية مع ابن سهل .

ثم ماذا حدث بعد ان اضحكه ؟ هل تركه ابن سعيد وشأنه ؟ كلا ... لقد  
 واصل حديثه معه ببساطة " ثم حفظت من هذه القصيدة قوله في الممدوح ، وهو مثل  
 غيره ثقیل الروح . واورد الابيات " (٢)

يخرجه الرجل من آدميته ، ثم يواصل حديثه معه ، ويحفظ ابیاتا من شعره .  
 يبدو ان ابن سعيد هنا - وهو يعامل هذا الرجل الذي هو واحد من " موضوعات  
 بحثه " - كعالم سيكولوجى يجرى تجاربه على نوعية استجابات الحيوانات الهائجة وهو في  
 غاية الهدوء والمواجهة الموضوعية للتجربة .

(١) - القدح ١٢٢

(٢) - المصدر السابق ١٢٢

ولكن ابن سعيد عند ترجمته لهذا الرجل يصف كل شعره بأنه " ثقيل الروح " . . .  
فتكون اثقل تحية على الطريقة " السعيدية " الهادئة .  
وهذه حادثة اخرى . . .

كان ابو جعفر احمد بن طلحة شديد التهور بكثير الطيش ذاهبا بنفسه كل مذهب يرى نفسه افضل من البحتري والمتنبى واليوتام . وحدث ان تحداه بعض جلاسه وطلبوا منه ان يقرأ عليهم من شعره . فلما قرأ " لم ينصفوه في الاستحقاق <sup>ورود</sup> في الغيظ الى اشد ما كان فقلت له ياسيدى ، هذا والله هو السحر الحلال وما سمعت من شعراء عصرنا مثلك ، فبالله الا ما زدتنى من هذا النمط . فقال : لله در ابيك من منصف ابن منصف اسمع وافتح اذنيك :

ثم انشدنى قوله : . . ( واورد له ثلاثة ابيات ) .

قلت : بالله اعد وزد . فلعاد والارتياح قد ملا عطفه ، والتيه قد رفع انفه ثم زاد

قوله ( واورد بيتين ) .

فقلت : ما على هذا من مزيد في الاحسان فعسى ان يكون مزيدا في الانشاد فزاد ارتياحه

وانشد ( واورد بيتين ) <sup>زارع</sup> .

فقلت له : ايه ، <sup>لربك</sup> الله احسانا ، فزاد : ( واورد بيتين )

فقلت : كل ما يكرر ويطول فانه ملول ، الا ما اورده آخفا فانه كسيم الحياة ما ان يمل فبالله <sup>الله</sup> الاتفضلت بالاعادة والزيادة ، فلعاد . ثم قال : وهذا حسبك لئلا تكثر المعانى عليك فلا تقوم بحق فهمها وانصافها . ثم انشد اذ ذاك ( واورد بيتين ) فقالت : ملا الله سمعك بكل بشرى . فما زالت المحاسن <sup>علي</sup> من قبلك تترى " ( ١ ) .

فابن سعيد يريد ان يأخذ <sup>الكلمة</sup> مادة مكدة ، والرجل شديد العجب بنفسه فهو يشبع في نفسه

هذا الميل بطريقة تدرجية ذكية ، وهو يسجل لفعالاته من " تيه " و " رفع انف " و " زيادة ارتياح " وهو لا يظهر اهتماما بعبارات الشاعر النامة عن استغفاره لابن سعيد من مثل " اسمع وافتح اذنيك " ومن مثل هذه الالهة الغبية : " وهذا حسبك لئلا تكثر <sup>عليك</sup> المعانى عليك فلا تقوم بحق فهمها وانصافها " .

وابن سعيد يروي الكثير من هذا النمط وخاصة في كتاب <sup>القدح</sup> الذي ترجم فيه  
 لشخصيات معاصرة التقى بها . . . وكل ما يرويه في هذا المضمار تأكيد لظاهر مروسته ولباقته  
 وبجاملته التي تنضغط وتمدد بحسب نفسية الشخص الذي يتحدث اليه ، فان كان شخصا  
 ثقيلا او مغرورا جامله بما يشبه الهز ، وان كان شخصا يرى انه يستحق احترامه وصادقته  
 عامله برقة ولباقة تنم عما يمكن له وتقرب من المصارحة القائمة بين الاصدقاء فهذا ابن سهل  
 الاسرائيلي يسمعه قصيدة خمزية خاتمتها الشطر " ولا اشتهي وردا سواها لدى الحشر "  
 فاذا به يستحسن خطابه اولا ثم ينكر " عليه فنزع بيته الاخير " ويلدغه " من الملام ببسير "  
 فيقول ابن سهل : " اليس في الجنة نهر خمر ، فذلك حسبى لا ابتغى به بدلا " فينتهز  
 ابن سعيد هذه الفرصة فيسأل صديقه السؤال الذي كان يدور في ذهنه منذ زمن : " بحرمة  
 ما بيننا الا ما ازلت عنى شك الناس فيكم ، وصدقنى هل انتم على دين اسلافكم اودين المسلمين ؟  
 فيجيبه ابن سهل : " للناس ما ظهر ، ولله ما استتر ، ومعد فهذا خلاف مانحن فيه " ويعلق  
 ابن سعيد على هذه الرواية بقوله : " فاضربت عن مناقشته ولم اقل له على ما اثبتته او انضيه :  
 وانى لا ارجو ان تكون وفاته  
 والقاء في جنات عدن مخلدا  
 على ملة الاسلام كيما يسلمنا  
 فليس باهل ان يحل جهنما " (١)

ويمكن للمرء ان يستخرج من هذا الخبر امورا عديدة . منها طريقة ابن سعيد اللبقة  
 في اشارة الموضوع فهو ينتهز فرصة ورود اشارة متطرفة في شعر صديقه فيعلق عليها ويسأل  
 السؤال الحساس لكي يزيل عن نفسه " شك الناس " في <sup>بني</sup> سهل ، وهو عندما لا يرى اجابة  
 صريحة يضرب عن المناقشة ولا يتقل على صديقه بمزيد من الاستفسارات حفظا لحسن العشرة بينهما .  
 ثم انه امانة منه <sup>في</sup> الرواية ينقل شكه للقارئ ولا يبرئ صديقه مما عرف عنه . . . وان كان يسجل  
 امنيته الشخصية — بعد تسجيل الحقيقة — في ان يصلح امر ابن سهل ويتوب الله عنه .  
 ومن هنا نتبين الى اى مدى كان ابن سعيد لبقا في علاقاته مع الاقارب . . .  
 والى اى مدى كان مخلصا لعلمه وللحقيقة . . . والى اى مدى كان وفيا للصديق . . . وفا لا يطغى  
 على امانة العلم .



٢ — تقديره لروح الدعابة :

يبدو ابن سعيد مقدرا لروح الدعابة في كل مايكتب فتراه يحرص على رواية اية دعابة او نكتة تتوفر لديه عن يترجم لهم بجانب ما يذكره من اخبار واشعار .  
وتقديره لروح الدعابة امر غير مستغرب فيه وهو المجالس والمنادم الطريف الذي استطاع ان يجد له مكانا اينما ذهب وحيثما حل .

ومما لاشك فيه ان جو طلبية اشبيلية المرح . . و " الشلة " التي كان هو وابن سهل وابن الصابوني — الذي كانوا يلقبونه بالحمار — من رؤسائها لهما اثر في خلق هذا الميل عنده ولانشك في ان هذه " الشلة " المؤلفة من طلبية اذكيا " اشقيا " كان لها اثرها في " عكنة " مزاج علماء النحو <sup>لكن</sup> مدارس اشبيلية وفي نشر النكت والاخبار المضحكة عنهم وعن زملائهم من الفقهاء ومقرري الادب الذين كانوا يحيون مجالس العلم في المدينة المستنيرة الضاحكة .

ولقد سجل لنا ابن سعيد في ترجمته لزملائه ولشيوخه ذلك الجو الضاحك الذي شهدوا واشترك فيه ولقد ركز على اساتذتهم بالذات — كعادة الطلبة في كل زمان ومكان — وتعقب كل نكاتهم وامورهم المضحكة من مظهر وخلق وكلام واخبار وتصرفات :  
فاستمع الى هذه " المناظرة النحوية " بين الشلوينيين — امام النحو <sup>في</sup> المغرب عندئذ — وبين الشاعر ابن الصابوني احد تلامذته :

" واتفق له ( الشلويني ) مع ابن الصابوني الشاعر الحكاية المشهورة . وذلك ان الشاعر المذكور كان يلقب بالحمار ويغتاظ من ذلك فبينما هو ذات يوم يقرأ عليه كتاب ( الايضاح ) اذ مرت مسالة " السمن منوان بدرهم " وتشعبت المذاكرة الى ان اغتاظ الاستاذ عليه ، فزحف اليه من صدر مجلسه وقال له : يا حمار يا ابن حمارين وجعل يصعد هكذا شيئا فشيئا الى ان قال له : يا مائة الف حمار ، يا ملء الارض حميرا ثم جعل <sup>لصغره</sup> اصبعيه في اذنيه ونهق وهو يزحف اليه واجتمعت العامة على باب المسجد وكانت حالة مضحكة ( ١ )

فتأمل في منظر هذا النحوى الغاضب الزاحف الناهق .  
 وابن سعيد يتتبع اساتذته حتى في لفظهم فيها هوذا يروى هذه الحكاية عن استاذ  
 الشلوينى " ولما سافر ابو العلاء ( المامون الموحدى ) الى مرسية خطب خطبة قال في اولها  
 ثللك الله ونشرك . وكان يجعل السين والصاد ثلثاً فتطير الناس بذلك . . . " ( ٢ ) .  
 ويستمر ابن سعيد في تتبع نوادر شيخه النحوى " وله حكايات مشهورة في الغفلة  
 منها عنقود العنب الذى وضعه في نهر اشبيلية وهو بالقارب حتى يبرد ثم يمد يده لياخذ . .  
 ومنها انه كان ينسخ والشعر الى جانبه فينشف الورقة بالشعر فيستودج جميعها " ( ٢ ) .  
 ولكن ابن سعيد لا يسمح لكل هذه الاخبار ان تؤثر على شخصيته استاذة في نظر  
 القارئ بل يختم كل ذلك بقوله : " ومع هذا فانه كان من ذوى المروءات . . واما في درجة  
 العلم والدراية فاليه كانت تصب الغاية " ( ٢ ) وكان في مطلع الترجمة قد اعطاه حقه من  
 التنويه والتقدير . وهكذا يتضح لنا ان ابن سعيد مع تقديره لروح الدعاية . يفهم مفعولها  
 واثرها ويحسن استخدامها فلا يجعل منها وسيلة للنيل من احد بل يقصرها على ما يجب  
 ان تقصر عليه من <sup>امتاع</sup> ~~لحاح~~ وموانسة .

وكما فعل مع شيخه الشلوينى فعل مع شيوخه الآخرين واصدقائه  
 وكتاب القدح " و " المقتطف " حافلان بالنوادر . بل انه في كتاب المقتطف  
 خصص فصلاً كاملاً للحكايات الطريفة ، وحتى في كتاب " المغرب " الذى  
 كان يترجم فيه للشخصيات باختصار ليفصح المجال امام النصوص الشعرية لم يفته  
 ذكر بعض النوادر خاصة عن بعض اهل المدن وعلى رأسها قلعتهم <sup>الى</sup> ~~التي~~ اورد عن  
 اهلها بعض قرائها حكايات طريفة . ( ٤ )

( ١ ) — القدح ١٥٣

( ٢ ) — المصدر السابق ١٥٤

( ٣ ) — المصدر السابق ١٥٤

( ٤ ) — المغرب ١٨١/٢ ١٨٦٤

وابن سعيد الذى اورد ذلك العدد الهائل من الطرائف عن غيره لم يجنب نفسه لسة الخبر الضاحك فهو يخبرنا انه عندما اراد الانتقال من القاهرة الى القسطنطينية لم يربدا من ركوب الحمار عندما رأى الفقهاء " ذوى الشارات " يركبونه على غير عادة اهل المغرب ، ولكنه لم يحتمل ركض الحمار السريع فوق على الارض وتلوث بالغبار فنقد المكارى اجنسه وطلب منه ان يحسن اليه بتركه يمشى راجلا . ثم سجل هذه الحكاية في الابيات الطريفة التالية : (١)

لقيت بمصر اشد البوار	ركوب الحمار وكحل الغبار
وخلفى مكارى فوق الرىا	ح ، لا يعرف الفرق مهما استطار
اناديه مهلا فلا يرعوى	الى ان سجدت سجود العشار

وعندما التقى بالملك الناصر فى حلب واخذ فى مجالسته وزالت بينهما الكلفة خيره الملك بين امور ثلاثة : بين لقب " البلبل " الذى اطلقه عليه وبين انعام القصيدة التى مدحها بها . وبين الخلع والتواقيع التى كان سيحصل عليها خلال مدة ضيافته . فيجيبه ابن سعيد بظرف " ياخوند ، انا مغربى اكل لا اغص بعشر لقعات فكيف بثلاث " فيسر الملك بالرد وظرف صاحبنا الاكل ( ٢ ) .

وابن سعيد يروى هذه النوادر عن نفسه دونما تحج مما يدل على ساحة روحه وعدم تكلفه .

( ١ ) - النفع ١٠٣/٣

( ٢ ) - المصدر السابق ٤٠/٣

٣ — حسن ذوقه وتقديره للجمال :

خلقت عنده بيئة اشبيلية الجميلة طبيعة " ، الانيقة شوارع وعرانا ، المترفـه دورا وقصورا ، احساسا بالجمال وتقديرا له .

١ — ينعكس ذلك فى شعره الملى بوصف المناظر الطبيعية ، الطافح بمختلف الالوان والزخارف ( ١ ) .

٢ — ويتضح بـيـن تنبـهـه للفارق بين نظافة وجمال شوارع اشبيلية ومبانيها المطلية بالبياض المحاطة بالبساتين وبين ما رآه — وتضايق منه نفسيا — ~~في~~ بعض احياء القاهرة من مبان يعوزها الترتيب وحسن الهندسة وجمال المنظر ( ٢ ) .

وابن سعيد — عند وصفه لاية مدينة اوقطر — يحرص على ذكر شكلها ويثنيها الطبيعية مما يدل على اهتمامه بهذه الناحية وشعوره باهمية الاناقة وجمال النظر بالنسبة لنفسية الانسان .

٣ — وحتى عقليته تأثرت بناحية الاهتمام بجمال الشكل وحسن مظهره . فتراه فى تخطيط كتابه الضخم " المغرب " يقسمه على هيئة عرائس . . . فكل مدينة عروس لها تاجها ومساطها ومنصتها واهدابها الخ ( ٣ ) . ولا نشك فى ان هذه الناحية قد ورثها ابن سعيد من بيئته المنزلية الارستقراطية العريقة .

٤ — بين لهوه وتدينه :

وردت فى مختصر " القدح " وفى بعض المصادر المتأخرة اوصاف لابن سعيد على انه من الفقهاء او من حفظة الحديث مثل " الفقيه " ( ٤ ) و " الشيخ " و " الحافظ " الا ان ابن فرحون — مؤرخ المذهب المالكي فى المغرب — كافانا مؤونة التحقيق فى هذه الناحية

---

( ١ ) — انظر فصل " شعر ابن سعيد "

( ٢ ) — النفع ١٠٢ / ٣

( ٣ ) — انظر فصل " علمه وصفاته ومنهجه "

( ٤ ) — القدح : ١

عندما اوضح <sup>في</sup> ديباجته المذهب - وهو كتاب في فقهاء ومحدثي الملكية - ان ابن سعيد \* لم يكن من نمط من قصد ذكرهم وان ترجم له لان " مؤلفاته اشتملت على كثير من الفوائد العلمية " (١) فابن سعيد اذن لم يكن فقيها ولا من حفظة الحديث ولنا ان نرجح ان ثقافته الدينية لم تصل الى حد التخصص والتأليف او درجة التمكن والوشوق وان كانت <sup>تقريبا</sup> متطابقة مع مستواه العلمي والثقافي العام كرجل مطلع على التاريخ ومتخصص في شؤون الادب والرواية .

ولكن ذلك لا ينفي عنه التدين اوحى شدة التدين الا اننا من ناحية اخرى لانملك من الشواهد ما يثبت تدينه ( وعدم ثبوت تدين شخص لا يعنى بالقطيع انه من اهل الزيغ والضلال ولا يدل على انه لم يكن قوم بواجباته الدينية المعتادة ) بل ان هذه الشواهد تشير الى انه كان متسامحا ببعض الشيء <sup>في</sup> امور دينه وانه كان يتمتع نفسه بانواع المتعة السائدة في عصره من جلسات لهو ومناذمة . والى الذي يدفعنا الى ترجيح ذلك الشواهد التالية :

- ١ - ان هدف الحج لم يكن المحرك الاول لرحلته المشرقية . يدل على ذلك كثرة تأجيله ولا يعقل ان هذا التأجيل كان - باستمرار - لاسباب قاهرة . فقد بقى <sup>في</sup> مصر ثلاث سنوات وفسى حلب ثلاث سنوات اخرى وفي الشام سنة وفي العراق سنة ثم ذهب الى الحج ، ويبدو ان الاهتمام بالاطلاع على المصادر الادبية كان يحتل الجانب الاكبر من تفكيره ، وهذا ما يشككنا في صدق لهجة قصيدته <sup>التي</sup> قالها في الاسكندرية عندما تعذر عليه الحج سنة ٦٣٩ ، والتي تشوق فيها الى قبر الرسول ومدحه . وهي كسائر شعره لا تعكس شعورا حارا .
- ٢ - اننا في كل ما وصل اليها من تصانيفه لانلمس في كتابته تدينا بارزا وكثير من الناس يمكن ان ينعكس شعورهم الديني فيما يكتبون ولو كان ما يكتبونه تاريخا او ادبا او شعرا .
- ٣ - نجد في شعره الكثير من الخمرات ووصف مجالس المنادمة . . وقد لا يكون ذلك دليلا ، فالشعر

---

(١) - ابن فرحون ، الديباج المذهب ، ص ٢٠٨ ، ط القاهرة ١٩٣١

الخمري تقليد فنى قديم فى الشعر ~~العربى~~ <sup>الغلمانى</sup> العربى • ولكننا نجد مع ذلك فى شعره ~~غزل~~ <sup>غزل غلمانى</sup> بوفرة • والغزل الغلمانى ليس بالتقليد الفنى وان كان شائعا فى عصره • •  
ومعنى هذا الشعر قاله ابن سعيد فى مناسبات معينة قد تبعده عن جو التقليد الفنى "المجرد" • من ذلك ابياته التى قالها عندما دخل الى حمام بتونس مع صديقه التيفاشى بعد ان رأى فى الحمام غلمانا فى الغاية "من نعومة الابدان" (١) والواقع ان كتب ابن سعيد - من ناحية اخرى - تتضح باجواء الظاهرة الغلمانية السائدة فى عصره • فهو يروى لنا شعرا وفيرا فى ذلك • وهو لا يقتصر على الشعر بل يروى لنا حكايات واخبارا عن علاقات واضحة بين شخصيات معروفة وبين غلمان كلفوا بهم • • وهذه الحكايات والاخبار لا تنحصر فى "اطار شعري" حتى يمكن النظر اليها خلال الاطر والتقاليد الراسخة ولكنها تنحصر فى حكايات واخبار تروى للتاريخ والحقيقة فحسب • •  
ويبدو ان ابن سعيد كلف بهذا النوع من الروايات والاخبار فهو يوردها بكثرة وهو يتفنن فى ايرادها • • ولانشك فى ان شاهدتها عن كتب من خلال مرافقته لابن سهل الاسرائيلى - علم الشعر الغلمانى بعد ابى نواس • •

ومعنى على المرء ان يربط هذه الناحية دون ان يساوره الظن حول علاقة ابن سعيد بهذه الظاهرة عموما ودون ان يميل الى شئ من الاعتقاد فى ان ابن سعيد قد اصابه رذاذ من هذه الظاهرة بشكل او بآخر • • •  
وابن سعيد - من ناحية اخرى - لم يتزوج (٢) وهو يعلل ذلك <sup>في</sup> قصيدة حول هذا الموضوع • فهو رجل رحالة وصاحب افكار "لا يريد تحمل مسؤولية الزوجة ويريد ان يتمتع بجلساته ولهوه دون تنغيص" (٣) ولا يبق سعيد قصيدة اخرى <sup>في</sup> افتضاض بكر (٤) ولا نعلم ان كان ذلك مجرد تفنن فى النظم <sup>في</sup> انما اكثر من تفنن • • ولنختم حديثنا هذا بعبارة ابن سعيد المعهودة <sup>في</sup> مثل هذه الاخبار : الله اعلم بالسرائر !

(١) - النفج ٥٧/٣

(٢) - على الاقل حتى وقت القصيدة المذكورة

(٣) - النفج ٣٥/٣ - ٣٦

(٤) - المصدر السابق ٣٢/٣ - ٣٣

وعلى اى حال فاذا نحن نظرنا الى الموضوع من خلال فهمنا لنفسية ابن سعيد القائمة على التوسط والاعتدال امكنا ان نقول انه لاينتظر منه ان يكون متزمتا فى دينه ولا مسرفا فى لهوه وانه على الأرجح استطاع ان يقيم توازنا بين الطرفين . وربما اكدت الحكاية التالية هذا الرأى : \* زار ( ابن سعيد وصديقه ابن العديم ) المشاهد الخارجية<sup>هـ</sup> عن دمشق وفى خدمتهم الممالك بمناطق الذهب كالولدان فى الجنان فادركته خشية وخرج عن الدنيا ، والزمه ذلك وهاده عليه ، ومضى الى حلب فبلغه انه عاد الى ماكان عليه من اتخاذ الممالك وذلك شئ لا بد منه لمن يخدم السلطان فكتب اليه :

شوقك للغصن والكثيب  
فارجع الى الله من قريب

يا ابن سعيد اليك شوقى  
نقضت بعد البعاد عهدى  
فأجابه :

فى الشوق للغصن والكثيب  
من مقلّة الشادن الربيب  
لكننى عدت من قريب ( ١ )

يا ابن الكمال اطرح عتابا  
واسأل الى الله ان يعافى  
تبناكلانا ، وسوف ننسى

فابن سعيد لايسرف فى لهوه ويتذكر الآخرة . . ولكنه لا يستمر فى زهده ~~وتنفضه~~ بل هو بين بين فى توسط واعتدال .

٥ - جلده وصبره :

وهى مزينة لاحتجاج الى دلائل خاصة ، بعد ان يقرأ المرء سيرة ابن سعيد ويتأمل قائمة مصنغاته العديدة الضخمة .

وابن سعيد صبور فى بحثه عن مصادره ومعلوماته ، وفى تبويب مادته وترتيبها وفى تمسكه الشديد بهدفه الاول الذى وضعه له ابوه رغم كل المصاعب التى اعترضته ولا تغير رأينا فى صبره وجلده ، مقالته للملك الناصر بانه يضجر ويتضايق عند ما يعمل على تنصيف مؤلفاته الكبيرة الشاملة ( ٢ ) فهذا الضجر قد يعود الى عدم القدرة على تحقيق كل ما يصبوا اليه

( ١ ) - القدح : ٦ - ٧

٢ - المقتطف : ورقة ٣

من كمال في التصنيف وليس من العمل في حد ذاته اذ لو كان ضجرا من الجهد التصنيفي  
لصرفه عن القيام بمهامه العلمية التي تُدب لها .  
وما كان لابن سعيد ان يبدى هذا الجدل في التصنيف لو لم يكن متمعا بطبعه  
الهادئ وعاطفته المتزنة . فالصبر والجلد ليسا من صفات الرجل الذي يكون عرضة  
لسرعة الانفعال .

#### ٦ - نزعة الاندلسية المغربية :

فيما يختص بهذه النزعة التي عرفت عن الاندلسيين والمغاربة ، نرى ان ابن سعيد  
يعتز بوطنه اعتزازا كبيرا ولكنه اعتزاز قائم على مراعاة الحقيقة لاعلى الجدل الخطابى  
والمغالطة . فهذا الاعتزاز يريد اجلاء الحقيقة كاملة عن بلاد الاندلس حتى ينصفها بعدئذ  
كل محب للحقيقة ، وهو في الوقت ذاته لا يؤدى الى ظلم بلاد المشرق والتقليل من شأنها .  
والمبدأ العام عند ابن سعيد عدم تفضيل عصر على عصر او قطر على قطر فتراه يكرر : " ان  
المحاسن قسما لله على البلاد والعباد . . . . . والنصف من لم يخص بالفضيلة عصرا من الاعصار  
ولامصرا من الامصار " (١) الا ان هذا المبدأ لا يمنعه من التصدى للمتحيزين بل انه يوجب  
عليه ان يفعل ذلك خاصة اذا مس هذا التحيز بلاد واقليم ففى الشام وجدان المشاركة يقللون  
من شأن المغرب ويظلمونه من كل جهة فقرر ان يؤلف كتابا في ذلك لاعادة الامور الى  
نصابها يحدثنا عن ذلك بقوله : " والمناظرة بين المشرق والمغرب تحتل كتابا وقد صفت  
صفته بالشام لضرورة دعت الى ذلك من شدة اتخاذ المشاركة على المغاربة من كل جهة  
حتى قال ابن دحية <sup>ع</sup> خطبة كتابه في اخبار المغرب يخاطبهم :

وان كنتم في العدد اكثر مفعرا فلا تظلمونا في القليل الذي لنا

وسميت الكتاب الذي وضعته في ذلك الشهب الثاقبة في الانصاف بين المشاركة

والمغاربة " (٢) .

(١) - عنوان المرقصات ٣

(٢) - مسالك الابصار : ٣ ورقة ٧٦



وقد اثار هذا الكتاب ~~المعروف~~ ابن فضل الله العمري صاحب مسالك الابصار الذي اخذ يرد عليه في مصنفه محاولا التقليل من شأن المغرب . وما وصلنا من كتاب " الشهب الثاقبة " هو الفقرات التي اختارها العمري للرد عليه وهي فقرات مقتضبة اقتصها العمري من سياقها لكي يتخذها وسيلة للرد والهجوم . كما ان العمري في النفع اورد فقرات من مقدمة ابن سعيد لكتاب " المغرب " تتضمن جملا من " الشهب الثاقبة " ( ١ )

ونرى ابن سعيد في هذا الكتاب موضوعيا يعتمد على المقارنات الجغرافية والتاريخية والاجتماعية ويتجنب اطلاق الاحكام الذاتية <sup>التي</sup> لا تستند الى اساس وهو لا <sup>يردد</sup> يستند في ذكر فضائل المشرق وفي تفضيله على المغرب في بعض الامور . فمن ذلك اشارته الى ان العمران متصل في الاراضي المشرقية من الشام الى العراق الى بلاد العجم بعكس المغرب الذي يغطي مساحته البحر " لهذا كان المشرق اعظم عمارة من المغرب واكثر مدنا . . فوجب التسليم من المغاربة في هذه المزية " ( ٢ ) وهو عندما يقارن بين الاوضاع السياسية في المشرق والاندلس يرى ان الانظمة المالكية اكثر احتراماً وثباتاً في المشرق بينما الحكم في الاندلس يعتمد على ثورات قواد الجند مثل ابن الاحمر وابن هود ( والمقارنة التي في ذهن ابن سعيد هي طبعاً بين استقرار مصر والشام في ظل الايوبيين وتمزق الاندلس بين زعمائها قبل سقوط قواعدها الكبرى ) ويشير الى ان سرعة تغير الحكم تؤدي الى اضعاف الجهد وتغلب العدو ويخلص من ذلك بقوله : " واهل المشرق اصوب رأياً منهم ( المغاربة ) في مراعاة نظام الملك ، والمحافظة على نصابه ، لكلا يدخل الخلل الذي يقضى باختلال القواعد وفساد التربية وحل الاوضاع ( ٣ ) وابن سعيد منصف للمشرق حتى في مفاخره التي لا تعتمد على حقائق مسلم بها ، فنراه يشير الى تلك المفاخر ويتحفظ ازائها . فمن ذلك : " ذكر ابن سعيد ان بعض الحكماء شبه الارض بجسد آدمي وعدد اعضاءه ، وجعل الصين والهند رأسه والمغرب رجله . . وهذا التشبيه للمشرق غاية الفخر ، ان سلمه اليهم المغاربة ( ٤ ) فهو هنا يذكر ما قاله الحكماء ويرى فيه فخراً للمشرق ولكن لأن التشبيه غير قائم على حقيقة بيّنة وضع ابن سعيد تحفظه .

( ١ ) - النفع ١ / ١٩٦

( ٢ ) - مسالك الابصار ٣ ورقة ٧٦

( ٣ ) - النفع ١ / ٢٠٠ - ٢٠١

( ٤ ) - مسالك الابصار ٣ ورقة ٧٨

وبالمقابل نراه يدافع عن الاندلس معتمدا على المنهج الموضوعى ذاته . فما اثاره من <sup>لحج</sup> المشاركة قول الجغرافى ابن حوقل : " ومن لعجب ما فى هذه الجزيرة بقاؤها على من هي <sup>في</sup> يده مع صفراحلام اهلها ، وضعة نفوسهم ، ونقص عقولهم ، ومعدهم من البأس والشجاعة . . . " ويعلق ابن سعيد على ذلك بقوله : " لم أريداً من اثبات هذا الفصل وان كان على اهل بلدى فيه الظلم والتعصب فلا يخفى ، ولسان الحال فى الرد انطق من لسان البلاغة ، وليت شعري ان <sup>سلب</sup> اهل الجزيرة ( الاندلس ) <sup>المعقول</sup> والآراء والهمم والشجاعة فمن الذين دبروها بأرائهم وعقولهم مع مراصدة اعدائها المجاورين لها من خمسمائة سنة ونيف ؟ وانى لعجب منه ان كان ( ابن حوقل ) <sup>في</sup> زمان قد دلفت فيه عباد الصليب الى الشام . . حتى انهم دخلوا مدينة حلب . . فيسبون ويأسرون فلا تجتمع هم الملوك المجاورة على حسم الداء فى ذلك . . . وقد كانت جزيرة الاندلس فى ذلك الزمان بالضد من البلاد التى ترك وراء ظهره ، وذلك موجود فى تاريخ ابن حيان وغيره " ( ١ ) .

فابن سعيد هنا موضوعى الى حد بعيد فهو يورد قول ابن حوقل <sup>حرفياً</sup> رغم ما فيه من ظلم لبلاده ، ثم يلجأ الى واقع الحال وليس <sup>ال</sup> تنميق البلاغة ويرد عليه مستنداً الى الحقيقة التاريخية <sup>في</sup> صمود الاندلسيين عدة قرون ، ومذكره انه فى الوقت الذى كانت فيه ديار المشرق عرضة للغزو وملوكها فى تفرق وغفلة عنها كانت الاندلس صامدة متحدة ، وابن سعيد يحصر بحكم نزعتيه العلمية الامينة على ذكر مصدر يسند اليه اقواله فيشير الى تاريخ ابن حيان . وهو - مع تمسكه بالموضوعية - يجد فى بلاده امورا كثيرة تستحق الفخر . فمن حيث جمال الطبيعة وحسن المباني يحدثنا قائلاً : " منذ خرجت من جزيرة الاندلس وطففت <sup>في</sup> بر العدو . . ثم افريقية . . . ثم دخلت الديار المصرية . . . ثم دخلت الشام - لم ار ما يشبه رونق الاندلس فى مياهها واشجارها الامدينة فاس ومدينة دمشق الشام ، وفى حماة مسحة اندلسية ولم ار ما يشبهها فى حسن المباني والتشيد والتصنيع الا ما شيد بمراكش فى دولة بنى عبد المؤمن وبعض ماكن فى تونس " ( ٢ )

( ١ ) - النسخ ١ / ١٩٦ - ١٩٧

( ٢ ) - المصدر السابق ١ / ١٩٤

ويشير معتزاً الى ثورة الاندلسيين ضد الظلم والانحراف عن الدين : " ٠٠٠ وقد يلج السلطان في شئ من ذلك ( تعطيل الحدود ) ولا يكره ، فيدخلون عليه قصره المشيد ولا يعبؤون بخيله ورجله حتى يخرجوه من بلدهم ، وهذا كثير في اخبارهم واما الرجم بالحجر للقضاة والولاة للأعمال اذا لم يعدلوا فكل يوم ٠٠ ( ١ )

ثم يتحدث عن اعتزاز الاندلسيين بشرف العمل : " واما طريقة الفقهاء على مذهب اهل المشرق في الدروشة التي تكسل عن الكد وتخرج الجحوه للطلب في الاسواق فستقبحه عندهم الى النهاية ، واذا رأوا شخصاً قادراً على الخدمة يطلب سبوه واهانوه " ( ٢ ) فهو يفخر بحب اهل بلده للعمل وبمذهبهم للخمول الجالس للضعفة غامراً من قضاة المشاركة .

ويقول : " واهل الاندلس اشد خلق الله اعتناءً بنظافة ما يلبسون وما يفرشون ٠٠٠ " ثم يتحدث عن كرم الاندلسيين معللاً سبب نسبة البخل اليهم مشيراً الى ان لديهم من المروءات ما يدهش حاتم الطائي نفسه وهو فخر العرب في الكرم ، يقول : وهم اهل احتياط وتدبير في المعاش وحفظ لما في <sup>اليد</sup> التيسير خوف ذل السؤال ، فلذلك قد ينسبون للبخل ، ولهم مروءات على عادة بلادهم ، لو فطن لها حاتم لفضل دقائقها على عظامه ٠٠٠ ( ٢ ) .

( ١ ) - النسخ ٢٠٤/٣ - ٢٠٥

( ٢ ) - المصدر السابق ٢٠٥/٣

( ٣ ) - المصدر السابق ٢٠٨/١

فهو لا يخجل من ذكر نسبة البخل اليهم ، وان كان يعلى ذلك  
بما استدعى الفخر من تدبير واحتياط ، ثم يرفع الكرم الاندلسي  
الى مصاف الكرم الحاتمى الذى سمى المشارقة يتشددون  
بـه دون شك .

ومن ناحية اخرى نجده معجبا بشعر الاندلس لا يقدم عليه  
شعر المشارقة لافى القديم ، ولا فى الحديث ، ويرى ان الشعر  
المغربى حق له ان يعلو فوق النجوم لما يتضمنه من معان  
رقاق ودقائق ( ١ ) ونراه فى مجلس الملك الناصر يسمع  
الملك يعلى على شعره " الذميتيات " العراقى المشرقى بقوله :

" هذا طراز لا تحسنه المغاربة " فيجيبه ابن سعيد على الفور  
شعرا منه بشخصيته الاندلسية المغربية : " ياخوند ( يامولاي )  
كما ان الموشحات والازجال طراز لا تحسنه المشارقة ، والمحاسن قد قسمها  
الله تعالى على البلاد والعباد " ( ٢ ) جواب صريح يقوله ابن  
سعيد لملك فى مجلسه بالرغم مما عرف عنه من مجاملة خصوصا  
فى مخاطبته للملوك والامراء . . . . وما ذلك الا رغبة منه فى ان لا ينكر  
فضل بلاده ويخفى .

ونلاحظ ان تفضيله لاقطار المشرق بعضها على بعض خاضع  
لنوعته المغربية ، فلقد اعجب ابن سعيد بالشام اشد اعجاب - شأنه شأن  
الاندلسيين رضاع المجد الاموى - وتجسد هذا الاعجاب فى شعره وفى  
كتابه فى حين انه لا يعجب بمصر من نواح عمرانية وشرية .

---

( ١ ) - انظر الفصل الخاص بنقد من هذا البحث

( ٢ ) - المقتطف ٣٩

والواقع ان اعجابه بالشام ما هو الا تعبير عن نزعتة تلك كما ذكرت  
فجمع هي اشبيلية ودمشق هي غرناطة : ~~الكنيسة~~ المدن متشابهة والتقاليد  
مقاربة والامجاد الاموية مشتركة . ولكن كون دمشق هي الاصل وغرناطة هي  
الفرع لا يمنع ابن سعيد من تفضيل مسقط رأسه الاندلسي على دمشق  
رغم اعجابه الشديد بالاخيرة ، اذ نراه يقول : " انها ( اي  
غرناطة ) وان سميت دمشق الاندلس احسن من دمشق لان مدينتها  
مطلية على بسطها ( ١ ) ٠٠٠٠

وهكذا نجد ابن سعيد يفتخر باندلسه في توسط واعتدال - كما يفعل  
في كافة مناحي حياته - فيعترف بما فيها من نقائص ويشير الى  
ما فيها من فضائل ويفعل الشيء ذاته مع المشرق . . . الا ان شعوره الواضح  
القوى في هذه الناحية ان الاندلس تقف في شعرها وتاريخها  
ومحاسن اهلها وعمرانها شامخة متعالية في مصاف ارقى اقطار  
المشرق وان لم تفقها في بعض الامور .

#### ٧ - هل من نزعة مذهبية خاصة ؟

لاحظنا ان ابن سعيد كان مالكي المذهب - كغالبية اهل الاندلس -  
كما اشار الى ذلك ابن فرحون في ديباجته المذهب ، الذي هو  
من المصادر الموثوقة في تاريخ المذهب المالكي في المغرب . وليس ما يدعو  
الى التشكيك في انتماؤه للمالكية اصلا . الا ان هنالك بعض القضايا التي  
قد يستدل منها على احتمال وجود ميل شيعي اوجب خاص للعلويين  
في نفسه :

اولا - قضية انتسابه الى عمار بن ياسر الذي كان من كبار المتشيعين لعلى ، والذي قتل على يد بنى امية تحت لوائه وقد سحبت هذه القضية ظلالها الدموية على تاريخ الاسرة في الاندلس اذ وقف عبدالله بن سعد بن عمار ، اول من دخل منهم الاندلس ، ضد الداخيل الاموى رغم ان عبدالله كان قائدا جند دمشق الذي عرف بولائه الشديد للامويين . وادى هذا الموقف الى قتل عبدالله على يد الداخل " لما بين بنى عمار وبنى امية من الثأر " ( ١ ) ،

ثانيا - الف ابن سعيد كتابا خاصا باسم " كنوز المطالب في آل ابي طالب " وهذا الكتاب لم يصل الينا ولكن لا شبهة في وجوده فقد رآه رحالة مغربي في القرن الثامن هو التجاني ، ونقل منه ترجمة احد الطالبيين وهو الشريف محمد الحسينى التاجورى .

ولا يمكن الحكم على الغرض من الكتاب على الطابع المميز له الا بعد الاطلاع عليه . الا ان الملاحظ ان ابن سعيد في ترجمة الطالبى المذكور اظهر مكانته وكرمه وأشار الى بعض كراماته وذكر انه التقى به شخصيا وتحدث معه ثم اورد له ابياتا من ضمنها :

السنا بنى بنت النبى وهم	وفى الذروة العليا من آل غالب
ليوث ولكن لاتصاد بحيلة	سيوف ولكن لاتدين لضا رب ( ٢ )

( ١ ) - النسخ ١٦/٣

( ٢ ) - رحلة التجاني ص ٣٠٨ - ٢٠٩

والذى يلغى النظر فى امر هذا الكتاب انه خارج عن نمط  
مولفات ابن سعيّد عامّة فهو ليس كتابا فى الشعر او الادب ..  
وليس بكتاب جغرافى فاعساه ان يكون ؟

اهو كتاب فى شعر الطالبين وغرضه ادبى خالص ، ام  
ان له غرضا يتعلق بميل مذهبى خاص ؟ ان عنوانه  
على اى حال لا يشير الى الاحتمال الاول اذ يبدو ان  
كتاب يترجم للطالبين ويبين اخلاقهم وذكر اخبارهم  
وقد يورد بعض اشعارهم ان وجدت كما فى المثال  
السابق .

ما عدا ذلك لا توجد اشارات اخرى يمكن ان تلقى  
الضوء على هذه الناحية ، وهناك اشارة تنفى وجود نزعة تشيع  
قوية عنده على الاقل : فعندما ترجم لشميم الحلوى ،  
وهو من " اعلام فقهاء الشيعة بالحلة واهل الفتيا والاقراء عندهم "  
لم يظهر من حديثه عنه انه يظنهم ميلا وتقديرا ازاياه بل على  
العكس من ذلك نراه يقول عنه " جملة امر هذا الرجل ان ذكره  
فوق شعره فعلى كثرته لم اقف له على ما فيه اغراب ولا ابداع " ،  
ثم يجارى يا قوتا الحموى فى وصفه له بانه " كثير الدعاوى ،  
خارج عن نمط الانصاف والاعتراف " ثم يورد بعض الحكايات المضحكة  
عنه \* ( ١ ) .

وايا كان الامر ، فليس بمستبعد ان يكون ابن سعيد حبا  
 للعلويين وفاء لذكرى جده الاكبر عمار ، الا ان نفسية ابن  
 سعيد ليس من طبعها ان تتطرق <sup>لها</sup> ميوها وتغصب  
 وان كان ثمة ميل فهو ميل معتدل رزين كيقول ابي الحسن  
 الاخرى . وحتى لو وجد ميل كهذا فليس من ادنى احتمال  
 في <sup>احكامه</sup> لمثلية تأثر مصنفاته الادبية به اذ لاجال من حيث  
 مادة تلك المصنفات للتأثر بميل كهذا . كما ان الموضوعية  
 التي عرف بها ليس من شأنها ان تسع بذلك ، ثم انه لا توجد  
 اية اشارات في تلك المصنفات توحى بشئ من هذا في  
 كثير او قليل .

x x x

تلك هي شخصية ابن سعيد في عوامل تكوينها وفي مظاهرها  
 ومزاياها وميولها . وقد اتضح كيف ان الاعتدال والاتزان وهدوء الطبع  
 كان خطا واضحا في كل ماتم التعرض له من مظاهر شخصيته . وعلى العموم فان هذا  
 التركيب النفسى لم يكشف حدة في الذهن او خضا في الخيال او اتقادا  
 في الشعور وهي خصائص ضرورية - منفردة او مجتمعة - لكل عمل خلاق عظيم .  
 عليه فليس من المتوقع من ابن سعيد - على ضوء هذا التحليل لشخصيته - ان  
 يأتى بنتاج يتجاوز حد " التوسط " على صعيد الفكر او الادب او  
 التصنيف .



## الفصل الثالث علمه ومصنفاته ومنهجه

- ١ - حدود علمه واتجاهاته
- ٢ - اساتذته
- ٣ - مؤلفاته
- ٤ - منهجه في التأليف : طابعه وخصائصه
- ٥ - أهمية مؤلفاته ومكانته العلمية

( ١ ) حدود علمه واتجاهاته

سأل ابن سعيد يوما استاذہ الاعلم البطليوسى النصيحة العلمية ، فاجابه : " ان كان غرضك اقراء الادب والاشتهار بكتبه فعليك بـ **باركان** الادب الاربعة " **البيان** " للجاحظ ، و " **الكامل** " للبرد ، و " **الامالى** " للقالى و " **الزهر** " **للحصي** . وان كان غرضك ان تكون ادبيا محاضرا بملح الآداب فعليك من النشر والنظم والحكاية بما قصر مداه وراق لفظه واغرب معناه " (١) . ولا ندرى بم اجاب ابن سعيد استاذہ فى ذلك الوقت ، ولكنه يذكر فى مناسبات اخرى انه قرا على استاذہ الشلهبى النحوى كتاب " **الكامل** " للبرد ، و " **ديوان ابى الطيب** " ، كما قرا على ابى بكر بن هشام كتاب " **الذخيرة** " (٢) .

ويبدو انه ليس ثمة فصل تام بين الاختيار بين اللذين ذكرهما له استاذہ الاعلم ، فالغرض الثانى لا يتحقق دون اهتمام بالغرض الاول واستفادة من كتب الاصول المذكورة ، كما ان الذى يريد التخصص فى اقراء الادب يحتاج الى المام بشيىء مجمل من النشر والنظم والحكاية قبل ان يتمكن من التركيز والتعمق . الا ان الفارق - طبعا - يظل متعلقا بالميل الشخصى : فهل يركز الدارس اهتمامه على الناحية النحوية واللغوية والبلاغية ليتوسع فيها ثم يدرسها للطلبة ، ام يلتفت الى <sup>ناحية</sup> **الناحية** الرواية الشعرية الجميلة ، والخبر التاريخى الطريف ، والعبارة الادبية الانيقة ، والحكاية

---

( ١ ) المقتطف ، ورقة ٨٠ ( نسخة مصورة )

( ٢ ) القدح : ١٥٢

( ٣ ) المقتطف ، ورقة ٨٠

المشوقة • وفيما يختص بابن سعيد ، ليس ثمة من شك - كما سنرى بعد قليل - انه اطلع على كثير من الاصول الادبية والتفت الى اللغة والنحو غير ان صفة "الاديب المحاضر بملح الآداب" تغلبت في خلق شخصيته العلمية ولورتها على صفة الشيخ النحوى المقرئ لكتب الادب "هـ" اذ لا توجد اية اشارة تدل على ان ابن سعيـد كان يقرئ كتب الادب او انه فكر بذلك • كما انه لم يؤلف - طبقا لجميع مصادر التوفيرة - اى كتاب لغوى او نحوى او بلاغى اوله صلة بشرح الشعر والبحث فى اصوله ٠٠٠ فى حين تجده فى كل مجلس يحضره "اديبا محاضرا" بالقطع الشعرية وال اخبار والحكايات ، حتى اثناء اجتماعه بالملوك • فها هو يحدثنا عن لقاء له مع السلطان يوسف الناصر الايوسى صاحب حلب: "فجعلت احاضر بمجلسه بما انتقيته مما جمعت من ذلك ، وهو مع الساعات يسطنى بارتياحه ٠٠٠" (١) . وهو <sup>عندنا</sup> يجتمع بالعلماء لا يسألهم عن احجية نحوية او لغوية بل يهتم برواية شعرية غزلية او بحكاية طريفة ، فتراه عندما يجتمع - مع والده - بكتاب ووزير من اشبيلية كأبى بكر بن البناء يطلب منه ان ينشده شيئا من غزله ، حتى ان والده يؤنبه على ذلك (٢) وفى مناسبة اخرى تتيج له الفرصة حضور مجلس عالم مرمية عزيز بن خطاب ، فلا تبقى من رغبة <sup>في</sup> نفسه بعد المقابلـة الا طلبا لاستماع الى شيء من شعره وقد حالت هيئة المجلس دونه ودون التصريح بذلك للطلب .

{ ١ } المختطف : ٢-١  
 { ٢ } القدر ١١٩  
 { ٣ } المصدر السابق : ١٤٩

وملاحظ ان علاقاته بجميع من ترجم لهم فى كتابه " القدح " تدور  
حول مثل تلك الجلسات الادبية التى <sup>تروى</sup> فيها الاشعار والحكايات  
والروايات الممتعة ، والتى هى اقرب الى جلسات الاصدقاء  
والندما منها الى مجالس الجدل والاقراء والشرح .  
وهكذا نجد ان صفة الاديب المحاضر بطلع الآداب تغلب على  
ابن سعيد حتى انه فى تصنيفه الادبيين - التاريخيين - الجغرافيين الكبارين  
"المغرب" و "المشرق" كان يشعر انه يقوم بمهمة الاديب المجالس  
والندم المحاضر . فقد سأل له السلطان الناصر يوما عن  
منهجه فى الكتابين ، فذكر له المنهج ثم اشار الى الغرض  
النهائى منه قائلا : أنه متى ذكر بلد ابتدئ فيه بالحلى  
البلايدى مما هو داخل فى علم الجغرافيا ، فترسم صورته  
ثم يذكر حيوانه ومعينه وما يتركب من ذلك الى ما يتعلق  
بوصف الانهار والمنتزهات مما تتحلى به المحاضرة . ثم يعقب ذلك بالحلى العبادية  
فيذكر اول من حل بذلك البلد ، ويؤتى بتاريخه على النسق الى الوقت  
الذى صنف فيه الكتاب . وذكر من ارباب رياسته السيفية والقلمية ومن  
انضاف الى ذلك من الاعلام فى فنون الجسد والهزل ما يمتع الجليس  
بنكت النثر والنظم والحكايات ويمر المجلس النبيل " (! ) وليس لنا ان نستنتج ان اسرة  
بنى سعيد ~~تضافت~~ تضافرت على تأليف كتاب " المغرب " مدة قرن ونصف لمجرد  
" امتاع الجليس " ، فثمة اغراض ابعد من ذلك ، ولكن عبارة ابن سعيد هنا تكشف  
ميله الشخصى ان يرى ان تلك المعلومات من جغرافية وتاريخية  
وادبية تهدف الى تحلية المحاضرة وامتاع الجليس واحياء الجلسة . والواقع  
ان هذه العبارة بالذات تتضمن البذور التكوينية لاتجاهات علم ابن سعيد

كله . فهو قد اخذ على عاتقه — بتوجيه والده — اكمال كتابي " المغرب " و " المشرق " حسب الخطة التي اشكار اليها في العبارة السابقة . وهذه الخطة تتطلب منه الماما بعلم ثلاثة : الجغرافيا والتاريخ والادب . وفي هذه المجارى الثلاثة انصبت جهود ابن سعيد ~~الاصح~~ التصنيفية على درجات متفاوتة من التركيز والتوسع والاهتمام ، وضمن ميل ابن سعيد الادبي الذي طبع — جهود به بالصيغة الادبية بصفة عامة . وهكذا فانه لم يدع ميله لدور الاديب المهتم بطلع الآداب يقف به عند حد حفظ اخبار وحكايات من كتب الادب المعروفة ، بل انه توسع في مطالعاته ونوع فيها وبحث بنفسه عن كثير من الحقائق الجغرافية والتاريخية والعلمية من خلال مشاهداته واتصالاته حتى استقامت له شخصيته العلمية المتكاملة ، وحتى غدا مرجعا يستند اليه كبار المصنفين من بعده .

والواقع انه ليس من المبالغة ان يقال ان كتاب " المغرب " كان مدرسة ابن سعيد الكبرى ، وان هذا الكتاب اساسا هو الذي حدد له حدود علمه واتجاهاته . يقول ابن سعيد محمدا علاقته بهذا الكتاب مبينا دوره فيه وفي توأمه كتاب " المشرق " : " كان والدي قد جمع المغرب في حلف المغرب ، والمشرق في حلف المشرق . وجل جهدي في تكميل هذين الكتابين على ما رسم لى " (١) اما ما رسمه له والده فتبين من حديثه السابق للملك الناصر ، هذا الحديث الذي اتضح منه اتجاه ابن سعيد نحو الجغرافية والتاريخ باعتبارهما رافدين يصبان في مجرى اهتمامه الادبي الاوسع .

وعندما يقال كتاب " المغرب " ، فان التراث العلمى لا مرة بنى سعيد معنى بذلك . واذا كان ابن سعيد قد اتم كتاب المغرب

---

(١) المقتطف ، ورقة : ١ - ٢

وكان خاتمة مؤلفاته ، فانه ايضا كان الخاتمة الطبيعية والمصنعة الجامع  
لذلك التراث العلمى الخصب المتنوع . فالتامل لتراث الاسرة يرى ان تلك الاتجاهات  
الثلاثة - من ادب وتاريخ وجغرافية - كانت تبرز منفردة بين حين وآخر ؛  
فالحجارى ، كاتب عبد الملك بن سعيد ، وضع جذور الاهتمام بالجغرافيا  
بطريقة تاليفه لكتاب المسهب ، والشاعر ابو جعفر بن سعيد ،  
عم والد ابن سعيد ، مثل الاتجاه الادبى الخالص وحاول ان يطبع  
كتاب "المغرب" بطابعه . ثم جاء موسى ، والد ابن سعيد نفسه ، فمثل  
الاتجاه التاريخى - العلمى حتى ان ولده وصفه - كما تقدم - بانه  
اعلم بنى سعيد بالتاريخ . وعندما جاء ابن سعيد وضاطت به الظروف اخراج  
الكتاب بصيغته النهائية جمع بين الاتجاهات الثلاثة فى شخصيته العلمية  
الخصبة .

ولقد تنبه ابن سعيد - بفضل ارشاد والده - الى مهمته تلك  
وهو لما يتجاوز العشرين من عمره بعد ، عندما كان يصحب والده لزيارة الخزائن  
العلمية ومقابلة اهل الادب والعلم . ولذلك استطاع ان يوجه جهوده منذ الصغر  
نحو ذلك الهدف الذى حددته خطته كتاب المغرب فجاء كل نشاطه  
العلمى - على تنوعه وتعددده - منسجما مع تلك الخطة مخصبا لها  
ومغنيا . . حتى انه ليس من المبالغة ان يقال ان مؤلفاته الاخرى -  
على تنوعها وتعدددها ايضا - ما هى الا فروع لتلك الموسوعة الكبيرة  
التي يمثلها "المغرب" و"المشرق" .  
ويمكن رصد مظاهر تعلمه وحثه عن مادته العلمية ضمن  
المراحل والحالات التالية :

- ١ - حضوره الدؤوب لمجالس الأقرأ في مساجد اشبيلية ومعاهدها تحت إشراف كبار الأساتذة كالنحوي الكبير الشلموني والدباج والاعلم البطليوسي ( وسأحدث عنهم وعن غيرهم من أساتذته بعد قليل ) • وكان يدام على ذلك عندما كان بين سن الخامسة عشرة والعشرين •
- ٢ - مرافقته المستمرة لوالده في جلساتها الخاصة والعامة منذ بلغ العلم • ( فقد رافق والده - كما تقدم - في رحلة إلى مراكش ضمن حاشية الخليفة الموحدي العادل ، وهو حدث لم يتجاوز الرابعة عشرة ) • وقد تحدثت عن علاقته بوالده عند الحديث عن شخصيته ، كما سأوسع في البحث عن علاقاتها العلمية عندما أ تحدث عن والده باعتبارها استاذاً من أساتذته •
- ٣ - جلساته مع أصدقائه التي لا تخلو من فوائد أدبية وخصوصاً فيما يتعلق بالرواية الشعرية • وقد استمرت هذه الجلسات منذ أن كان شاباً يافعاً يلتقي بابن سهل والصابوني في اشبيلية حتى غدا رجلاً وكهلاً يجتمع بكبار رجالات العالم الإسلامي في القاهرة ودمشق وحلب وبغداد • ويندر أن يذكر ابن سعيد جلسة من هذه الجلسات دون أن يشفع ذكره لها بفائدة أدبية شعرية ، <sup>حتى</sup> أن بعض هذه الجلسات يسهم <sup>في</sup> تفتيح القرائح لإنتاج شعر جديد • فيها هو يجتمع <sup>باب</sup> بالعباس أحمد بن بلال في الجزيرة الخضراء ويمر عليهما " يوم انس سمح به الزمان فكملة " • فيتبادلان القصائد حول ذكره ووصف ملذاته ( ١ ) وفي تونس يدعو أبو العباس الغساني كاتب الأمانة الحفصية ، إلى جلسة انس في أحد بساتينه فيشاركان مع ابن يامن الشاطبي في نظم قصيدة مشتركة في وصف الجلسة ( ٢ ) ثم يعيدون الكرة ثانية ويخرجون بنتاج جديد ( ٣ ) •

( ١ ) - المغرب ١ / ٣٢٦ ، وكذلك القدح : ٨٦

( ٢ ) - المقتطف ، ورقة ٥٦

( ٣ ) - المصدر السابق ورقة ٥٤

وفي القاهرة يجتمع بشعراء العصر في مصر من امثال البها زهير وابى الحسين  
الجزار وابن ابى الاصبع (١) فتكون نتيجة تلك اللقاءات الجانب الشعري الهام من  
القسم المصري من كتاب "المغرب" . وفي حلب وبغداد والبصرة يحظى ابن سعيد بمثل  
تلك الجلسات الشخصية المثمرة على الصعيد العلمي شعرا ورواية وتاريخا (٢) . ولعل افضل  
ما افادت به تلك الجلسات الابحاث العلمية ذلك العدد الجيد من القصائد الذي سجله  
ابن سعيد عن ابن سهل <sup>الاسدي</sup> احد كبار شعراء الاندلس قاطبة ، وتلك الاحاديث  
والحكايات عنه التي تمثل مادة صالحة لدراسة نفسيته .

٤ - والى جانب الجلسات الشخصية التي غلب عليها طابع اللهو ، استفاد ابن سعيد  
من اجتماعاته بالملوك والاعيان والامراء لتحقيق غرضه العلمي وكان الذي يهيمه من تلك  
الاجتماعات ان يتمكن من الاطلاع على الخزائن العلمية والمكتبات النادرة التي تقع  
في حوزة اولئك . ففي مرسية يداوم على حضور مجلس عزيز بن خطاب حتى يصير  
" فيمن انتفع بكتبه " (٣) وفي القاهرة يجتمع بالبها زهير اجتماع لهو ومواساة  
ولا يكفي بذلك بل يواعده على زيارته في بيته ، ويصل " الى ميماده " فوجدته  
بخزانة كتبه ، فكان اول خزانة ملوكية رايتها لاتها تحتوى على خمسة الاف سفر ونيف (٤)  
وفي حلب يشرح للسلطان الناصر هدفه العلمي ويطلب مساعدته ، فيجيبه : " نعينك  
بما عندنا من الخزائن ، ونوصلك الى ما ليس عندنا كخزائن الموصل وبغداد . . . .  
وتصنف لنا . . . " (٥) وسار وزرا الناصر على هدى سلطانهم <sup>مؤيد</sup> مساعدة ابن سعيد  
فهذا مؤيد الدين بن القبطي يسمع له بالاطلاع . بل توليه الوزارة - على  
" خزانة ( له ) فيها نيف على عشرة الاف مجلد فكنت انتفع بها . . . فلما مات اخوه  
وولى الوزارة جئت مهنتا له . . فقال . . الخزانة التي كنت تطالعها لها خزانة اخرى وهى  
المختصة وقد ابحتها لك فقلت ماهذه الزيادة قال : بقدر ما زادنا الله من نعمة . . " (٦) .

(١) - النسخ ٣٦/٣ - ٣٧

(٢) - انظر بصدور هذه الجلسات : النسخ ٤٠/٣ ، المقتطف ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦ القدح : ٢٢ - ٨٥ - ١٦٨

(٣) - القدح ١٤٦

(٤) - ابن تغرى بردى ، المنهل الصافى ، ورقة ١٠٤ ( مخطوطة دار الكتب المصرية )

(٥) - النسخ ٤٠/٣

(٦) - المقتطف ورقة : ٢٩



٥ - وتعتبر مشاهداته الحية واختباراته العملية مصدرا أساسيا هاما من مصادر معلوماته سواء كان ذلك ما يتعلق بحكمه على شخصيات الرجال الذين التقى بهم أو وصفه للبلدان التي زارها . وكان ابن سعيد حريصا على تقييد مشاهداته وانطباعاته التي كان يكونها بملاحظة هادئة رزينة دقيقة . وسأنتى الى ذلك تفصيلا عند الحديث عن خصائص منهجه .

وَالْخُلَاصَةُ ، فيما يتعلق بعلم ابن سعيد انه كان يميل شخصيا الى صفة الاديب الرواية لملمح الاداب وان الصبغة الادبية طبعست نتاجه بطابعها الا ان جواسرته العلمى ، والمهمة العلمية التي انيطت به فى اكمال " المغرب " و " المشرق " والرحلات العلمية الخصبة التي قام بها ، كل ذلك اسهم فى توسيع حدود علمه وتنوعه حتى شمل - بالاضافة الى الادب - الجغرافيا والتاريخ .

## ٢ - اساتذته

١ - والده موسى بن محمد بن سعيد ( ٦٤٠ - ) :

عند الحديث عن اساتذة ابن سعيد لابد من الابتداء بابيه موسى . فعلاقتهم العلمية به لم تقتصر على التوجيه والارشاد فحسب ، بل انه كان استاذا له بالمعنى العلمى الدقيق للكلمة . وقد سبق الحديث عنه فى القسم الخاص ببيئة ابن سعيد العائلية وسيتركز التعريف هنا على صبغته العلمية الخالصة . وصفه ابنه بانه اكثر بنى سعيد علما وادراهم بعلم التاريخ خاصة ( ١ ) ويعتبر موسى احد المؤلفين الرئيسيين لكتاب " المغرب " ولعله هو اول من فكر فى تصنيف ماثل مشرقى لذلك الكتاب وهو كتاب " المشرق " بل يبدو انه باشر فى جمع المادة المتعلقة بهذا الكتاب الثانى ( ٢ ) وبالإضافة الى ذلك يبدو ان له جهودا خاصة فى حقل التصنيف اذ نرى ولده ابن سعيد ينقل فى كتبه عما يسميه " مخم والدى " ( ٣ ) والارجح انه مصنف فى تراجم الادباء والعلماء .

( ١ ) - المغرب ١٢٠/٢

( ٢ ) - المختطف ورقة : ١ - ٣

( ٣ ) - الغصون ١٨ ، ١٣٥ ، ١٥٠٦

٥ - وتعتبر مشاهداته الحية واختباراته العملية مصدرا أساسيا هاما من مصادر معلوماته سواء كان ذلك ما يتعلق بحكمه على شخصيات الرجال الذين التقى بهم أو وصفه للبلدان التي زارها . وكان ابن سعيد حريصا على تقييد مشاهداته وانطباعاته التي كان يكتونها بملاحظة هادئة رزينة دقيقة . وسأنتي إلى ذلك تفصيلا عند الحديث عن خصائص منهجه .

وَالْخُلَاصَةُ ، فيما يتعلق بعلم ابن سعيد أنه كان يميل شخصيا إلى صفة الأديب الرواية لمجالات الأدب وأن الصبغة الأدبية طبعته نتاجه بطابعها إلا أن جوارحه العلمي والمهمة العلمية التي انيطت به في أعمال " المغرب " و " المشرق " والرحلات العلمية الخصبة التي قام بها ، كل ذلك أسهم في توسيع حدود علمه وتنوعه حتى شمل - بالإضافة إلى الأدب - الجغرافيا والتاريخ .

## ٢ - أساتذته

### ١ - والده موسى بن محمد بن سعيد ( - ٦٤٠ ) :

عند الحديث عن أساتذة ابن سعيد لابد من الابتداء بابيه موسى . فعلاقتهم العلمية به لم تقتصر على التوجيه والإرشاد فحسب ، بل إنه كان استادا له بالمعنى العلمي الدقيق للكلمة . وقد سبق الحديث عنه في القسم الخاص ببيئة ابن سعيد العائلية وسيتركز التعريف هنا على صبغته العلمية الخالصة . وصفه ابنه بأنه أكثر بنى سعيد علما وأدراهم بعلم التاريخ خاصة ( ١ ) ويعتبر موسى أحد المؤلفين الرئيسيين لكتاب " المغرب " ولعله هو أول من فكر في تصنيف مسائل مشرق لذلك الكتاب وهو كتاب " المشرق " بل يبدو أنه باشر في جمع المادة المتعلقة بهذا الكتاب الثاني ( ٢ ) وبالإضافة إلى ذلك يبدو أن له جهودا خاصة في حقل التصنيف إذ نرى ولده ابن سعيد ينتقل في كتبه عما يسميه " حجم والدي " ( ٣ ) والأرجح أنه مصنف في تراجم الأدباء والعلماء .

( ١ ) - المغرب ١٢٠/٢

( ٢ ) - المقتطف ورقة : ١ - ٣

( ٣ ) - الغصون ٩٨ ، ١٣٥ ، ١٥٠٤

وشمة كتاب آخر يذكره ابن سعيد ~~هو الشيخ~~ في تذييله على رسالة ابن حزم في فضائل الاندلس ، ويدخله ضمن " ما جاء " منشورا من فنون الادب " وهو كتاب " واجب الادب : لوالدي موسى بن محمد بن سعيد ، واسمه يغنى عن المراد به " .

ولموسى نظم يعيل الى الحث على العلم والوعظ الخلقى ، وقد ترك لولده وصية منظومة ومنشورة تتضمن نصائح علمية واجتماعية وخلقية وقد تمت الاشارة اليها . ويمكن اجمال العلاقة العلمية الوطيدة بين ابن سعيد وابيه موسى فيما يلي :

- (١) - رسم له الى حد كبير خطة كتابي المغرب والمشرق واناط به مهمة اكما لهما .
- (٢) - اطلعه على سائر السجلات العلمية الموجودة لدى اسرة بنى سعيد واورثه اياها سواء كانت من مؤلفاته هو او تعود لمن سبقه .
- (٣) - صحبه في كثير من رحلاته ولقاءاته العلمية واتيح له فرصة الاستماع لكبار علماء الاندلس (١) .
- (٤) - كان مثالا حيا امامه لتقدير العلم واحترام الجهد العلمى والتمسك بالهدف .
- (٥) - كان ينتهز الفرض والمناسبات لتبصير ابنه بطائع الناس والاشياء (٢) .
- (٦) - لم يكنف بهذا كله بل سجل له نصائحه في وصية جامعة ليمسير على هديها بعد مماته .

٢ - ابويحيى ابوبكر بن هشام القرطبي ( - ٦٤٠ ) (٣) :

من اعلام النثر البارزين <sup>في</sup> عصر ابن سعيد . كتب ~~لله~~ لولة قرطبة كابى العلا المأمون الموحدى والبياسى الناصر ضد الموحدين بها . وبعد مقتل الاخير هرب الى اشبيلية واخذ يطلب العفو من المأمون حتى عفا عنه واعاده الى منصب الكتابة . والى جانب فنه النثرى الذى اشتهر بانه " سهل الطريقة " له اشعار وموشحات . وقد عرف بانه حسن المعشر ، لطيف المحاضرة ذكر ابن سعيد انه انتفع بكتبه وادبه وحاضرتة ، كما قرأ عليه اصلا من الاصول الهامة في تاريخ الادب الاندلسى الا وهو كتاب " الذخيرة " لابن بسام (٤) وسفرى ان هناك شبهة في الخطوط العامة بين المغرب والذخيرة من حيث التقسيم الجغرافى .

- (١) - راجع الفصل الخاص بتاريخ حياته .
- (٢) - راجع الفصل الخاص بشخصيته .
- (٣) - راجع ترجمته في القديح ٨٩ ، المغرب ١/٢٤ ، تحفة القادم ١٥٩ .
- (٤) - المقتطف ورقة : ٨٠ .

٣ - الاعلم البطليوس (- ٦٤٢) (١) :

هو <sup>ابن</sup> ليث اسحاق ابراهيم بن قاسم \* ولقبه عائد الى مسقط رأسه بطليوس \* تخرج في اشبيلية واشتهر باقراء كتب الادب وله شرح في كتابي " الكامل " للمبرد ، و " الامالي " للقالى كما الف كتابا في آداب اهل <sup>بلد</sup> بطليوس ، عرف بصعوبة خلقه وادعائه حتى كان يدعى ان مؤلفاته " لم يخلق الله تعالى مثلها في فنون العرب " (٢) .

يخبرنا ابن سعيد انه اراد ان يقرأ عليه كتاب " الكامل " \* ويبدو انه لم يياشر قراءته عليه (لذ <sup>هو</sup> يشير في مكان آخر انه قرأ الكتاب المذكور على استاذ غيره هو الشلميني) والاعلم هو الذى نصح ابن سعيد ان يختار بين التخصص في اقراء الادب او الاهتمام بملح الادب ليكون اديبا محاضرا مجالسا \* وذكر ابن سعيد انه وقف على " جملة من تصانيفه " \* وانه كان يجلس معه ويتحدث فيما حل باشبيلية من محن في ذلك الوقت فيبدي الاعلم يأسا وتشاوما .

٤ - ابو على عمر بن محمد الشلميني (- ٦٤٦) (٣) :

هو امام النحو في المغرب عصر ابن سعيد \* ينسب الى شلمينة من حصون غرناطة ، وهو اشبيلي الموطن \* كان والده خبازا باشبيلية وتطلع هو نحو العلم واغرم بالنحو منذ صباه حتى برع فيه وصار مرجعا والف فيه المكتب \* ومن اشهر مؤلفاته " شرح الجزولي " \* وله شعريعه ابن سعيد في " نهاية من التلخف " \* والى جانب تدريسه للنحو كان من مقرئي كتب " الادب الجليلة " قائما بمعرفتها وضبطها وروايتها \* (٤) . وكان ابن سعيد يشهد مجلسه باشبيلية وقد ازدحم بالبلديين والغرباء من الافاق وقد قرأ عليه كتاب الكامل " للمبرد " و " ديوان ابي الطيب " وكان الشاعر ابن سهل الاسرائيلي يحضر مع ابن سعيد مجلسه ، فكان الشلميني يناظر بينهما فيما ينظمانه .

(١) - انظر ترجمته في المغرب ٣٦٩/١ ، القدح ١٥٧ ، المقتطف ٢٩٩ ، التكملة ٢٠٧

(٢) - القدح ١٥٧

(٣) - انظر ترجمته في المغرب ١٢٩/٢ ، القدح ١٥٢ ، المقتطف ٨٠ ، الديباج المذهب ١٨٥ ، النج ٢٠٦/١

(٤) - القدح ١٥٢

ويبدو ان الشلوينى كان يتصف بالطيبة والظرف وخفة الروح ، كما كان سريع الغضب من ناحية اخرى . وله حكايات طريفة مع ابن سعيد واتباعه كابن سهل والصابونى وقد سجل ابن سعيد كل ذلك فى المغرب والقدر والمقتطف .

٥ - ابو الحسن على بن جابر الدباج الاشبيلي (٦٤٦- ) : (١)

جمع بين اقراء الادب والامامة ، فكان الى جانب " منزلته العالية فى الادب " امتن الناس ديناً " (٢) حتى ان اهل اشبيلية اختاروه اماماً لجامع العديس الذى كان مركزاً مهماً من مراكز الثقافة فيها فى تلك الوقت . وتروى عن الدباج ايضا بعض الاشعار والموشحات .

ذكر ان ابن سعيد انه قرأ عليه مدة وروى عنه عدة كتب . ويبدو ان للدباج فضلاً فى توجيه ابن سعيد نحو الاهتمام بتذوق الشعر اثناء دراسته لمصنفات الادب . تدل على ذلك الحكاية التالية التى رواها ابن سعيد نفسه : " كنت اقرأ عليه الادب بجامع العديس فبلغه انى اقرأ على ابى بكر بن هشام . . . كتاب الذخيرة واحفظ عليه محاسنها . فقال لى انشدنى ما حفظته من محاسن شعرها . فاستدعته . فقال : فأين انت من قول ابن حصن :

وماهاجنى الابن ورقاً هاتف      على فنن بين الجزيرة والنهر  
( الى قوله ) :

ولما رأى دمعى مراقا ارباه      بكائى فاستولى على الغصن النضر  
وحت جناحيه وصفق طائرا      وطار بقلبي حيث طار . . . ولا ادري

(١) - المقتطف ورقة : ٨٠

(٢) - انظر ترجمته فى : عنوان الدراية : ١٨٨ ، وهناك اشارة عنه فى القدر ٩٦ وكذلك فى

فصرت اقراها عليه \* (١)

ما يدل على انه كان يلفت نظره نحو المقطعات الشعرية الجميلة ووجهه نحو  
تذوقها وحفظها . وسرى ان لابن سعيد غراما خاصا بامثال هذه القطعة ذات الطابع الغزلي  
والاسلوب الرقيق والجو الوصفى ، سواء كان ذلك في نقده ام شعره .

٦ - ابو الحسن على المشهور بابن عصفور (١٦٦٥ - ) (٢) :

لم يترجم له ابن سعيد ضمن من ذكرهم من شيوخه في القدر ولكن لاشبهه فـ  
انه تتلمذ عليه اذ تؤكد ذلك مصادرنا المعتمدة كالاخاطة (٣) وديباج ابن فرحون (٤)  
كما ان ابن سعيد نفسه عندما يتحدث عن جهود الاندلسيين في النحو في تذييله على رسالة  
ابن حزم ، يشير الى شرح ابن عصفور قائلا : " ... ومنها شرح شيخنا ابي الحسن بن عصفور (٥) " .  
وقد تمت الاشارة الى ابن عصفور عند الحديث عن حركة النحو في عصر ابن سعيد (٦)  
وصفه الغبريني في عنوان الدراية بانه فقيه ونحوي لغوي وتاريخي . وهو من اهالي اشبيلية  
وبيدوانه غادر الاندلس في وقت مبكر حيث مر بالغرب الاقصى ثم استوطن بجاية بافريقيه  
( تونس ) حيث درس بها ثم رحل الى الحاضرة تونس حيث اصبح من خواص الامير الحفصي المستنصر  
( - ٦٢٥ ) وقد تتلمذ عليه هذا الامير قبل توليه الخلافة سنة ٦٤٢ .

---

(١) - المقتطف ورقة : ٨٠

(٢) - انظر ترجمته في : عنوان الدراية ١٨٨ ، وهناك اشارة عنه في القدر ٩٦ ، وكذلك في  
النفع ١٢٥ / ٢

(٣) - ابن الخطيب ، الاخاطة : ١٢٠ ( نسخة مصورة )

(٤) - الديباج المذهب ٢٠٩

(٥) - النفع ١٢٥ / ٤

(٦) - انظر المقدمة ص ٤٠

ذكر الغبريني انه توفي فى العقد السابع من القرن السابع ولم يحدد .  
ومن تأليفه الشهيرة كتاب " المغرب " فى النحو ، الذى ذكر ابن سعيد انه اطلع  
عليه ( ١ ) . وله ايضا شرح نحوية على " الايضاح " و " الجمل " . كما فسر بعض  
اجزاء من القرآن ، ووصف الغبريني منهجه فى التصنيف بانه مسلك " لم سبق اليه من الايراد  
والاصدار والاعذار بما يتعلق بالالفاظ ثم بالمعاني ثم بايراد الاسئلة الادبية على انحاء  
مستحسنة " ( ٢ ) . وكانت له ايضا مشاركة فى علم المنطق " . ولجل ذلك حسن ايراده  
فى ( تأليفه النحوية ) تقسيما وحدودا واستعمال الادلة " . وكلامه فى جميع  
تأليفه سهل منسبك " ( ٣ ) .

هذا واذا لن يتلمذ عليه ابن سعيد فى اشبيلية بالذات فثمة احتمال ان يكون قد اتصل  
به فى تونس او فى بجاية . فابن عصفور كان يدرس ولى العهد المستنصر فى تونس قبل سنة  
٤٤٧ هـ وقد اقام قبل تلك الفترة فى بجاية فالاحتمال قوى ان يكون ابن سعيد قد اجتمع به  
خلال اقامته فى تونس بين سنتى ٦٣٦ — ٦٣٩ . وكان عمر ابن سعيد يتراوح عندئذ بين  
المادسة والعشرين والتاسعة والعشرين ، وهى سن مازالت مناسبة للدرس والتحصيل .

x x x

من هذا الغرض لاساتذته واتجاهاتهم العلمية يتبين انهم كانوا امانحومين يميلون  
للادب او مقرئى ادب يهتمون بالنحو والتاريخ . وهكذا فان دراسة ابن سعيد للغة والادب  
كانت مستندة الى اساس متين من حيث التعليم والتوجيه . غير ان الملاحظ انه لا يوجد  
احد من بين اساتذته اشتهر بالتخصص فى الجغرافيا

---

( ١ ) — النسخ ١٢٥ / ٤

( ٢ ) — عنوان الدراية : ١٩٠

( ٣ ) — المصدر السابق ١٨٩ — ١٩٠

او الاهتمام بها والعيل اليها على الاقل • والارجح ان ابن سعيد اعتمد في تكوين ثقافته الجغرافية على المعلومات الجغرافية الواردة في مسهب الحجارى وما اضافته اسـرة بنى سعيد اليه ، ثم توسع بمطالعتـه للكتب الجغرافية الكبرى وعن رأسها كتاب " نزهة المشتاق " للادريسى الذى سـرى - عند الحديث عن جغرافية ابن سعيد - ان ابن سعيد يمثل امتدادا لمدرسته الجغرافية فى القرن السابع الهجرى ( الثالث عشر الميلادى ) •

۳۔ مؤلفات

هناك كتب لابن سعيد امكن الاطلاع عليها والتعرف عن كتب الى مادتها ومنهجها والغرض منها \* وثمة كتب اخرى ورد ذكرها في مصادر موثوقة ونقلت تلك المصادر عن نبدأ تختلف في حجمها ومدى دلالتها ولكنها تكفي لاثبات وجود الكتاب ولتبيان موضعه بصورة عامة وربما اسعفت في توضيح شئ عن منهجه \* واخيرا هنالك كتب لانعرف شيئا عنها غير الاسم وقد تثبت نسبتها لابن سعيد وقد لا تثبت \* وعلى هذا الاساس فقد قسمت الحديث عن مصنفات ابن سعيد الى اقسام ثلاثة : اتحدث في القسم الاول عن الكتب التي اطلعت عليها فاصف مادتها ومنهجها واشير الى غرضها بشئ من التفصيل \* واحقق في القسم الثاني في الكتب التي وردت نبدأ منها او اشارات اليها المصادر الموثوقة اشارة واضحة \* اما في القسم الثالث فسأعدد ما ذكرته المصادر من كتب لابن سعيد بقصد اكمال الصورة واستقصاء البحث .

X X X

"المغرب" و "المشرق" وما تفرع عنهما:

يميل ابن سعيد الى اعتبار كتابى "المغرب" و "المشرق" كتابا واحدا .  
ففى تذييله على رسالة ابن حزم يذكر - فى مجال تعداد مآثر الاندلس - انه  
اكمل "كتاب" فلك الادب المحيط بحلى لسان العرب "المحتوى على كتابى



المشرق فى حلى المشرق " و " المغرب فى حلى المغرب " (١) ففكرة اعتبار الكتابين كتابا واحدا عائدة الى مؤلفهما الاخير ومكملهما على بن سعيد نفسه \* ولكن الدكتور زكى محمد حسن محقق القسم المصرى من كتاب " المغرب " يظن ان المستشرق " آنجل بالنتيا " هو صاحب تلك الفكرة حين يقول : " وقد ادى التواشع والصلوة الدانية بين " المغرب " و " المشرق " الى ان عد هما المستشرق الاسبانى " آنجل جنزالذبالنتيا " كتابا ادبيا واحدا ينقسم الى قسمين المغرب والمشرق (٢) والواقع ان بالنتيا كان ينقل عن ابن سعيد ويعتمد على النص المذكور حتى انه يورد الاسم الجامع للكتابين كما اورد ابن سعيد (٣) وثمة سبب جوهري لاعتبار السفرين كتابا واحدا فهما يقومان على المنهج ذاته ويهدفان نحو تحقيق غرض واحد ويكملان بعضهما فى مجال تقديم اطار موسى شامل للعالم الاسلامى مغربه ومشرقه \*

ولقد قدم ابن سعيد للكتابين معا بخطبة واحدة و اشار الى المنهج الواحد الذى اتبعه فى الكتابين ثم قال : " وقد ابتدأت منهما بكتاب المشرق " فم يحملنى التعصب على تاخير ما قدمه الله \* (٤) " يقصد انه بدأ سفره بالحديث عن المشرق لما جاءه الله من فضائل تفوق فضائل المغرب \* ونرى فى هذه المقدمة حديثا عاما عن صورة الارض باقاليمها السبع وبجاراتها (٥) وكل هذا يدل على ان ابن سعيد يصنف او يرتب على اعتبار انه يؤلف موسوعة واحدة متكاملة غير ان هذه الوحدة النظرية لاتجعل الكتابين متساويين من حيث قيمة مادتهما وترتيبهما التفصيلى ثم ان فكرة " المغرب " اقدم وطريقة تصنيفه تختلف بعض الشيء عن الدور الذى مر به تصنيف المشرق ولذا يكون من الافضل التحدث عن كل كتاب على حدة تسهيلا لخطة البحث \*

---

(١) - النفج ١٢٤/٤

(٢) - المغرب ( قسم مصر ) م ١٩

(٣) - تاريخ الفكر الاندلسى ٢٤٤

(٤) - مقدمة المشرق ورقة ٧ ( نسخة مصورة )

(٥) - المصدر السابق ورقة ٩

## المغـرب :

يرتبط تاريخ كتاب " المغرب " بتاريخ اسرة بنى سعيد منذ عهد عبد الملك بن سعيد ( ٤٩٦ — ٥٦٢ ) عندما وفد عليه الحجارى فى قلعته بخرناطة والى له كتاب " المسهب فى غرائب المغرب " سنة ٥٣٠ زمن المرابطين ( ١ ) . وقد اهتم عبد الملك بالمسهب وصير مطالعته ديدنا ثم ثار فى خاطره ان يضيف اليه ما اغفله الحجارى ، ويختصر ما لم يوافق غرضه وفيه تطويل غير مفيد " ( ٢ ) .

فكتاب " المسهب " — اذن — هونواة كتاب " المغرب " واذا كان ابنا بنو سعيد منذ ايام جد هم عبد الملك اخذوا يضيفون اليه او يختصرون منه ، فان ذلك لا يقلل من اثره باعتباره المنطلق والهيكل العام الذى قام على اساسه الكتاب الموسع الجديد فتاثيره قوى واكيد سواء كان مباشرا او غير مباشر . ومن اسف انا لانعلم الكثير عن كتاب " المسهب " فقد انصب فى المغرب واندمج به ولم يصل الينا كتابا قائما بذاته . ومن هنا تاتى صعوبة التمييز بين جهد الحجارى فى التخطيط والتبويب وبين جهود الاسرة السعيدية : غير ان الاشارات التى ذكرها ابن سعيد عن مسهب الحجارى ومكانته بين المصنفات الادبية الاندلسية الهامة تكفى لاعطاء صورة شبه واضحة عن دور الحجارى فى وضع خطة التصنيف التى بنى عليها المغرب وظهر على اساسها فى صورته الاخيرة .

ينقل المقرئ عن ابن سعيد فى خطبة المغرب : " وصنف ( الحجارى ) ٠٠٠ كتاب " المسهب فى غرائب المغرب " فى نحو ستة اسفار ، وابتدا فيه من فتح الاندلس الى التاريخ الذى ابتداء فيه وهو سنة ثلاثين وخمسمائة ٠٠ " ( ٣ ) . من هذا النص — على اقتضائه — يمكن استنتاج امور هامة هى ان المسهب خاص بالاندلس وانه يحسب

---

( ١ ) — انظر تاريخ بنى سعيد ص ٥٣ — ٦٠ من هذا البحث .

( ٢ ) — مقدمة المشرق ورقة ١ — ٦

( ٣ ) — النفع ٩٥ / ٣

مادة ليست بالقليلة فهو في ستة اسفار ( وان كنا لانعلم حجم هذه الاسفار ) ، ثم انه يسير حسب التتابع التاريخي مند فتح الاندلس حتى سنة ٥٣٠ هـ على وجه التحديد . وثمة اشارة اخرى لابن سعيد عن المسهب اكثر اهمية ووضوحا : " . . . وكتاب ابي محمد عبد الله بن ابراهيم الحجارى المسمى بـ " المسهب المسهب فى فضائل (١) المغرب " صنفه بعد الذخيرة (٢) والقلائد (٣) من اول ما عمرت الاندلس الى عصره ، وخبر فيه عن مقصد الكتابين الى ذكر البلاد وخواصها مما يختص بعلم الجغرافيا وخلطه بالتاريخ وتفنن الادب . . . ولم يصنف فى الاندلس مثل كتابه ، ولذلك فضله المصنف لـ عبد الملك بن سعيد . . . (٤) فهذه الاشارة الهامة تبين موقع المسهب من خط التصنيف عند الاندلسيين وكيف انه جاء بعد كتاب " الذخيرة " الذى هو كتاب تراجم ومختارات ادبية تخضع لتقسيم مكانى عام حسب اقاليم الاندلس من غرب وموسطة وشرق وبعد كتاب " القلائد " الذى هو ايضا كتاب تراجم مسجعة تضم مختارات من الشعر والنثر . وتوحى عبارة ابن سعيد ان المسهب ضم منزع الكتابين عنه ايراد التراجم والمختارات ثم خرج عن منهجهما بما ادخله من تبويب جغرافى يتناول " البلاد وضواحيها " فالمسهب اذن كتاب ذو طابع ادبى يخضع لنسق تاريخى ويقوم على تصور جغرافى مفصل ، وهذه الخصائص ذاتها ادها ما يميز كتاب " المغرب " وهكذا فان المسهب هو النواة الاصلية المهمة <sup>التي</sup> ~~للمسهب~~ وسمت " المغرب " بميسها ، والخطة المبدئية التى سار عليها المؤلفون الخمسة من اسرة بنى سعيد ، تلك الخطة التى استطاعت ان تستهيب مادة ادبية وتاريخية هائلة وتسبكها فى قالب موحد متماسك . وهذا لا يحتم — على اى حال — ان تكون خطة المغرب التفصيلية الدقيقة من وضع الحجارى ولكن الثابت — كما تبين من اشارات ابن سعيد نفسه — ان الخطوط العامة لمنهج " المغرب " كانت موجودة في المسهب .

واكمالا لتسلسل الادوار التاريخية فى تأليف المغرب نتم ما قاله ابن سعيد عن اضافات عبد الملك الى " المسهب " : " وخلفه ( اى عبد الملك ) ابناؤه ابو جعفر الشاعر

(١) — رايانا ابن سعيد فى النص السابق يسميه المسهب فى غرائب المغرب وفى هذا النص يورد " فضائل " بدل " غرائب " .

(٢) — هو كتاب " الذخيرة " فى مجازين اهل الجزيرة لابى الحسن على بن يسام الشنفرى (٥٤٢) هـ .  
(٣) — هو كتاب " قلائد العقيان " لابى نصر الفتح محمد بن خاقان (٥٢٩) هـ (٤) — ~~الفتح ١٧٤٧~~ هو

ومحمد ، واطافا له ما استفاداه ولم يزل لهما خزانة ادب يتزايد عمرها الى ان استبد به موسى بن محمد بن عبد الملك ( اى والد ابن سعيد ) وكان اعلمهم بهذا الشأن ، وذكره بالمغرب فى فنون الآداب لا يحتاج الى تنبيه عليه ، فاعتنى به اشد اعتناء ، واطاف اليه ما طالعاه فى الكتب والتقطه من الافواه . ( ١ ) ونعلم ان ابن سعيد تولى امره بعد ابيه واخرجه بصورة النهائية .

اما فيما يختص بخطة المغرب التى ظهر بها — وهى خطة المشرق ايضا — من الناحية النظرية على الاقل — فقد اشار اليها ابن سعيد بتفصيل فى عدة مواضع من مصنفاته ، يقول فى مقدمة " المشرق " وهو يقدم للكتابين : " كل من التصنيفين مرتب على البلاد متى ذكر بلد ذكرت كوره واتكلم عليه وعلى كل كورة بمكانها من الاقاليم ومن بناها وما يحف بها من نهراو منزه او خاصية نباتية ومعدنية ، ومن تداول عليها من ابناء الملوك اولى التواريخ التى لا يجب اغفالها . ثم نأخذ فى الطبقات واحدة بعد الاخرى ، وهى خمس : طبقة الامراء ، وطبقة الرؤساء ، وطبقة العلماء ، وطبقة الشعراء ، وطبقة اللغيف . ( والاربع الاولى ) مخصصة بمن له نظم من اولى الخطا المذكورة . وطبقة اللغيف مخصصة بمن ليس له نظم من اى صنف كان ، ومن لا يجب اغفاله وفيها من النوادر والمنشجكات ما يكون مثل الاحماض . " ( ٢ ) ويعبر ابن سعيد عن الفكرة ذاتها بطريقة اخرى وشكل اوجز عندما يصف الكتابين للملك الناصر : " انه متى ذكر بلد بـتـ ابتدئ فيه بالحلى البلدية ما هو داخل فى علم الجغرافيا فترسم صورته ثم تذكر من حيوانه ونباته ومعدنه وما يتركب من ذلك الى ما يتعلق بوصف الانهار والمنتزهات مما يتحلى به المحاضرة . ثم يعقب ذلك بالحلى العبارة فيذكر

( ١ ) النسخ ٩٥ / ٣

( ٢ ) مقدمة المشرق ورقة : ٦ — ٧

اول من بذلك البله ويؤتى بتاريخه على النسق الى الوقت الذى صنف فيه الكتاب . ويذكر من ارباب رياسته السيفية والقلمية ومن انضاف الى ذلك من الاعلام فى فنون الجد والهزل ما يتمتع المجلس بنكت النثر والنظم والحكايات ويعمر المجلس النبيل " (١)

فمنهجيه اذن دقيق متعددة الحلقات ومترابطها ، فهو يراعى الناحية المكانية فيورد تراجم الرجال واشعارهم حسب مدنهم وكورهم ، ويراعى الناحية الاجتماعية الزمنية فيورد التراجم حسب تسلسل الزمن ، ثم هو يراعى الناحية الاجتماعية فيبدأ بالملوك والامراء فلاعيان فالعلماء فالشعراء فيعرض رجالا اشتهروا بناحية جد او هزل معينة ولم يرد لهم نظم . والواقع ان ذلك مجرد ذكر للخطوط العامة فى الكتاب فمنهجيه التفصيلي اكثر دقة من ذلك .

ولعل القسم الخاص بالاندلس هو افضل نموذج يمكن التعرف من خلاله الى " المغرب " باعتباره اوفى الاقسام التى وصلتنا واكثرها غنى بالمادة العلمية والشعرية بحكم صلة الكتاب كله بالبيئة الثقافية فى ~~الاندلس~~ الاندلس : يبدأ القسم الاندلسي بالحديث عن الاندلس وصفاتها الجغرافية وفنائها الثقافية وميزاتها التاريخية وكورها المختلفة باعتبارها اقليما واحدا ذا شخصية مستقلة بارزة . (٢)

وبعد هذه المقدمة قسم هذا القسم الاندلسي الى ثلاثة اقسام جديدة - وهو يسمى كل قسم جديد كتابا - باعتبار الاقاليم الجغرافية الرئيسية التى تتكون فيها الاندلس من غرب وموسطة وشرق . ثم قسم كل اقليم الى " ممالك " الكبرى فقسم منطقة المغرب <sup>البحرية والشمالية</sup> وطليلوس وشلب واجة واشبونة ومالقة . وقسم الموسطة الى اربعة كتب كتبت تضم على التوالي ممالك طليطلة وجيان والبيرة والمريسة . اما الشرق فقسمه الى ستة كتب جديدة تضم على التوالي ممالك تدمير وبلنسية وطرطوشة والسهلة وجهات الشحر وجزيرة ميورقة .

(١) المقتطف ورقة ٢-٣ ضمن القسم الاندلسي من كتاب " المغرب " الذى قام بتحقيقه الدكتور شوقي ضيف لم ينشر هذا الباب ضمن القسم الاول من كتاب " النفع " عند حديثه عن الاندلس ولكن المقرئ يورد نبذا مطولة وهامة منه فى القسم الاول من كتاب " النفع " عند حديثه عن الاندلس انظر النفع ١ / ١٢٤ - ٢١٣ ، وخاصة ما بين ١٩٦ - ٢٠٩ .

والكتاب يتناول كل "ملكة" على حدة ويقسمها الى قاعدتها (العاصمة) وإلى مدنها وقراها الأخرى بادئا الحديث عن القاعدة باعتبارها "عروسا" لها مال للعروس من زينة • وهكذا يجرى الحديث عن القاعدة — العروس بادئا بمنصتها فتاجها فسلكتها فحلتها فاهدائها • والمنصة تختص بالوصف الجغرافي للمدينة بينما يختص التاج بذكر الملوك والذين تعاقبوا على حكمها والسلك برجال الوزارة والقضاة والكتابة والشعر وهو "لا" ويقسمون حسب فئاتهم ضمن السلوك • أما الحلة فتترجم لأشخاص يدخلون ضمن الطبقة السابقة ولكن ليس لهم نظم أو نثر • وإلى ذلك أخيرا الأهداب للحديث عن الوشاحين والزجالين وأصحاب النواذر • ويلاحظ أن بعض الممالك لها أكثر من قاعدة واحدة كمملكة قرطبة التي لها ثلاث حواضر هي قرطبة والزهراء والزاهرة وهكذا نجد في هذه المملكة ثلاث "عرائس" لكد عروس منصتها وتاجها وسلكتها وحلتها وأهدائها (١) ومن الملاحظ أن هذه التقسيمات قد لا تنطبق حرفيا على جميع الحواضر والمدن فقد لا نجد الحلة أو قديجي • الملك ناقصا (٢) أما في المدن التي ليست بحواضر فيوضع لها "بساط" بدل المنصة وفي الأغلب ليس لها حلة أو أهداب • وقد يكون هذا عائدا إما لضيق أوراق من الكتاب أو لعدم وجود مادة تملأ تلك الأبواب أصلا •

وهكذا نجد أن هذا المنهج المتشعب المتنوع يجعل من الصعب تحديد هوية الكتاب على وجه الدقة وإن كان في الوقت ذاته ~~لشعور~~ سر تفرد • وأهميته — فهل هذا الكتاب كتاب تراجم ؟ أم كتاب جغرافية وتاريخ ؟ أم كتاب نصوص أدبية مختارة ؟ أم أنه خليط من كل ذلك بحيث لا يمكن تحديد الطابع الغالب عليه أو الهدف الأخير منه ؟ •

الواقع أن كتاب المغرب أبعد ما يكون عن الاستطراد والخرق عن الموضوع مدار البحث والإضافات التي تأتي عفواً خاطر • وعليه فإن وصفنا له بأنه كتاب جغرافية وتاريخ وأدب لا يعني أنه من قبيل الأصول العربية القديمة ككتب الجاحظ مثلاً • ولكن هذا القول لا يحدد لنا بالضبط ما هو كتاب "المغرب" ؟ أن من يتصفح الكتاب يتمعن يشعر أن الهدف الأخير منه هو تقديم نماذج رائعة للشعر الأندلسي منذ أقدم عصوره حتى الزمن السدي الف في — •

(١) — المغرب ٣٧/١ ١٧٤ ١٨٨٤

(٢) — المصدر السابق ٣٦١/١ ٣٨١ ٣٨٢ ٤٢٣ ٤٤١

وان ما عدا ذلك من تقسيمات ومعلومات جغرافية وتاريخية منظمة ما هو الا الاطار المكاني والزمانى والبشرى — او الحلى البلادية والحلى العبادية على حد تعبير ابن سعيد — الذى شاء المؤلفون ان يقدموا من خلاله تلك النماذج الشعرية . والواقع ان هذا الشعور — او بالاحرى الاستنتاج — غير قائم على نوع من التخمين والحدس بتدرجها هوائى على ملاحظة احصائية لمادة الكتاب . فقد لا يذكر الكتاب وصفا جغرافيا للمدينة موضع الحديث ، وقد يختصر ترجمة من يتحدث عنه الى سطر واحد او ربما اكتفى باسمه ولكنه حريص ، الحرص كله ، على ذكر الابيات الشعرية قليلة كانت ام كثيرة وقد يورث اسم شخص ونبذة قصيرة عنه ليقدّم لنا بيتا واحدا ام بيتين له . . . وذلك كل ما روى عنه . ولهذا السبب نرى ان المادة الشعرية — شعرا وموشحات وزجلا — تفوق <sup>في</sup> كميتها المواد الجغرافية والتاريخية على الرغم من ضخامة هذه المواد . الا ان وصفنا للمغرب بانه — فى صفته الاخيرة — كتاب مخازن شعرية لا يقلل من الاهمية التاريخية للمواد الاخرى وانما يضعها فى موضعها الصحيح من الكتاب .

واكتمالا لهذه الصورة الوصفية للمغرب نذكر ان الكتاب اعتمد على ثلاثة انواع من المصادر: المشاهدة ، والرواية الشفوية ، والكتب الجغرافية والتاريخية والادبية السابقة لتاريخ تاليفه او المعاصرة له ومعظمها من امهات المصادر الاندلسية الهامة . وقد بلغ عدد هذه المصادر خمسة واربعين كتابا فيما يختص بالقسم الاندلسى وحده (١) الذى تضمن ستائة وسبعا واربعين ترجمة . وسنعود الى التحدث عن مصادر المغرب — وغيره من كتب ابن سعيد — عندما نباشر البحث <sup>في</sup> منهجه التصنيفى .

وقد ضم كتاب المغرب فى مجله <sup>عشر</sup> وعشرا : الستة الاولى منها عن مصر ، امسك السابغ والثامن والتاسع فخاصة بافريقية وملاذ البربر ، على حين اختصت الستة الاخيرة بالاندلس (٢) .

---

(١) — انظر القائمة التى استخرجها الدكتور شوقى ضيف لمصادر القسم الاندلسى ، المغرب ٢/٦٣ .

(٢) — انظر مقدمة الدكتور زكى محمد حسن لكتاب " المغرب " ( القسم المصرى ) — ص ٣٢ .

وبدوان ابن سعيد فرغ نهائيا من كتاب المغرب سنة ٦٤٧ هـ . يدل على ذلك ما جاء في نهاية السفر الخامس عشر منه : " . . . كمل جمع كتاب المغرب في حلى المغرب . . . وذلك بخط مكمل تصنيفه على بن سعيد في مدينة حلب . . . للخزانة الصاحبية الكمالية . . . بتاريخ سنة سبع وأربعين وستماية (١) " كما ان ابن سعيد في ترجمته الخاصة بالمغرب ~~بخط~~ يذكر انه " عزم على الحج في هذه السنة " ، وهي سنة سبع وأربعين وستماية (٢) مما يدل على انه كان على وشك الانتهاء من الكتاب لكي يتسنى له الرجوع للحج . وبذلك يكون تأليف هذا الكتاب الموسوعي قد استغرق حوالى قرن وخمس قرن (٥٣٠ - ٦٤٧) بمساهمة ستة مؤلفين لم يتسرع احد منهم في اخراجه باسمه في صورة غير كاملة حتى سنحت الفرصة لآخرهم وهو على بن سعيد فاخرجه تاما كاملا بعد ان انتهى تجميع اذاته الضرورية .

وهذا الكتاب الذى بدأ تأليفه في اقصى المغرب - مع توأمة المشرق - الى امير مشوقى هو صاحب بن ندى الجزرى والى الجزيرة وهو من الامراء الذين اكرموا ابن سعيد وتعلقوا به (٣) . وفيما يختص بطبع اجزاء الكتاب بذلت محاولات منذ اواخر القرن التاسع عشر لطبع اقسام منه (٤) حتى قام الدكتور شوقى ضيف بتحقيق القسم الاندلسى والدكتور زكى محمد حسن بتحقيق كتاب من القسم المصرى هو كتاب " الاغتياب في حلى مدينة القسطنطينية " وهو يضم نقولا تاريخية هامة عن الدولتين الطولونية والاشيدية بالاضافة الى تراجم مصرية عديدة من بينها شعراء مصر المشهورين الذين التقى بهم ابن سعيد .

(١) - المغرب ( قسم مصر ) ٣٢ .

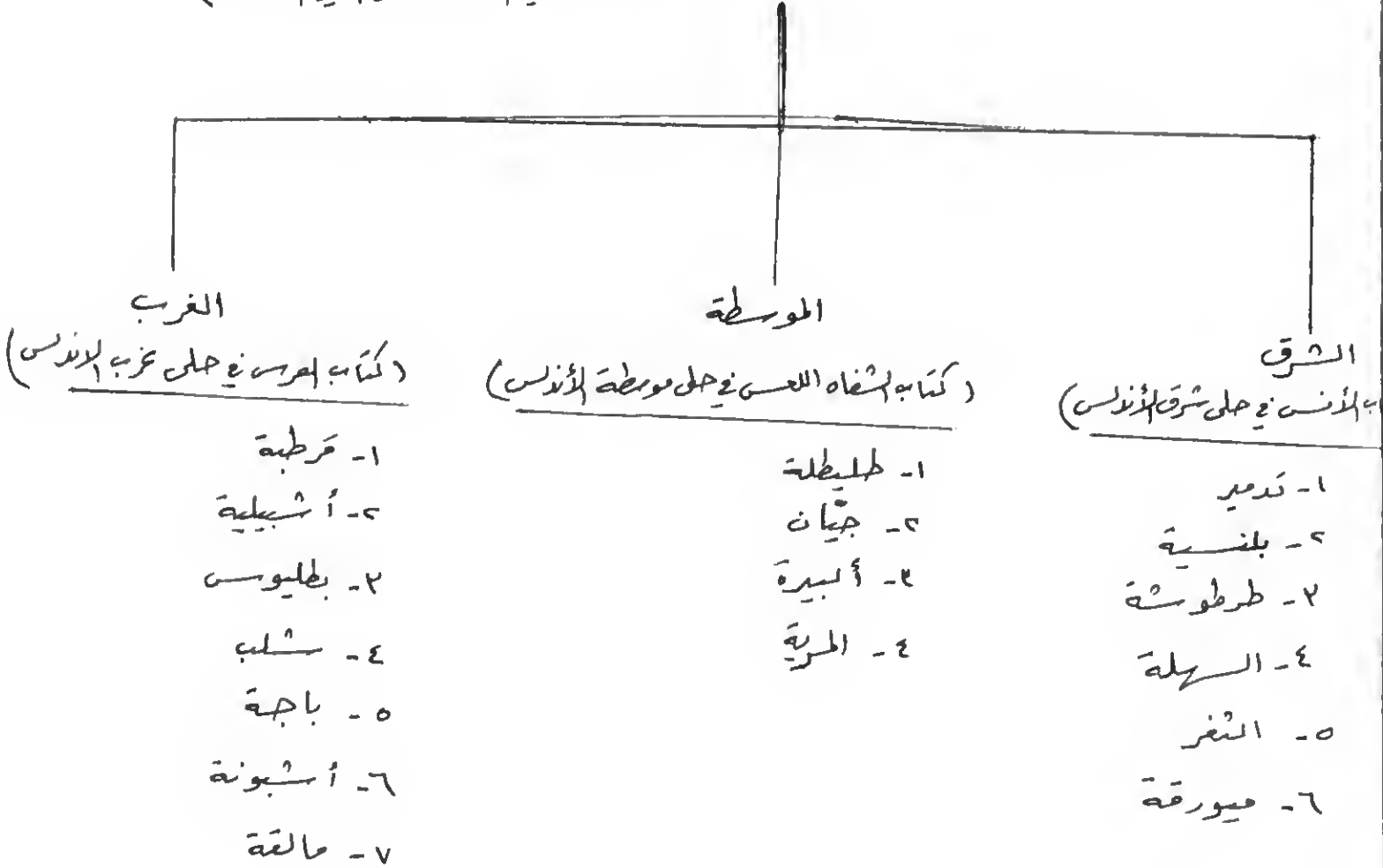
(٢) - المصدر السابق ٢ / ١٧٣

(٣) - انظر ترجمة الجزرى (٦٥١) في الوافى بالوفيات للصفدى ج ١ ص ١٧٢ - ١٧٥ ، وقد اخرج اشار الصفدى الى اتصال ابن سعيد به واهدائه الكتابين كما اشار الى هذا الاهداء حاجى خليفة في كشف الظنون رقم ١٢٤٦٨ . هذا وقد اشار ابن سعيد نفسه الى علاقته بمحمى الدين الجزرى : انظر المقتطف ورقة ٧١ .

(٤) - طبع الكتاب المشتمل على سيرة احمد بن طولون مع مقدمة بالالمانية لكارل فولرس في ليدن ١٨٨٩ . كما طبع في ليدن الكتاب الخاص باخبار القسطنطينية والدولة الاشيدية ١٨٩٩ ، وهذان الكتابان اعيدا طبعهما ضمن كتاب " الاغتياب " الذى حققه الدكتور زكى حسن . والاضافة الى ذلك طبقت قطعة من المغرب عن صقلية نشرها الدكتور مورتس ضمن كتاب العبيد المئوى لميلاد ميشيل اماري ، وقد صدر الكتاب في بولم بلرم سنة ١٩١٠ ( انظر تاريخ اداب اللغة العربية لزيدان ٢٠٨/٣ ، وكذلك معجم سركيس ١١٩/١ ) .

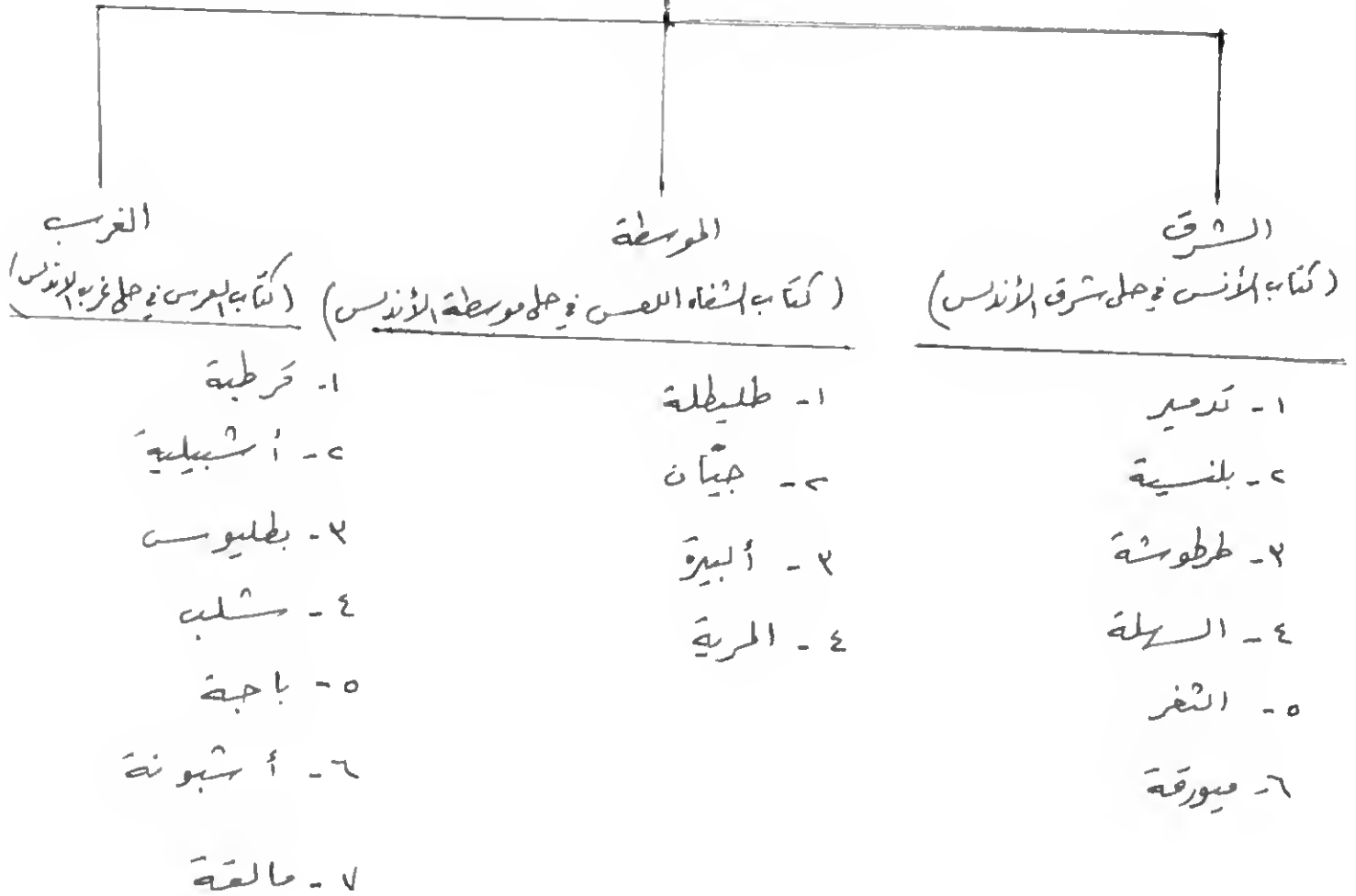


الأندلس ( كتاب دسوقي إطرسي في حلى جزيرة الأندلس )



رسم بياني يبين النقطه العامة لكتاب المغرب

الأندلس (كتاب وشي الخرس في حلى جزيرة الأندلس)



رسم بياني يبين الخطة العامة لكتاب "الغرب"

## المشرق :

القسم الذى وصل الينا من هذا الكتاب مازال مخطوطا ٥ وقد اطلعت على نسخة مصورة منه عن مخطوطته فى المكتبة التيمورية تحت رقم ٢٥٣٢ — تاريخ ٥ والنظر الى ان هذا الكتاب غير منشور ومجهول المحتويات فقد آثرت عن اتحدث عن مخطوطته ومحتوياته بشئ من التفصيل ٥

أرينا

ان ما بين <sup>أرينا</sup> ~~المصنف~~ من هذا الكتاب هو عبارة عن القسم الخاص بجزيرة العرب ومكة على وجه التحديد ٥ وهذا القسم موزع بين مخطوطتين منفصلتين : الاولى مكتوبة على ٥ بخط مشرقى كبير واضح وفيها المقدمة العامة والمقدمة الجغرافية والحديث عن فضائل جزيرة العرب وعن السيرة النبوية وسير الصحابة العشرة المبشرين بالجنة ( باستثناء الخلفاء الراشدين الاربعة الذين ~~المرى~~ يحتم السياق ان تأتى سيرهم بعد سيرة الرسول ) وهنا تأتى المخطوطة الثانية — وهى مكتوبة بخط مغربى قديم — لتسد هذا النقص فتركز الحديث على سير الخلفاء الراشدين وابنائهم واحفادهم مهتمة بالشعراء منهم على وجه الخصوص ٥ وهناك ملاحظة مضافة الى الاخر هذه المخطوطة تقول انها بخط المؤلف وهذه الملاحظة بخط الشيخ حسن العطار شيخ الازهر المتوفى سنة ١٢٥٠ هـ / ١٨٣١ م ) ٥ وليس لى فى هذه المقدمة التعريفية ان ابحث فى العلاقة بين المخطوطتين وفى سبب اغفال سير الخلفاء الاربعة فى المخطوطة الاولى وانفراد المخطوطة الثانية <sup>المقدمة</sup> ~~بالمقدمة~~ بها فهذا من شأن من يتصدى لتحقيق دقيق للمشرق وقد جمع اكبر عدد من مخطوطاته ٥

مبدأ الكتاب ، الذى ورد اسمه هنا : " المشرق فيما يحضره من آداب المشرق " وليس " المشرق فى حلى المشرق " كما تعفد ابن سعيد ان يسميه عند الاشارة اليه فى كتبه الاخرى (١) — يبدأ بخطبه عامة ( وهى ناقصة من اولها وسهاخرم ) تقدم لكتابى " المغرب والمشرق " وتحدث عن منهج تأليفهما ، وقد اوردت النص الهام المتعلق بذلك عند الحديث عن " المغرب " ٥

ومعد ذلك تأتي مقدمة جغرافية تحت عنوان " مقدمة فـى الكلام على الارض والبحار والاقاليم " (١) وسها رسم لصورة الارض حسبها وضعها بطليموس ثم تتحدث عن الاقاليم السبعة اقليةا اقليةا محددة البلدان الواقعة فى كل اقليم ومعدئذ تنتقل الى الحديث عن البحار والاجزاء الواسعة <sup>الى</sup> المتفرعة منها او التى لايعرف عن عمارتها شئ . وابن سعيد يكرر الاشارة هنا الى انه يأخذ عن كتاب الادريسي "نزهة المشتاق " الذى يسميه كتاب "اجار اورجار " (٢) كما نقل مرة عن " رسائل اخوان الصفا " (٣) ومعد المقدمة ~~لكتاب الجغرافيا~~ <sup>لكتاب الجغرافيا</sup> يبدأ كتاب الجغرافية . ويبدأ كتاب المشرق ذاته بالاشارة الى التقسيم الذى سيتبعه ابن سعيد فى تأليفه . وهذه اشارة مهمة تبين لنا المخطط العام لكتاب المشرق وتثبت ان ما بين ايدينا ماهو الا الجزء الاول منه فقط . يقول ابن سعيد انه سيقسم الكتاب الى ثمانية اقسام هى (٤) :

القسم الاول	جزيرة العرب
القسم الثاني	في العراق وارض فارس •
القسم الثالث	في كور الموصل والجزيرة وديار ربيعة وديار بكر وديار مصر •
القسم الرابع	في الشامات •
القسم الخامس	بلاد الروم وارمينيه والخزر •
القسم السادس	بلاد الديلم واذريجان وطبرستان وجرجان •
القسم السابع	في سائر بلاد العجم •
القسم الثامن	في الهند والهند •

ويأتى القسم الاول فى " جزيرة العرب وبلدانها وتاريخها " ( ٥ ) واهم موضوعاته الكلام على الاصنام ، وقصة الفيل ، والكلام عن الحجر والملتمز والحطيم ، والمحصب والحجون ، والمفاخرة بين الحرمين : مكة والمدينة . ثم تبدأ السيرة النبوية ( ٦ ) التى تشمل : نسب الرسول وميلاده ونشأته واسما وصفاته .

- (١) - المشرق ، الاوراق ١ - ٢٦
- (٢) - نسبة الى الملك روجر الثانى Roger II الذى الف الاديسى له وفى بلاطه كتاب "نزهة المشتاق فى الجغرافيه".
- (٣) - المشرق ورقة ١٠
- (٤) - المصدر السابق ورقة ٢٨
- (٥) - المصدر السابق ورقة ٢٩
- (٦) - المصدر السابق ورقة ٨٢

ثم يتفرع الحديث الى ذكر اعمامه وحماته ، وزوجاته ، واولاده ، ومواليه ثم الى التحدث عن غزواته ثم كتابه ورفقائه وسلاحه وافراسه وعصيه واثوابه وحليته واخيرا فرائد من كلامه .  
وبانتهاء سيرة الرسول يبدأ الحديث عن سير الصحابة العشرة الاوائل ( دون ورود ذكر الخلفاء الاربعة ) . ويلقى ذلك " تلخيص في اعلام الصحابة " مثل ابن مسعود وابى ذر وعمار بن ياسر . وبعد تلك التراجم يعود الى الحديث عن قبائل عدنان واساطيرها باسهاب (١) ثم يأتى بفصل عن الرسل الاول ابتداء بآدم (٢) . وهنا تنتهى هذه المخطوطة .  
اما المخطوطة الثانية وهى التى بخط المؤلف فتختص بالترجمة للخلفاء الاربعة وذرائعهم . وتبدأ بعبارة " ما فى مكة شرفها الله من الطبقات " وفيها الخمس التى بنى عليها هذا الكتاب الامراء ، الرؤساء ، العلماء الخ . . ومعنى ذلك ان يعود الى منهجه فى تنظيم تسلسل التراجم كما فعل فى القسم الاندلسى والقسم المصرى من " المغرب " . ولكنا لانرى هنا اى حديث عن منصة مكة اوتاجها كما هى العادة . والمنهج الذى يتبعه هنا هو ايراد ترجمة للخليفة ثم مجموعة من اخباره الهامة وبعض الحكايات التى تروى عنه ثم نماذج من شعره وبعد الخليفة يأتى على ما ذكر مشاهير ابنائه واحفاده مستخدما المنهج ذاته فى الحديث عنهم . وهكذا نراه يبدأ الحديث بترجمة قصيرة عن ابي بكر مع حكايات عنه ، ثم يترجم الابن يسه عبد الله وبعد الرحمن ولحفيدة عبد الله بن عبد الرحمن . . وبعد ذلك يأتى بترجمة اطول لعمر تشغل الروايات عن اسلامه حيزا كبيرا منها ثم يترجم لاشهر ابنائه وعلى رأسهم عبد الله بن عمر . يلى ذلك تراجم لعثمان ولابنائه : سعيد ، وابان ، وهمر . وتأتى اخبار على ونيه لتستأثر بنصيب كبير من التفصيل فهنا يترجم لعلى ويذكر ما دار بينه وبين معاوية من مراسلات وخاصة فى حرب صفين ويعرج على ذكر الرافضة والشيعة ويسهب فى حادث مقتله ويختتم ترجمته بذكر بعض فضائله وايراد نبذ من كلامه ثم يشير الى انه سيواصل الحديث عنه فى السفر الثالث دون ان يذكر سبب ذلك .

(١) - المشرق ورقة ١٩٣ وما بعدها .

(٢) - المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٤٠٤ .

ومعد ذلك الحديث عن على يأتى ذكر ابنائه واحفاده حتى يصل الى محمد النفس الزكية الذى قتل اثنا ثورته ضد ابى جعفر المنصور . وهو يحرس فى كل ذلك على ذكر شعرا و رسائل لكل من يترجم له . ومعد ذلك يأتى ذكر " من دعى له فى مكة بالخلافة " حيث نرى حديثا عن الزبيريين وشورتهم ، وابنتها هذا الحديث ينتهى ايضا هذا الشفر ، ونقرأ العبارة التالية : " كمل السفر الثانى من كتاب " المشرق فى ما يحاضر به من آداب المشرق " بمدينة الاسكندرية حرسها الله فى غزة صفر سنة ثلاث واربعين وستمئة يتلوه ان شاء الله من ولى مكة من الامراء وله ترجمة " ومن هنا نعلم ان القسم الخاص بالجزيرة العربية لم ينته بعد ، وان ما بين ايدينا لا يعدو ان يكون جزئين من ذلك القسم المتعدد الاجزاء .

ويمكن القول بصورة عامة ان ابن سعيد هنا لم يخرج عن منهجه العام . فالسفر الاول حديث عن فضائل جزيرة العرب بصورة عامة وهو مماثل مقدمة المغرب عن فضائل الاندلس . ثم ان ايراده لسير الخلفاء الاربع وذراريهم ولاخبار الزبيريين واسارته الى بدء الحديث عن الولاة فى السفر الثانى يدل انبداً الحديث عن " تاج " مدينة مكة التى هى الحاضرة الاولى فى بلاد العرب ، تماما كما فعل عند الحديث عن حاضرة قرطبة ومن وليها من الخلفاء والامراء . واهم المصادر التى اعتمد عليها ابن سعيد فى هذين السفرين اللذين اطلعت عليهما من " المشرق " المتب التالية ، وهى مرتبة حسب التسلسل الزمنى :

١ - كتاب التاج لابن عبيدة ( ٢١٢ هـ // ٨٢٥ ) اعتمد عليه فى معلوماته عن اخبار الجزيرة فى العصور القديمة .

٢ - سيرة ابن اسحاق برواية ابن هشام ( ٢٢٠ هـ / ٨٣٤ ) اعتمد عليه فى نقل رواية اسلام عمر وفى بعض اخبار على .

٣ - صحيح مسلم ( ٢٦١ هـ / ٨٧٣ ) نقل منه اخبارا عن عمر .

٤ - تاريخ الطبرى ( ٣١٠ هـ / ٩٢٢ ) نقل عنه اعمد عندما ترجم لعثمان .

٥ - العقد الفريد لابن عبد ربه ( ٣٢٨ هـ / ٩٣٨ ) نقل عنه اخبارا عن على .

- ٦ — مرجع الذهب للمسعودي ( ٣٤٥ هـ / ٩٥٦ ) نقل عنه اخبارا عن علي .
  - ٧ — الاغانى لابن الفرج ( ٣٥٦ هـ / ٩٦٧ ) نقل عنه عندما ترجم لابن الخلفاء الذي تعاطوا نظم الشعر مثل عبد الرحمن بن ابي بكر . وابن عثمان : سعيد وابان وعمرو .
  - ٨ — رسائل اخوان الصفا ( اواسط القرن الرابع الهجري ( العاشر الميلادي ) نقل عنها معلومات جغرافية في المقدمة .
  - ٩ — كتاب اختصر فيه والده موسى بن سعيد كتاب " جمهرة انساب العرب " لابن حزم ( ٤٥٦ هـ / ١٠٦٤ ) استعان به في الحديث عن انساب القبائل .
  - ١٠ — كتاب العمدة لابن رشيقي ( ٤٥٦ هـ / ١٠٦٤ ) ذكر ابن سعيد انه راجع فيه اشعار الخلفاء الراشدين التي افصح بها ابن رشيقي كتابه .
  - ١١ — كتاب الاستيعاب لابن عمر يوسف بن عبد البر القرطبي ( ٤٦٣ هـ / ١٠٧١ ) هذا كتاب في التراجم ، وكان جل اعتماده عليه في الترجمة للخلفاء وابنائهم وقد ذكره مرارا ونقل منه مقاطع عديدة وطويلة ويمكن اعتباره المصدر الاساسي لهذا الجزء من " المشرق " .
  - ١٢ — سراج الملوك للطرطوشي ( ٥٢٠ هـ / ١١٢٦ ) نقل عنه حكاية عن اسلام عمر .
  - ١٣ — كتاب اجار او " نزهة المشتاق " للشريف الادريسي ( ٥٦٤ هـ / ١١٦٩ ) هو مصدره الجغرافي الاول ونقد ذكره مرارا في المقدمة الجغرافية .
- واذا علمنا ان ابن سعيد اكمل كتاب المشرق قبل سفره الى مكة وان هذا القسم منه بالذات كتب في الاسكندرية سنة ٦٤٣ كما اشار ابن سعيد نفسه ادركنا ان ابن سعيد قد اعتمد على المصادر كليا وان عنصرى المشاهدة والرواية الشفوية لم يعد لهما اثر في هذا القسم وهذا مما يقلل من قيمته خاصة وان اغلب المصادر المذكورة وصلت اليها . فمعلومات ابن سعيد تعد في هذه الحالة ثانوية ولوانه اجل اكمال الكتاب حتى زيارته للحجاز ومشاهدته لمدينتها ~~لجاء~~ كتابه اكثر دقة جغرافيا على الاقل كما هو الحال بالنسبة للقسم الاندلسي والقسم المصري من " المغرب " الا ان ابن سعيد على ما يظهر وفر ماد " مشاهداته لكتاب آخر هو " النفحة المسكية " الذي ستم

الإشارة إليه بعد قليل ، واعتمده في تأليف المشرق أو هذا القسم الذي وصفته على الأقل —  
على المصادر كلها لينهيه مع " المغرب " سنة ٦٤٧ أي قبل أن يتوجه إلى الديار الحجازية .  
عنوان المرقصات والمطربات :

هو أحد ثمار كتابي " المشرق " و " المغرب " . قال ابن سعيد أنه لما شاع أمر اشتغاله  
بهذين السفرين أخذ الناس يتعجلونه في شأنهما " وتكرر الطلب والسؤال قبل أن ( ينتهيا ) إلى  
غاية الكمال . فجعلت هذا الكتاب كالمقدمة . . . وصفته ليكون كالمدخل . . . وسميته عنوان المرقصات  
والمطربات " ( ١ ) .

ويعتبر هذا الكتاب الذي يشمل نماذج من الشعر والنثر لشعراء العربية وكتابها منذ  
العصر الجاهلي حتى عصر ابن سعيد ، وثيقة هامة بالنسبة لمقاييس ابن سعيد النقدية ( ٢ ) .  
رايات المبرزين وغايات المميزن :

لما حل ابن سعيد بمصر بين سنتي ٦٣٩ — ٦٤٣ واشتهر أمر كتابه ( المغرب ) رغب إليه الأمير  
موسى بن يغمور أن يختار له مجموعة طيبة من أشعار أهل المغرب يختارها من سفره الكبير الذي  
لم يكمل . . . وسميته برايات المبرزين وغايات المميزين " المنتقاء من كتاب " لمغرب في شعراء أهل  
المغرب " وطرزته باسم من يتلقى راية المجد باليمين . . . مستشار الملوك . . . موسى بن يغمور " ( ٣ ) .  
وقد اتبع ابن سعيد في تصنيف هذا الكتاب هدى منهجه المعروف في تصنيفه للمغرب .  
فقسم الكتاب تقسيما مكانيا حسب الأقاليم وزمانيا حسب القرون واجتماعيا حسب المكانة الاجتماعية —  
إلا أنه قصره على الثلاثة القرون السابقة لزمه فقط وكأنه يريد أن يعطى الأمير والمشاركة فكرة عن نهضة  
الشعر المغربي في عصور ازدهاره لا كما عرف عنه في عصوره الأولى .

يتكون الكتاب من أربعة أقسام حسب الأقاليم : قسم خاص بالأندلس يتفرع بدوره إلى أربعة  
أجزاء : غرب الأندلس ووسطها وشرقها وجزيرة يابسة وقسم ثان مختص بالمغرب الأقصى والوسط ،  
وثالث عن إفريقية ( تونس ) ورابع عن جزيرة صقلية وذكر ابن سعيد أنه فرغ من تصنيف هذا الكتاب  
سنة ٦٤١ هـ ( ٤ ) وهو شامل لثلاثمائة وأربعة عشر نموذجا من الشعر ( ٥ ) .

---

( ١ ) — المرقصات ٣ ( ٢ ) — الرايات ٦ ( ٣ ) — المصدر السابق ١١٤ ( ٤ ) — قلم المستشرق  
غرميه غومس بتحقيقه ونشره في مدريد سنة ١٩٤٢ مع مقدمة وترجمة بالاسبانية . ( ٤ ) — طبع الكتاب  
في بولاق سنة ١٢٨٦ هـ كما طبع القسم الأندلسي منه مع ترجمة فرنسية سنة ١٩٤٩ بالجزائر .



المقتطف من ازاهر الطرف :

هذا الكتاب اغنى <sup>ت</sup> مادته من " المرقص " و " الرايات " فهو يشمل احاديث نبوية وحكما ورسائل وحكايات واشعار من المربعات والخمسات والمتسعات <sup>الـ</sup> الخ ، وموشحات وازجالا . والكتاب مقسم بحسب الموضوع لا بحسب منهج ابن سعيد السابق ومما لا شك فيه ان هذه المادة المتجمعة لديه هي جزء مما جمعه <sup>فـ</sup> في تنقيبه وبحثه لكتايب المغرب والمشرق .

وقد نشأت فكرة هذا الكتاب من جلسة لابن سعيد مع الملك الايوبي الناصر ابي المظفر يوسف صاحب حلب . فبينما كانا يتحدثان عن كتايب المشرق والمغرب سأله الملك ان كان سيطول فيهما ام سيختصر . فاجاب " يا خوند ، هكذا يجرى لي دائما . كلما شئت في مصنف لم تسع نفسي بان اجعله صغيرا واخذ <sup>ت</sup> استيفاء ما اجتمع لي من مواد ، والخل ان اسقط منها الى ان اضجر وتقع السامة في بعض مسافاته . " (١)

فصححه الملك بالاختيار والاختصار تعميما للفائدة فقال : " قد وقع لي بهذا المجلس المبارك ما رفع عني حجاب الحيرة فكتم خطبت عشوا لا اهتدي الى صباح " . (٢)

وحدد له الناصر ان يكون الكتاب في ١٢ كراسة من الرسم الناصري المستخدم في خزائن الناصر العلمية بحلب . والظاهر ان ابن سعيد انتهى كتابه عندما عاد الى تونس <sup>في</sup> بعد رحلته الاولى اذ نراه في المقدمة يمدح المستنصر صاحب تونس قبل ان يمضي في سرد حكايته مع الناصر (٣) . ففي حين انه لم يفعل ذلك في مقدمتي " الرايات " و " المرقصات " .

---

(١) . المقتطف ورقة : ٢-٣

(٢) المصدر السابق ورقة : ٢-٣

(٣) المصدر السابق ، ورقة : ١

وقد قسم ابن سعيد كتابه تقسيما دقيقا على النحو التالى حسب فصول السنة وشهورها : (١)

الفصل الاول : فى ازاهر النثر .

الخيملة الاولى : الكلمات القصيرة على اربع طبقات  
 " الثانية : الكلمات المتوسطة " " "  
 " الثالثة : الكلمات الممتعة " " "

بويت هذه النصوص  
 حسب اطوالها وعدد كلماتها

الفصل الثانى : فى ازاهر النظم .

الخيملة الاولى : فى الابيات المفردة والمزدوجة والمثلثة والمربعة .

الخيملة الثانية : فى الابيات الخمسة والمسدسة والسبعة ولثمنة .

الخيملة الثالثة : فى الابيات المتسعة والمعشرة والكونة من احدى عشر واثنى

بيننا .

الفصل الثالث : فى ازاهر الحكايات .

يتألف من ثلاث خمائل ايضا <sup>من</sup> الحكايات المختصرة والمتوسطة والممتعة .

الفصل الرابع : ازاهر الاوزان المولدة من موشحات وازجال .

وهو يتألف ايضا من ثلاث خمائل .

على هذا النسق وضع <sup>ابن</sup> سعيد منهج كتاب المقتطف ، ولكن النسخة (٢) التى

بيسن ايدينا لا تتقيد بالترتيب المذكور . فبعد انتهاء فصل ازاهر النثر مثلا بخمائله

الثلاث لا نرى ذكرا للفصل الثانى بل نصادف هذا العنوان : الخيملة الاربعة المشتملة

على الابيات المفردة والمزدوجة والمثلثة والمربعة . (٣) وهناك المفروض حسب

مخطط الكتاب ان تكون الخيملة الاولى من الفصل الثانى . . . بجانب ذلك

نرى ان هذه الخيملة تبتز عند انتهاء الابيات المزدوجة ونصادف هذا الباب

الذى كان يجب ان يكون ضمن الفصل الثالث : الطبقة الرابعة من الحكايات الممتعة . (٤)

(١) المقتطف : ورقة : ٥  
 (٢) مصورة عن مخطوطة سوهاج - ٣٠٣ ادب .  
 (٣) المقتطف : ورقة : ٢٨  
 (٤) المصدر السابق : ورقة ٣٢

وهناك اختلافات أخرى كثيرة من هذا القبيل .

ومن الجدير بالذكر ان هذه النسخة التي يظن انها بخط المؤلف ناقصة من الآخر . ونظرا للاضطرابات الحاصلة في ترتيب فصول الكتاب لا يعلم بالضبط مدى ما فيها من النقص .

وفي مجال اختيار الاشعار الواردة في هذا الكتاب يلاحظ ان ابن سعيد يطبق مقياسه النقدي فلا يورد " الا ما كان هزازا من طبقة الرقص التي هي اعلى الطبقات وهي التي لا تخلو من غرض تخيل ولطف تحيل " (١) ويكثر من ايراد شعر الغراميات الذي هو من نتاج عصره .

وبالرغم من ان ابن سعيد ~~يتبع~~ قسم كتابه على اساس الموضوع لا على اساس المكان والمنزلة كما فعل في " المغرب " فانه يتاثر بعض الشيء بمنهجه الاول فنراه في فصل النظم يورد اشعار الخلفاء اولا ثم الحسباء والفضلاء ... الشيخ وهو التقسيم المتبع في " المغرب " .

ولعل اهم ما في هذا الكتاب الفصل الاخير المتعلق بالموشحات والازجال الا ان هذا الفصل في النسخة المذكورة مضطرب وناقص من آخره .

#### كتب التواريخ والتراجم

اشتهر ابن سعيد - اكثر ما اشتهر - بكتابه " المشرق " و " المغرب " بالرغم من انه مؤلف مشارك فيهما ومكمل لهما وليس مؤلفهما الوحيد . وعمله فيهما قد خضع بلا شك للخطة المرسومة من قبل ولطبيعة المادة التي جمعها اسلافه . وهذا لا يعين ان اثره فيهما اثر ضئيل فهو الذي اخرجهما بصورتها النهائية وقد يكون ادخل عليهما بعض التعديل والتهديب . الا اننا اذا اردنا ان نتعرف الى جهد ابن سعيد الشخصي الخالص فعلينا ان نلتفت الى كتب كالفدح والفصون فهنا يظهر طابعه الخاص بوضوح اكثر .

### القدح المعلى

اطلعت على جزئين من هذا الكتاب بينهما تباين كبير من حيث طبيعة المادة والاهمية . هما " كتاب نشوة الطرب فى تاريخ جاهلية العرب " ، وهو نسخة مصورة (١) وكتاب " اختصار القدح المعلى " فى تراجم اعلام اندلسيين من معاصرى ابن سعيد ، وهو مطبوع (٢)

وبدو ان ابن سعيد فى هذا الكتاب كان يحاول تصنيف موسوعة تاريخية - ادبية جديدة تتناول تاريخ الامم والرجال منذ العصر الجاهلى - او ربما - اقدم من ذلك حتى عصره هو فى القرن السابع الهجرى . وما الجزءان اللذان اشهرت اليهما الا حلقتان فى سلسلة موسوعة " القدح " الشاملة . وثمة اشارات واضحة تؤكد ذلك . ففى الصفحة الاولى من كتاب " نشوة الطرب " نقرا ما يلى :

" فهذا القسم الثانى ، وهو القسم الاعظم مما اشتمل عليه كتاب القدح المعلى فالله فى التاريخ المحلى : تاريخ الامة العربية ، وهذا التاريخ مشتمل على كتابين : " كتاب نشوة الطرب فى تاريخ جاهلية العرب " و " كتاب مصابيح الظلام فى تاريخ ملة الاسلام " . وهذا النص يشير اولا الى ان هناك قسما اول من كتاب القدح سبق تاريخ الامة العربية فى جاهليتها وفى اسلامها ، ولعل هذا القسم الاول عن تاريخ بدء الخلق : اوله فى تاريخ الامم غير العربية ، اذ ان تسمية القسم الثانى الذى يشمل كتابي " نشوة العرب " و " مصابيح الظلام " بتاريخ الامة العربية قد يشير الى ان القسم الاول هو عن تاريخ الامم الاعجمية . وثمة كتاب نسبته حاجى خليفة الى ابن سعيد وقال انه يقع فى مجلدين وهو كتاب " لذة الاحلام فى تاريخ الاعجال " (٣) ، فهل هذا الكتاب هو القسم الاول من القدح الذى سبق كتاب " نشوة الطرب " ؟ . ايا كان الامر ، فالنص المذكور يؤكد وجود قسم اول . وبلاضافة الى ذلك فان النص يخبرنا بوجود كتاب تال لنشوة الطرب وهو " مصابيح الظلام فى تاريخ ملة الاسلام " . وكل ذلك يكفى لاعطاء فكرة عامة عن حدود كتاب " القدح " وغرضه .

(١) صورها معهد المخطوطات للجامعة العربية فى القاهرة عن مخطوطة بمكتبة تونجى بالمانيا  
(٢) بتحقيق الاستاذ ابراهيم اليازجى  
(٣) حاجى خليفة ، كشف الظنون : ٣٠٩/٥

القسم الاول : في العرب المبجلة البائدة .<sup>(١)</sup>

القسم الثالث : في العرب المستعربة .

ومعد هذه الفصول التاريخية يلتفت الى بعض النواحي الخاصة في ادب العرب وحياتهم فيعقد فصلا بعنوان " امثال وفوائد من اوايد العرب " ، وفصلا آخر عن " خيل العرب المشهورة " . ونراه يحرص على ذكر الروايات الشعرية ما اسعفته مصادره بذلك . وهو ينقل في هذا الكتاب عن : البيهقي ، والمسعودي في مرجح الذهب ، وتاريخ الطبري ، ويعتمد على كتاب الملك والنحل للشهرستاني في التحدث عن العقائد الدينية المنتشرة بين العرب في الجاهلية .

ونلاحظ ان مادة هذا الكتاب تتشابه مع مادة القسم الخاص بالجزيرة العربية من كتاب "المشرق" ، وهو القسم الذي جاء وصف مخطوطه فيه قليل . ومما لا شك فيه ان ابن سعيد استفاد من المادة الكبيرة المتوفرة لديه للكتاب المشرق . فادخل قسما منها في هذا الكتاب ، خاصة وان كثيرا من مصادر الكتابين واحدة . وما قلناه عن كتاب "المشرق" من حيث قلة الاهمية التاريخية يمكن ان نقوله عن كتاب "نشوة الطرب" ، فمادته ثانوية ، ومصادره الاصلية متوفرة لدينا .

(۱) - اشاره الى الاسطورة القائلة بتبديل السنة البشرية - اى اختلافها واضطرابها -  
ففى بائبل .

هذا وتعود الإشارة فى نهاية الكتاب المتعلق هو "الى انه المجلد الثانى من كتاب "القدح المعلق" ، والى ان الكتاب التالى هو " مصابيح الظلام فى تاريخ ملة الاسلام " . كما توجد اشارة اخرى الى ان كتاب " نشوة الطرب " الذى تحدثنا عنه مكتوب بخط المؤلف نفسه .

واذا وصفنا كتاب " نشوة الطرب " بانه كتاب ثانوى فى اهميته التاريخية ، فان القسم الاندلسى من كتاب " القدح المعلق " ، وهو الذى وصلنا باسم " اختصار القدح المعلق " يعتبر من اهم المصادر الاولى عن الثقافة الاندلسية فى اواخر عصر الموحدين ، وعن جواشيبيلية العربية خلال الخمسين سنة الاخيرة من تاريخها .

يشتمل هذا الكتاب - او اختصاره الذى اختاره شخص يدعى محمد بن عبد الله بن خليل - تراجم الاثنين وسبعين علما من اعلام الاندلس المبرزين فى ميادين الشعر والادب والفقه والسياسة ممن عاشوا فى عصر ابن سعيد . والغالبية العظمى من هؤلاء التقى بهم ابن سعيد شخصيا وتعرف اليهم عن كثب وربما عاش مع بعض منهم مدة طويلة من الزمن . فمعلومات الكتاب - اذن - معلومات مباشرة استقيت من اصحابها الاصليين ومن انطباعات المصنف الحسى عنهم .

ومنهج ابن سعيد فى هذا الكتاب ان يورد اسم المترجم به وبلده وشهرته ومكانته واهميته فى صدر الترجمة لاعطاء فكرة عامة تعريفية عنه . ثم يعضى فى رواية نتف من اخباره واشعاره ذاكرًا مكان اجتماعه به وكيفيه وزمانه . كما انه لا يخفى فى الغلب انطباعه الشخصى تجاه المترجم به فتراه يذكر شيئا عما تراءى له من اخلاقه وطباعه .

وقد اثار محقق هذا الكتاب فى مقدمته سؤاليين مهمين عنه وهما :

١ - هل ما بين ايدينا كتب مستقل بذاته جزء من مصنف تاريخي كبير ؟

٢ - هل ما بين ايدينا هو حقا اختصار عن كتاب اصلى لابن سعيد ؟ ام ان

هذا هو الكتاب الاصلى وان القول باختصاره مجرد وهم ؟

وفيما يختص بالسؤال الاول يبدو انه من الاصول القول ان هذا الكتاب - رغم طابعه المستقل - كان يشكل في تصور ابن سعيد سلسلة في حلقة موسوعية كبيرة - كالمشرق والمغرب - باسم كتاب " القدح المعلق في التاريخ المعلق " ، الذى كتبت مخطوطة " نشوة الطرب " وجوده وتشير الى بعض اجزائه . ولعل ما اشتهر به بانه " اختصار القدح المعلق " هو القسم الاندلسى من الكتاب الكبير اوروبى - كان فرعاً من قسم اندلسى يشمل كافة العصور ولا يختص بزمان ابن سعيد فحسب كما هو الحال بالنسبة لهذا " الاختصار " .

اما فيما يتعلق بالسؤال الثانى ، فان المحقق يرجع ان ما بين ايدينا هو كتاب اصلى بقلم ابن سعيد نفسه . وان وجود ترجمة ذاتية لابن سعيد فى بدايته مع ورود عبارة فى المقدمة تقول : " فهذه نبذة خاقانية ... انتخبها بقصد الاختصار " هما سبب الوهم وسبب تصور النساخ ان الكتاب مختصر من قبل هذا الشخص الذى لا نعرف شيئاً عنه ، والذى ربما كان من مالكي احدى النسخ ليسر غير .  
وبالنسبة لهذه الترجمات ارى ما يلى :

١- ان جميع ما لدينا من معلومات وتصورات عن شخصية ابن سعيد ومن منهجه فى التصنيف تشير الى انه لا يمكن ان يترجم لنفسه بالطريقة التى ترجم بها فى " اختصار القدح " . فهذه الترجمة كلها تعظيم وتفخيم بشكل لا يمكن ان يصدر عن ابن سعيد الذى ترجم لنفسه بغاية التواضع فى مصنفه الضخم " المغرب " عندما جاء الحديث عن اسرة بنى سعيد ، والذى اشار الى نفسه واورد نماذج من شعره فى ختام كتابى " المرقصات " و " الرايات " بايجاز وتواضع .

( بينما نجد ترجمته هنا تتصدر الكتاب ، فهي اول ترجمة فيه ) . والواقع ان القاء نظرة على ترجمته في المغرب وترجمته في القدح كافية لاقتناع المرء ان ابن سعيد لا يمكن ان يكتب عن نفسه الكلام المذكور في "القدح" :  
فهذه خلاصة ترجمة ابن سعيد في المغرب : " هو مكل تصنيف هذا الكتاب ، ولد نغرناطة . . . ورحل عنها وجال مع ابيه برالاندلس . . . ورحل الى القاهرة . . . ثم عزم على الحج في هذه السنة . . . يسرا له ذلك بمذبة . . . ومسن قوله . . . " (١) فكيف يتفق هذا الاسلوب الموضوعي الدقيق مع الكلام المذكور في القدح على اساس انه ترجمة ابن سعيد : " بحر لا يقطى ثبجه . . . علامة الاعلام ورواية الجاهلية والاسلام ، مالك عنان البيان ومصرفه ومسند حديث العلم ومصنفه . ان ذكر التفسير نسي الزمخشري او التا ريخ فمن الطبرى ؟ او التصوف فاين الجنيد والسرى ؟ . . . ذلك الذى جاب الاقطار . . . در له حلب حلب ، والموصل وصل الى ما طلب . . . وزار الزوراء فازدراها . . . " (٢)  
حقا ان امثال هذه المبالغات موجودة في كتب التراجم العربية القديمة عندما يتحدث المصنف عن علماء يجلبهم ، اما ان يكتب مصنف - وكابن سعيد - عن نفسه ذلك فما يصعب تصديقه للغاية .

٢- ان بقية التراجم يبدو عليها اثر قوى من نهج ابن سعيد وروحهم وجميع ما فيها من تفاصيل يدل على ان كاتبها هو ابن سعيد نفسه .  
وعلى هذا الاساس يمكن القول ان الترجمة الاولى في الكتاب - وهى عن ابن سعيد - ليست باسلوب ابن سعيد وربما كانت من اضافة المختصر ، اما التراجم الاخرى فقد تناولها يد الاختصار والحذف ولكن ما بقى منها يمثل اسلوب ابن سعيد ، وقد تكون ناقصة بعض الشيء ولكن لا يظهر عليها آثار للتحريف . عليه يمكن اعتباره ما يسمى " اختصار القدح " بانه كتاب اساسى لابن سعيد يمثل منهجه وروحه .

(١) - المغرب : ١٢٢/٢

(٢) - القدح : ٢



## الفصون

هو كتاب تراجم الشعراء والعلماء من المغرب والمشرق شهدوا القرن السابع وتوفوا فيه . اسمه الكامل : " الفصون الياصرة في محاسن شعراء المائة السابعة " انتهى ابن سعيد من كتابه سنة ٦٥٧ عهد إقامته بتونس على ما يذكر في المقدمة . والقسم الذي وصلنا من الكتاب <sup>(١)</sup> جميع من ذكروا فيه لا تتجاوز سنى وفاتهم سنة ٦٠٥ . وهذا معناه ان ما وصلنا اليه ما هو الا جزء من كتاب كبير . وابن سعيد يذكر ان هذا القسم هو الكتاب الثامن من الكتب التي اشتمل عليها جامع طبقات الشعراء الموسوم بـ " الحلة السيرة " . ويظهر ان ما بين ايدينا ليس جزءا من " الحلة السيرة " فحسب بل هو جزء من هذا الجزء الثامن الذي سمي " الفصون الياصرة في محاسن شعراء المائة السابعة " . اذ نرى المصنف يذكر احد الشعراء عرضا في ترجمة ابيه المتوفى سنة ٦٠١ ثم ~~يقول~~ عنه : " وهو شاعر تقف على ترجمته في سنة اثنتين وستمائة " <sup>(٣)</sup> مما يدل ان كتاب الفصون مصنف ضخم لا يساوي القسم الذي بين ايدينا الا جزءا يسيرا منه .

وقد وردت في هذا القسم تراجم لسته وعشرين شاعرا وعالما من المشارقة والمغارسة . ومنهج الكتاب يشبه منهج كتاب القدح . فعند البدء بالترجمة تعطى فكرة عامة عن المترجم به ثم تذكر نتف من اشعاره واخباره . ومصادر الكتاب شفوية وخطية فقد جمع ما سمعه في رحلاته عن اولئك الرجال بالاضافة الى اعتماده على نقايب والده وعلى كتب مشرقية ومغربية كمعجم الشقندي ( ٦٢٧ - ) ومعجم الادباء لياقوت ( ٦٢٦ - ) وتاريخ حلب لابن العديم ( ٦٦٠ - ) وتاريخ بغداد لابن الساغى ( ٦٧٤ - ) وتاج المعاجم للشهاب القوصى ( ٦٥٣ - ) . وقد لجأ ابن سعيد في هذا الكتاب الى الاسلوب المسجع - كما فعل في القدح - ولكنه لم يتكلف السجع ولم يتقيد به على الدوام فنراه يبدأ الترجمة بمقدمة مسجوعة حافلة بالمعلومات ثم يقص الاخبار والروايات - في الاغلب - باسلوب موجز برى من السجع .

(١) حققه الاستاذ ابراهيم اليباى سنة ١٩٤٥ .

(٢) الفصون : ١

(٣) المصدر السابق : ٣٤

## كتب الجغرافيا

سأحدث عن مؤلفات ابن سعيد الجغرافية في الفصل الخاص بذلك ، واكتفى هنا بالإشارة إلى كتابة الجغرافي الواحد الذي اطلعت عليه ، وهو :  
بسط الأرض في الطول والعرض (١)

كتاب جغرافي شامل مكثف في مادته يهدف إلى إعطاء صورة كاملة عن البلدان بما فيها من خواص معدنية ونباتية مع تحديد مواقع مدنها وقراها بالدرجة والدقيقة ضمن خطوط الطول والعرض . كما أنه يذكر صفات سكان كل إقليم عند بدء الحديث عنه ويشير أحيانا إلى العادات والتقاليد خاصة إذا كانت غريبة كما يهتم بذكر الغرائب وتقوم خطة الكتاب على تقسيم العالم إلى سبعة أقاليم تقع كلها إلى الشمال من خط الاستواء . كما تضيف إلى ذلك إقليمين آخرين هما " المعمور خلف خط الاستواء إلى الجنوب " و " المعمور في شمالي الأقاليم السبعة " . وكل إقليم من هذه الأقاليم ينقسم إلى عشرة أجزاء . ويعتمد ابن سعيد في هذا الكتاب على رحلة الأندلس يدعوه " ابن فاطمة " خاصة فيما يتعلق بمعلوماته عن غرب إفريقيا ووسطها وشرقها .  
كتب لابن سعيد وردت نقول منها

١- ديوان ابن سعيد : ذكر المقرئ أنه رآه وكان مرتبا على حروف المعجم (٢)

وقد نقل في ترجمة ابن سعيد في النفخ عددا لا بأس به من قصائده ومقطعاته .

٢- الغراميات : ذكره ابن تغري بردي (٣) ونقل من أوله حكاية

مهمة جرت بين ابن سعيد والبهاء زهير حول المقارنة بين الشعر المشرقي والمغربى ، وتكشف هذه الحكاية عن آراء البهاء زهير في شعر ابن خفاجة وابن زيدون كما

(١) - حققه الدكتور خوان قرنيط خينيس من جامعة برشلونة ونشر بالمغرب سنة ١٩٥٨ .

(٢) - النفخ : ٦٩/٣

(٣) - المنهل الصافي ج ٢ ، ورقة ١٠٤ ، وقد ذكر الكتاب حاجي خليفة محررا باسم الغرائب ، انظر كشف الظنون : ١٢٧/٥ .

تكشف اعجاب ابن سعيد الشديد بشعر البها • ويبدو ان كتاب الغراميات هذا - استنتاجا من تلك الرواية ومن اسم الكتاب - متعلق بالشعر الغزلي •

٣ - عدة المستنجز وعقله المستوفز : ذكره المقرئ وقال انه في اخبار رحلته الثانية الى المشرق •

ثم اورد فيه اخبارا عما انزله التتر باصدقائه الحلبيين كالناصر الايوبي وبنى العديم • وفيه ذكر مقتل الناصر على يد هولاء • وصفه المقرئ بانه كتاب " غرائب وندائع " (١) •

٤ - الطالع السعيد في تاريخ بنى سعيد : ذكره ابن الخطيب والمقرئ (٢) والسيوطي (٣)

وهو في تاريخ اهله وبلده ونقل عنه المقرئ رواية عن اجتماع ابن قزمان الزجال بنزهون القلاعية الادبية في غرناطة بجنته بقرية الزاوية (٤) ويبدو ان ابن سعيد لما ارجع في هذا الكتاب لرجال ابنى سعيد ابتغى ذكرهم بذكر من مربقلمتهم من الشعراء والادباء واصحاب النوادر • وهو قد فعل ذلك في المغرب عندما تحدث عن قلقهم ورجالاتها بعنوان : " كتاب الطالع السعيد في حلى قلعة بنى سعيد " (٥) • والظاهر ان هذا الفصل في المغرب هو اختصار للكتاب المستقل السابق الذكر •

٥ - كتاب كنوز المطالب في آل ابي طالب : ذكره التجاني في رحلته (٦) ونقل عنه خبرا عن اجتماع ابن سعيد بالشريف التاجوري في حصن الخليل ومصر والشام كما اورد قسما من ترجمة الشريف وثقا من اشعاره التي اوردتها ابن سعيد في الكتاب • وقد سبقت الاشارة الى هذا الكتاب عند الحديث عن نزعة ابن سعيد المذهبية • هذا وقد اكد وجود الكتاب ابن تغري بردي في المنهل (٧) •

---

(١) - النفع ٣ / ٤٠

(٢) - المصدر السابق ٣ / ٤٠

(٣) - حسن المحاضرة ١ / ٢٦٦

(٤) - النفع ٦ / ٣٢

(٥) - المغرب ٢ / ١٥٩ - ١٨٦

(٦) - رحلة التجاني ٣٠٨

(٧) - المنهل الصافي ج ٢ ورقة ٤٥٣

٦ - كتاب الزهرات : ذكره ابن هذيل في كتابه " عين الادب والسياسة " ونقل عنه ثلاث روايات من ملح الاخبار المتعلقة بسلوك الكبراء والرؤساء (١) الرواية الاولى عن الخليفة العباسي المقتدر عندما تباحث مع خاصته في مسألة اضطراب دخل الدولة وطلب منهم تحديد المسؤول عن ذلك ، وكيف ان احد مرافقيه وهو ابو عيسى ، القى اللوم على الوزراء الذين يتلاعبون بموافقيه باموال الرعية ولا يخافون سلطة الخليفة مبينا له الشروط الواجب توفرها في الوزير الصالح مما جعل المقتدر يبالغ منه تولى الوزارة بنفسه . اما الرواية الثانية فهي عبارة عن بضعة ابيات لابن دلف العجلي حول موضوع الكرم والبذل وعدم الاهتمام بتقلبات الدنيا ، ومن ضمنها البيت المشهور :

فلا الجوى فنيها اذا هي اقبلت

ولا البخل يبقيا اذا هي ولت

اما الرواية الثالثة فيرويها ابن سعيد عن صديقه كمال الدين بن العديم الذي يرويها بدوره عن قاضي حلب بها الدين بن شداد . وفحواها ان ابن العديم في صغره زار هذا القاضي حلب بها الذي هو مريض . مع بعض اترابه الصفا . فقام لهم القاضي من فراش المرض وظهر لهم الاحترام ولم يمنعه وهو القاهي الشيخ المريش ان يبالح في الترحيب بزوار الصغار . ويبدو من هذه الحكايات الثلاث - اذا امكن اعتبارها نماذج معبرة صالحة - ان كتاب الزهرات يتناول آداب السلوك وسياسة الملك ويبلغ الحكم عن طريق ايراد روايات تدور حول تلك الموضوعات وتتعلق بسير الامراء والمشاهير عجم وما يقوى هذا الاستنتاج ان ابن هذيل ينقل عن كتاب " الوهرات " في كتابه الموسوم بـ " عين الادب والسياسة " وهو كتاب يدور حول الموضوع ذاته .

كتب اخرى منسوبة لابن سعيد :

اكمالا لخطة البحث اورد هنا قائمة باسماء الكتب التي نسبتها المصادر لابن سعيد ، او

التي وردت عندها اشارات عابرة في كتبه السابقة .

(١) - ابن هذيل ، عين الادب والسياسة ، (على هامش " غرر الخصائص " للوطواط) ص :

١ - ملوك الشعر : نقل المقرئ عن ابن سعيد قوله : " ولما جمعت للملك الناصر كتاب "ملوك الشعر" جعلت ملك شعر الشهاب التلعفري البيت الرابع من ~~الغزوة~~ المقطوعة المقدمة " - وكان المقرئ قد اورد قصيدة هذا بيتها الرابع :  
وتفردت بالجمال الذي خلاك مستوحشا بغير رفيق (١)

وقد ذكلا كتاب "ملوك الشعر" ايضا ابن شاعر في الفوات (٢) . ويتضح من العبارة المقدمة ان المقصود بملوك الشعر ابيات معينة يرى ابن سعيد انها تستحق ان تكون بمثابة الملوك في دنيا الشعر . واذا صح ذلك فان هذا الكتاب يعتبر وثيقة مهمة بالنسبة لاراء ابن سعيد النقدية - الى جانب كتاب "المرقصات" .

٢ - الغرة الطالعة في فضلاء المائة السابعة : بعد ان اشار ابن سعيد الى ملوك الشعر " وابيات الشهاب التلعفري قال : " والتشفي من ذكر الشهاب ومحاسن شعره له مكان بكتاب "الغرة الطالعة في فضلاء المائة السابعة" (٣) ويبدو ان هذا الكتاب يشبه الى حد كبير كتاب "الغصون" وربما كان الاسمان لكتاب واحد فالشهاب التلعفري يمكن ان يترجم لـه في الغصون كشاعر من القرن السابع .

٣ - كتاب العنوان " في تسمية من لقيته من الاعلام وطالعت من الكتاب ودخلته من البلدان " (٤)

٤ - كتاب الماشطة " التي تجلى بها عرائس الاشعار في منصة الفاخر وتحلى بتزيينها في الاسماع والخواطر " . والماشطة كتاب يتحدث عما " يقع على الاشعار المرقصة والمطربة والمقبولة " من الكلام (٥) . وظاهر ان هذا الموضوع يكاد يتطابق مع موضوع كتاب "المرقصات"

(١) - النفخ ٦٢/٣ - ٦٣

(٢) - فوات الوفيات ١١٢/٢

(٣) - النفخ ٦٣/٣

(٤) - المقتطف ، ورقة ٦

(٥) - المقتطف ، ورقة ٦

- ٥ - النفحة المسكية في الرحلة الحكية : كتاب عن رحلة حجة ( ١ ) .
- ٦ - المرزومة : كتاب " يشتمل على وقتر <sup>لعمري</sup> من رزم الكراريس لا يعلم ما فيه من الفوائد الادبية والاخبارية الا الله ... " ( ٢ ) . وذكر <sup>الشيخ</sup> رشيد في رحلته الكتاب التالية لابن سعيد (٣)
- ٧ - الخدوذ الموردة في محاسن الاوزان المولدة .
- ٨ - تفرج الظلام وترصيع العالم بالاعلام .
- ٩ - رقم الحلل في معرفة الملك والدول .
- ١٠ - السحر المذاب في <sup>طهارة</sup> الخطايا والكتاب ..
- ١١ - الشجرة المثمرة بالاعلام المشتهرة .
- ١٢ - المهاد في اوضاع البلاد .
- ١٣ - جنى النحل .
- ١٤ - ربحانة الادب .
- ١٥ - غنج المحاضرة .
- ١٦ - اللوحة البرقية .
- ١٧ - ملوك الكلام .
- ونسب اليه حاجي خليفة ما يلي :
  - ١٨ - تاريخ ابن سعيد " وهو كتاب كبير مرتب على السنوات " ( ٤ ) .
  - ١٩ - وله كتاب " تاريخ صغير ايضا ذكر فيه من لقيه من المتأخرين " ( ٥ ) .
  - ٢٠ - كتاب " المغرب عن سيرة ملوك اهل المغرب " ( ٦ ) .
  - ٢١ - ربحانة الادب في المحاضرات : " جمع فيه عيون الاخبار ومستحسنات الاشعار " ( ٧ ) .

---

( ١ ) - النفح ٤٠/٣  
 ( ٢ ) - المصدر السابق ٣٨/٣ بالديباج المذهب ٢٠٩  
 ( ٣ ) - انظر لوحة رقم ٤ بمقدمة " الغصون " والمقدمة ذاتها .  
 ( ٤ ) - كشف الظنون : ١٠٣/٢  
 ( ٥ ) - كشف الظنون ١٠٣/٢  
 ( ٦ ) - المصدر السابق ١٥١/٢  
 ( ٧ ) - المصدر السابق ٥٢٤/٣

٢٢ — الملقط من السلك من حلى العروس الاندلسية ( ١ ) ، ويقرب هذا العنوان من جو كتاب " المغرب " .

٢٣ — نتائج القرائح فى مختار المراتى والمدائح " ( ٢ ) .

x x x

وقبل اختتام الحديث عن مصنفات ابن سعيد ، لابد من كلمة تحفظ وحذر ازاء هذا العدد الهائل من الكتب التى تنسب له . وربما امكنا تحليل هذه الظاهرة بملاحظة الامور التالية :

١ — ان ابن سعيد يفكر فى وضع كتاب كبير ويرسم له مخططا واسعا ، ثم ينشغل ويتناول الزمن فاذا لم تسعف الظروف العملية على تنفيذ الخطة تقاعس عن اتمامها ، بعد ان يكون قد اشار الى اسم الكتاب وفكرته فى مصنف سابق مما يؤدى الى ادخاله ضمن مؤلفاته الجاهزة .

٢ — وهو احيانا يختصر فكرته الى كتيب صغير اذا كانت الظروف ملحة كما فعل عندما اخج " المرقصات " و " الرايات " لينبوا مؤقتا عن " لمغرب " و " المشرق " فرما كانت معظم تلك الاسماء الواردة اشارة الى كتيبات من هذا النوع لم تتبع بالكتب الكبيرة الاصلية .

٣ — نرى ان ابن سعيد يسمي كل فصل فى مؤلفاته " كتابا " وهذا من شأنه ان يؤدى الى ايحاء النساخ والوراقين — فى حالة تبعض الكتاب الشامل — بان كل فصل يمثل كتابا قائما بذاته .

٤ — منهجه فى التأليف : طابعه وخصائصه :

يبدو طبع ابن سعيد فى القرن السابع وكأنه نقطة التقاء وتوفيق بين عدة مذاهب فى التصنيف بل بين عدة فروع من المعرفة . ففيه التقى تيار التاريخ الادبى الاندلسى المتمثل فى الفتح بن خافان وابن بسام وابن اليسع وابن الامام ، بتيار التصنيف الجغرافى الذى كان مستقلا فى مجراه ومتمثلا فى عبد الله بن عبد العزيز البكرى والشريف الادريسى وابن جبير . وهكذا نرى ربما لأول مرة فى تاريخ الثقافة الاندلسية عالما يجمع بعمق وشمول بين الجهود الادبيّة

وجهود الجغرافية والرحلات فيؤلف كتباً معتمدة في الأدب ، وكتاباً معتمدة أخرى في الجغرافية ، بل ويستطيع أن يوفق بين لتيارين بدقة كما أظهر في حسن تطبيقه لخطة المغرب وحسن إدراكه لمرامها وأهدافها تلك الخطة التي قامت على دمج متين بين التاريخ الأدبي والتصنيف الجغرافي — لا لغرض التنوع والاستطراء — ولكن بقصد خلق منهج دقيق يضع الشعر والشاعر في بيئته الجغرافية المحددة وفي زمانه الخاص وفي طبقة الاجتماعية المعنية . ولعل ابن سعيد في الاندلس يمثل من حيث هذا الدمج — الظاهرة التي يمثلها ياقوت الحموي في المشرق . فقد جمع هو الآخر بين الأدب والجغرافية بشكل موسوعي — وإن كان بطريقة الخاصة التي تختلف عن طريقة ابن سعيد ، خصوصاً فيما يتعلق بكتاب " معجم البلدان " ومن الطريف أن الاثنين كانا يعيشان في القرن السابع ( وإن كان ياقوت شهد جزءاً من القرن السابق ) وكان ظاهرة الالتقاء بين التصنيف الأدبي والتصنيف الجغرافي من المميزات الثقافية لهذا العصر بحيث ابرزت نفسها بشكل قوى واضح عند علمين من كبار مصنفيه ، وفي المشرق والمغرب على حد سواء .

وفي حقل التصنيف الأدبي نرى ابن سعيد أيضاً يمثل مذهبين في التصنيف . ففي المغرب سار على خطة التقسيم المكاني كما فعل ابن بسام في الذخيرة ، ولكنه لم يسمح للسجع أن يضع المادة العلمية الدقيقة الهائلة المتجمعة عنده فصب معلوماته في أسلوب موجز دقيق لا يتكلف سجعاً ولا تحلية لفظية ، والواقع أن ذلك من فضائل المغرب الكبرى فبالرغم من ظهوره في القرن السابع لم يسمح مكمل ابن سعيد لتلك الظاهرة الشكلية أن تسيطر عليه فهو برى تماماً من السجع عدا مقدمته .

غير أن ابن سعيد وفر براعة اللغوية وفنه النثري لكتب أخرى فنراه في " القدح " و " الفصون " يفتح التراجم بمقدمة سجعية ذاكراً فيها محاسن المترجم به وافضاله كما فعل من قبله الفتح في " المطمح " و " القلائد " وابن بسام في " الذخيرة " وابن الإمام في " سمط اللآلئ الجمال " وحتى في كتابي " القدح " و " الفصون " لم يؤثر السجع كثيراً على غزارة المادة العلمية فنرى العبارات المسجوعة ذاتها مليئة بالمعلومات المكثفة من مثل :



" شاعر مجيد ، وحبيب مجيد ، بيته في قرطاجنة من عمل مرسية مشهور ، وشعره يطوى الاقطار وذكره منشور ، وهو في نظمه طويل النفس منير القبس مقتدر على حوك الكلام مديد الباع في ميدان النظام ، لا يخلو من الالفاظ المبتدعة ، والمعاني المولدة المخترعة ، رحل الى المغرب فاشتهرت له به قصائد ، لم يخض نظمها من فرائد ، ثم قصد هذه الحضرة العلية ، في الدولة الاميرية ، فكانت له امداح ، كطلوع انوار الصباح ٠٠ " ( ١ )

فمن هذه المقدمة السجعية نستطيع ان نستخرج معلومات كثيرة عن المترجم به وموطنه ومذهبه في الشعر ورحلاته ومدائحه واتصالاته ، وذلك امر نادر في المقدمات السجعية الفارغة التي تحفل بها المصنفات القديمة ذات الصبغة الادبية عامة ، التي تمتاز بمبالغاتها وتضخيمها للمترجم بهم دون ان تقدم مادة تستحق الذكر . وهذه الصفة في مؤلفات ابن سعيد تستحق اعجاب الباحث الحديث بلا شك ، واذا جاز لنا ان نغسر عدم اسراف ابن سعيد في السجع المتكلف الفارغ ردونا ذلك الى تمكن الدقة العلمية - الجغرافية منه فهي تدعه يترك العنان لذوقه الادبي ولكنها لا تتركه يضحي بالمادة العلمية في سبيل عبارات منمقة .

هذا وقد لاحظنا ان ابن سعيد يعتمد على ثلاثة مصادر اساسية لمعلوماته : الكتب ، والرواية الشفوية ، والمشاهدة . وهذه <sup>الظاهر</sup> المصادر الثلاثة منجتمعة تعطى المصنفات ابن سعيد اهمية بالغة . فباخذه من المصنفات القديمة يحفظ نبذا مهمة من مصادر اولية قد تتعرض للضياع ، وباعتماده على الرواية الشفوية يقدم المعلومات ~~مع حذر~~ <sup>موثوقة</sup> مباشرة من افواه الذين تتعلق بهم وهذا ما يمتاز به " المغرب " و " القدح " على وجه العموم اما المشاهدة فان لها اهمية في الجغرافية من حيث وصف الطبيعة وال عمران وازياء الناس واداتهم وهذا ما فعله ابن سعيد ففي وصفه الاندلس بمقدمة " المغرب " ووصفه لمدينة مراكش والقاهرة والغسقاط .

ويتصف منهج ابن سعيد على العموم بالخصائص التالية :

- ١ - تحديد لخطته وغرضه بوضوح : عودنا ابن سعيد في كل كُتبه التي وردت اليها كاملة ان يحدد غرضه من تصنيف الكتاب وخطته في التصنيف . فهو يفعل ذلك في " الرايات " و " المقتطف " و " المرقصات " و " المغرب " وهو في الاغلب يتبع ما يخطط بدقة .
- ٢ - دقته في التقسيم والتبويب : وهذه ميزة بارزة في مصنفات ابن سعيد . فهو يقسم كتابه الى اجزاء رئيسية ثم يقسم تلك الاجزاء الى فصول وابواب حسيما يتطلبه الموضوع . ففي كتاب المغرب الخاص بالاندلس نراه يقسم الكتاب الى اقسامها الجغرافية الرئيسية . ثم يعود فيقسم تلك الاقسام الى ممالك والممالك الى مدن ، ويعتبر الحواضر عرائس لها منصفاتها وتيجانها وحليها واسلاكها واهدابها . وفي " المقتطف " نراه يقسم الكتاب حسب فصول السنة ثم يقسم الفصول الى خمائل بعد الشهور ، وفي " الغصون " نراه يقسم الكتاب حسب تواريخ الوفاة ، وفي المرقصات يتبع الترتيب المكانى والزمانى ، وفي " الرايات " يخضع لنهجه العام في " المغرب " . وهذه الدقة في التقسيم والتبويب تعكس ذهنيته المنظمة ، الميل الى الدقة التفصيلية ، كما تعكس تأثره باتجاه الميل نحو التبويب الدقيق الذى كان سائدا في حقل التصنيف عندئذ ، وهى من ناحية اخرى تظهر غرامه بالزخرف والتنميق كما فعل في " الزهر " المقتطف و " عرائس المغرب " .
- ٣ - حرصه على الاحاطة والشمول : يحرص ابن سعيد على ان تكون مصنفاته محيطه شاملة حتى المختصرة منها وهو بهذه النزعة يمثل الاتجاه السائد في عصره ايضا ، فلقد كانت امام المؤلفين عندئذ ماد ضخمة تتوزع في عالم واسع يمتد خلال تاريخ طويل حافل ، وكان لابد من الاحاطة والشمول لاعطاء الصورة كاملة . ويعبر ابن سعيد عن هذه النزعة في نفسه حين يقول : " كلما شرعت في مصنف لم تسمح نفسي بان اجعله صغيرا واخذ في استيفاء ما اجتمع لى من مواد . وابلخل ان اسقط منها ... " ( ١ ) .
- ٤ - حرصه على ذكر مصادره : هذه ظاهرة بارزة في مؤلفات ابن سعيد الكبرى الهامة خاصة كالمغرب والقندح والغصون . فابن سعيد اما ان يذكر اسم الكتاب الذى ينقل منه او اسم الشخص الذى يورى عنه او يقول : شاهدت كذا . او وقع لى كذا . ويندر

ان تجد خبرا في مصنفات ابن سعيد الهامة غير مسند .

٥ — امانته وحياده : تتضح امانة ابن سعيد في ذكره للوقائع مجردة حتم ولو لم في صالح بلده او اسرته او اصدقائه المقربين او اساتذته . فنراه يورد قول ابن وحقول عن ضعة نفوس الاندلسيين وصغر عقولهم بالتفصيل ، وقبل ان يرد عليه يقول : " لم اربدا من اصيات هذا الفصل وان كان على اهل بلدي فيه من الظلم والتعصب ما لا يخفى . . ( ١ ) " وهو عندما يترجم للامعي المخزومي يورد له هجاء مقذعا في اسرة بنى سعيد دون ان يعلق عليه ( ٢ ) وعندما يترجم لابن سهل لاسرائيلي نراه يسجل شكوكه حول عقيدته وان كان هو يرغب الاتكون هذه الشكوك صحيحة ( ٣ ) . ويحاول قد رجعه ان ينصف من يترجم لهم فنراه يذكر ما يشتهرون به من علم او كرم اخلاق بجانب ما عرف عنهم من غفلة ، او بلاهة ، او قبح منظر ، او نقائص اخلاقية ودينية . ويروي ابن سعيد ان الملك الناصر سألته : " كيف يكون منك غير متذرع بالاضين والمعاصرين ؟ فاجابه : " عهدي ( والدي ) الى الا انقل فيما اضيفه ذم احد بنشر ولا بنظم ولا اصنع مثل ذلك لحنق على احد او لفضول لسان " ( ٤ ) .

ويبدو احيانا ان تذكر الوقائع مجردا فيه اساة لمن يخصهم الامر غير ان اكثر الوقائع التي ذكرها ابن سعيد من هذا القبيل مكتتنا من فهم طبائع القوم ونفسياتهم . واذا كان ثمة مأخذ على ابن سعيد في هذا المجال فهو اسرافه احيانا في ذكر الفضائح الغلمانية لغرض الامتاع ليس غير دون ان تكون في الخبر في حد ذاته اشارة لعلم مترجم به وادبه . يتضح هذا المأخذ يشكله المضمخ في ترجمة ابن الياسمين في " الغصون " ( ٥ ) اذاورد اخبارا تنضح بالفحش وبأبائها الذوق واذا كانت تلك الاخبار مادة مفيدة لنا الان فان نشرها عندئذ في كتاب ليس باقل من تشهير علني في شخص لم يمر عليه وفاته اكثر من ثلث قرن .

( ١ ) — النسخ ١٩٢/١

( ٢ ) — القلعة المغرب ٢٢٦/١

( ٣ ) — القدح ٧٤

( ٤ ) — المقتطف ورقة ٣

( ٥ ) — الغصون ٤٢ — ٥٠

ولاندرى ان كانت تلك الاخبار مرغوبة لدى الناس الى هذه الدرجة عندئذ اوان  
"حسن الرواية" سيطر على ابن سعيد بسبب ضخامته ~~مروياته~~ ~~مروياته~~ ~~مروياته~~ فاصبح لا يقاوم  
الرغبة فى تسجيل كل ما حصل عليه من مادة • وايا كان الامر فان ابن سعيد عادة لا يهتم  
بتعمد التشهير او الاساءة وربما كان ما يذكره حقائق معروفة فى زمنه •

٦ — ميله الى التقييم والحكم : ولا يتبادر الى اذهاننا ان ذلك مناقض لما اوردناه عن امانته  
وحيايه فان ابن سعيد يروى لنا كل شىء خيرا او شرا • ولكنه فى الوقت ذاته يحرص  
على ان ينقل لنا رأيه وانطباعه او تقيومه للشعر او الشخص او الخبر فهو مشغول  
يعلق على شعر استاذ الشلوينى بقوله : " وشعره على تقدمه فى العربية فى  
نهاية التخلف " (١) ويصف خلق استاذ البطليوس ابي بقوله : " ولم ار فى اشياخ  
الادب اصعب خلقا منه " (٢) • ويصف خلق ابي الحجاج بن عتبة الوشاح قائلا :  
كان ظاهر الهج ، وافر الانزعاج • • وكان مشاركا فى الطب والادب حائزا باسبابهما (٣)  
فتراه هنا يذكر رأيه فى الرجل ولكنه ينصفه بذكر مواهبه مما يدل على ان حكمه وتقييماته  
لاتمنعه من ذكر الحقيقة •

#### ٥ — أهمية مؤلفاته ومكانته العلمية

نوجز أهمية مصنفات ابن سعيد فيما يتعلق بالدراسات الحديثة ، فيما يلى :

١ — يعتبر كتابه المغرب اهم مصدر للادب لاندلسى عبر عصوره وخاصة فى عهد الموحدين  
فالمادة الشعرية الكبيرة التى يوردها والاخبار التاريخية والثقافية والعمرائية التى يذكرها  
تمثل مستندا اوليا هاما لاي دراسة للثقافة الاندلسية او الشعر الاندلسى او ما سياتى  
وانزل فى الاندلس •

٢ — ان كتابه " القدح " بما يعتمد عليه من رواية شفوية مباشرة يعتبر وثيقة هامة لدراسة الحركة  
الثقافية فى اشبيلية خاصة والاندلس عامة •

(١) — المغرب ٢ / ١٢٩

(٢) — المصدر السابق ١ / ١٦٩

(٣) — القدح ١٦١

- ٣ — يمكن اعتبار كتابه " الفصون " فى طليعة المصادر التى يرجع اليها فى دراسة الشعراء والعلماء الذين اورد تراجمهم بسبب اعتماده على عدة اصول اقدم منه بالاضافة الى الاستعانة بالرواية الشفوية .
- ٤ — نلاحظ ان ما ذكره ابن خلدون فى مقدمته عن الموشحات — وهو من المراجع الهامة لدراسة الموشح الاندلسى — نقله ابن خلدون بدوره عن " المقتطف من ازاهر الطرف " لابن سعيد الذى استقاه من مسهب الحجارى ، وهو لم يصل الينا .
- ٥ — حفظ لنا ابن سعيد فى مصنفاته الجغرافية اقوالا لجغرافيين لم يصل اى شخص عنهم كابن فطاطمة الذى تعتبر مصادر ابن سعيد المستند الاوحد لدراسته .
- ٦ — يمكن استخدام كتب ابن سعيد وخاصة المغرب ( القسم الاندلسى والقسم المصرى ) فى تحقيق المصادر القديمة التى اخذ منها كالاستيعاب والذخيرة وتاريخ ابن حيان ، وفى الوقت ذاته يمكن الاستفادة منها فى تحقيق المصادر التى الفت من بعده كصبح الاعشى ونفح الطيب .
- واذا كانت مؤلفات ابن سعيد تمثل هذه الاهمية بالنسبة للباحث الحديث ، فان المصنفين القدامى لم يجدوها اقل فائدة او اهمية . وفى طليعة هؤلاء ابو الفداء والعمرى وابن دقماق والمقرئ والقلقشندي والمقرئ . فقد اعتمد كل واحد من هؤلاء فى اعماله العلمية على مصنفات ابن سعيد ، فاعتمد ابو الفداء اعتمادا كبيرا فى كتابه " تقويم البلدان " على ما خلفه ابن سعيد من معلومات عن بلاد المغرب ، واذا كان ابو الفداء قد شك فى بعض ما نقله عنه فان ذلك لا يقلل من اهمية المادة التى استقاهها منه .
- اما القلقشندي فانه اعتمد على ابن سعيد فى مؤلفاته الثلاثة : فرائد الجمان ، ونهاية الارب ، وموسوعة : صبح الاعشى ، خاصة فيما يتعلق بانساب الشعوب

والقبائل وفيما يختص بمواقع المدن (١) . وإذا قلنا ان المغرب هو المصدر الاول والاوسع للنفع فانا لا نتجاوز الحقيقة فالمواضع التي ينقل فيها المقرئ عن ابن سعيد وذكره كثيرة<sup>(٢)</sup> ، اما المواضع التي يغفل ذكره فيها فهي اكثر . ويشير الدكتور شوقي ضيف الى هذه المسألة قائلا : " ومجرد ان يخرج هذا النص ( اى المغرب ) للباحثين ميرون رأى العين ان " نفع الطيب " اذا استثنينا مقدمة المقرئ عن رحلته الى المشرق وبعض من ترجم لهم ممن حجوا البيت لحرام وما كتبه عن اخراج المسلمين من الاندلس ليس الا نقولا عن " المغرب " . . . ونحن انما نلفت النظر الى ذلك ليتضح ان هذا النص يحمل بين دفتيه الاصل الحقيقي لما فى " نفع الطيب " من اشعار الشعراء واخبارهم حتى ينتفع به من اخراج نشرة جديدة " للنفع " تخلو من الاغلاط والاختاء " (٣)

- (١) — انظر : القلقشندي ، فلك الجمان فى التعريف بعرب الزمان ، ص : ٢٧ ٢٨ ٢٩ ٣٠ ٣٢ ٤٧ ٥١ ٥٢ ١١٨ ١٢٠ ١٢٢ ، وكذلك نهاية الارب ص : ٢٧ ٢٨ ٤٠ ٤١ ، وكذلك صبح الاعشى ج ٣ ٢٣٥ ٢٤٠ ٢٤٢ ٢٤٥ ٢٤٦ ٢٤٨ ٢٩٠ ٣٣٠ ٣٤٨ ٣٩٢ ٣٩٥ ٤٠١ ٤٠٦ ٤٠٦ ج ٤ ٩٨ ١٠٧ ١١١ ١١٢ ١٢٤ ٣٢٠ ٣٢١ ٣٢٢ ٣٢٣ ٣٢٤ ٣٢٥ ٣٢٦ ٣٢٧ ٣٢٨ ٣٢٩ ٣٣٠ ٣٣١ ٣٣٢ ٣٣٣ ٣٣٤ ٣٣٥ ٣٣٦ ٣٣٧ ٣٣٨ ٣٣٩ ٣٤٠ ٣٤١ ٣٤٢ ٣٤٣ ٣٤٤ ٣٤٥ ٣٤٦ ٣٤٧ ٣٤٨ ٣٤٩ ٣٥٠ ٣٥١ ٣٥٢ ٣٥٣ ٣٥٤ ٣٥٥ ٣٥٦ ٣٥٧ ٣٥٨ ٣٥٩ ٣٦٠ ٣٦١ ٣٦٢ ٣٦٣ ٣٦٤ ٣٦٥ ٣٦٦ ٣٦٧ ٣٦٨ ٣٦٩ ٣٧٠ ٣٧١ ٣٧٢ ٣٧٣ ٣٧٤ ٣٧٥ ٣٧٦ ٣٧٧ ٣٧٨ ٣٧٩ ٣٨٠ ٣٨١ ٣٨٢ ٣٨٣ ٣٨٤ ٣٨٥ ٣٨٦ ٣٨٧ ٣٨٨ ٣٨٩ ٣٩٠ ٣٩١ ٣٩٢ ٣٩٣ ٣٩٤ ٣٩٥ ٣٩٦ ٣٩٧ ٣٩٨ ٣٩٩ ٤٠٠ ٤٠١ ٤٠٢ ٤٠٣ ٤٠٤ ٤٠٥ ٤٠٦ ٤٠٧ ٤٠٨ ٤٠٩ ٤١٠ ٤١١ ٤١٢ ٤١٣ ٤١٤ ٤١٥ ٤١٦ ٤١٧ ٤١٨ ٤١٩ ٤٢٠ ٤٢١ ٤٢٢ ٤٢٣ ٤٢٤ ٤٢٥ ٤٢٦ ٤٢٧ ٤٢٨ ٤٢٩ ٤٣٠ ٤٣١ ٤٣٢ ٤٣٣ ٤٣٤ ٤٣٥ ٤٣٦ ٤٣٧ ٤٣٨ ٤٣٩ ٤٤٠ ٤٤١ ٤٤٢ ٤٤٣ ٤٤٤ ٤٤٥ ٤٤٦ ٤٤٧ ٤٤٨ ٤٤٩ ٤٥٠ ٤٥١ ٤٥٢ ٤٥٣ ٤٥٤ ٤٥٥ ٤٥٦ ٤٥٧ ٤٥٨ ٤٥٩ ٤٦٠ ٤٦١ ٤٦٢ ٤٦٣ ٤٦٤ ٤٦٥ ٤٦٦ ٤٦٧ ٤٦٨ ٤٦٩ ٤٧٠ ٤٧١ ٤٧٢ ٤٧٣ ٤٧٤ ٤٧٥ ٤٧٦ ٤٧٧ ٤٧٨ ٤٧٩ ٤٨٠ ٤٨١ ٤٨٢ ٤٨٣ ٤٨٤ ٤٨٥ ٤٨٦ ٤٨٧ ٤٨٨ ٤٨٩ ٤٩٠ ٤٩١ ٤٩٢ ٤٩٣ ٤٩٤ ٤٩٥ ٤٩٦ ٤٩٧ ٤٩٨ ٤٩٩ ٥٠٠ ٥٠١ ٥٠٢ ٥٠٣ ٥٠٤ ٥٠٥ ٥٠٦ ٥٠٧ ٥٠٨ ٥٠٩ ٥١٠ ٥١١ ٥١٢ ٥١٣ ٥١٤ ٥١٥ ٥١٦ ٥١٧ ٥١٨ ٥١٩ ٥٢٠ ٥٢١ ٥٢٢ ٥٢٣ ٥٢٤ ٥٢٥ ٥٢٦ ٥٢٧ ٥٢٨ ٥٢٩ ٥٣٠ ٥٣١ ٥٣٢ ٥٣٣ ٥٣٤ ٥٣٥ ٥٣٦ ٥٣٧ ٥٣٨ ٥٣٩ ٥٤٠ ٥٤١ ٥٤٢ ٥٤٣ ٥٤٤ ٥٤٥ ٥٤٦ ٥٤٧ ٥٤٨ ٥٤٩ ٥٥٠ ٥٥١ ٥٥٢ ٥٥٣ ٥٥٤ ٥٥٥ ٥٥٦ ٥٥٧ ٥٥٨ ٥٥٩ ٥٦٠ ٥٦١ ٥٦٢ ٥٦٣ ٥٦٤ ٥٦٥ ٥٦٦ ٥٦٧ ٥٦٨ ٥٦٩ ٥٧٠ ٥٧١ ٥٧٢ ٥٧٣ ٥٧٤ ٥٧٥ ٥٧٦ ٥٧٧ ٥٧٨ ٥٧٩ ٥٨٠ ٥٨١ ٥٨٢ ٥٨٣ ٥٨٤ ٥٨٥ ٥٨٦ ٥٨٧ ٥٨٨ ٥٨٩ ٥٩٠ ٥٩١ ٥٩٢ ٥٩٣ ٥٩٤ ٥٩٥ ٥٩٦ ٥٩٧ ٥٩٨ ٥٩٩ ٦٠٠ ٦٠١ ٦٠٢ ٦٠٣ ٦٠٤ ٦٠٥ ٦٠٦ ٦٠٧ ٦٠٨ ٦٠٩ ٦١٠ ٦١١ ٦١٢ ٦١٣ ٦١٤ ٦١٥ ٦١٦ ٦١٧ ٦١٨ ٦١٩ ٦٢٠ ٦٢١ ٦٢٢ ٦٢٣ ٦٢٤ ٦٢٥ ٦٢٦ ٦٢٧ ٦٢٨ ٦٢٩ ٦٣٠ ٦٣١ ٦٣٢ ٦٣٣ ٦٣٤ ٦٣٥ ٦٣٦ ٦٣٧ ٦٣٨ ٦٣٩ ٦٤٠ ٦٤١ ٦٤٢ ٦٤٣ ٦٤٤ ٦٤٥ ٦٤٦ ٦٤٧ ٦٤٨ ٦٤٩ ٦٥٠ ٦٥١ ٦٥٢ ٦٥٣ ٦٥٤ ٦٥٥ ٦٥٦ ٦٥٧ ٦٥٨ ٦٥٩ ٦٦٠ ٦٦١ ٦٦٢ ٦٦٣ ٦٦٤ ٦٦٥ ٦٦٦ ٦٦٧ ٦٦٨ ٦٦٩ ٦٧٠ ٦٧١ ٦٧٢ ٦٧٣ ٦٧٤ ٦٧٥ ٦٧٦ ٦٧٧ ٦٧٨ ٦٧٩ ٦٨٠ ٦٨١ ٦٨٢ ٦٨٣ ٦٨٤ ٦٨٥ ٦٨٦ ٦٨٧ ٦٨٨ ٦٨٩ ٦٩٠ ٦٩١ ٦٩٢ ٦٩٣ ٦٩٤ ٦٩٥ ٦٩٦ ٦٩٧ ٦٩٨ ٦٩٩ ٧٠٠ ٧٠١ ٧٠٢ ٧٠٣ ٧٠٤ ٧٠٥ ٧٠٦ ٧٠٧ ٧٠٨ ٧٠٩ ٧١٠ ٧١١ ٧١٢ ٧١٣ ٧١٤ ٧١٥ ٧١٦ ٧١٧ ٧١٨ ٧١٩ ٧٢٠ ٧٢١ ٧٢٢ ٧٢٣ ٧٢٤ ٧٢٥ ٧٢٦ ٧٢٧ ٧٢٨ ٧٢٩ ٧٣٠ ٧٣١ ٧٣٢ ٧٣٣ ٧٣٤ ٧٣٥ ٧٣٦ ٧٣٧ ٧٣٨ ٧٣٩ ٧٤٠ ٧٤١ ٧٤٢ ٧٤٣ ٧٤٤ ٧٤٥ ٧٤٦ ٧٤٧ ٧٤٨ ٧٤٩ ٧٥٠ ٧٥١ ٧٥٢ ٧٥٣ ٧٥٤ ٧٥٥ ٧٥٦ ٧٥٧ ٧٥٨ ٧٥٩ ٧٦٠ ٧٦١ ٧٦٢ ٧٦٣ ٧٦٤ ٧٦٥ ٧٦٦ ٧٦٧ ٧٦٨ ٧٦٩ ٧٧٠ ٧٧١ ٧٧٢ ٧٧٣ ٧٧٤ ٧٧٥ ٧٧٦ ٧٧٧ ٧٧٨ ٧٧٩ ٧٨٠ ٧٨١ ٧٨٢ ٧٨٣ ٧٨٤ ٧٨٥ ٧٨٦ ٧٨٧ ٧٨٨ ٧٨٩ ٧٩٠ ٧٩١ ٧٩٢ ٧٩٣ ٧٩٤ ٧٩٥ ٧٩٦ ٧٩٧ ٧٩٨ ٧٩٩ ٨٠٠ ٨٠١ ٨٠٢ ٨٠٣ ٨٠٤ ٨٠٥ ٨٠٦ ٨٠٧ ٨٠٨ ٨٠٩ ٨١٠ ٨١١ ٨١٢ ٨١٣ ٨١٤ ٨١٥ ٨١٦ ٨١٧ ٨١٨ ٨١٩ ٨٢٠ ٨٢١ ٨٢٢ ٨٢٣ ٨٢٤ ٨٢٥ ٨٢٦ ٨٢٧ ٨٢٨ ٨٢٩ ٨٣٠ ٨٣١ ٨٣٢ ٨٣٣ ٨٣٤ ٨٣٥ ٨٣٦ ٨٣٧ ٨٣٨ ٨٣٩ ٨٤٠ ٨٤١ ٨٤٢ ٨٤٣ ٨٤٤ ٨٤٥ ٨٤٦ ٨٤٧ ٨٤٨ ٨٤٩ ٨٥٠ ٨٥١ ٨٥٢ ٨٥٣ ٨٥٤ ٨٥٥ ٨٥٦ ٨٥٧ ٨٥٨ ٨٥٩ ٨٦٠ ٨٦١ ٨٦٢ ٨٦٣ ٨٦٤ ٨٦٥ ٨٦٦ ٨٦٧ ٨٦٨ ٨٦٩ ٨٧٠ ٨٧١ ٨٧٢ ٨٧٣ ٨٧٤ ٨٧٥ ٨٧٦ ٨٧٧ ٨٧٨ ٨٧٩ ٨٨٠ ٨٨١ ٨٨٢ ٨٨٣ ٨٨٤ ٨٨٥ ٨٨٦ ٨٨٧ ٨٨٨ ٨٨٩ ٨٩٠ ٨٩١ ٨٩٢ ٨٩٣ ٨٩٤ ٨٩٥ ٨٩٦ ٨٩٧ ٨٩٨ ٨٩٩ ٩٠٠ ٩٠١ ٩٠٢ ٩٠٣ ٩٠٤ ٩٠٥ ٩٠٦ ٩٠٧ ٩٠٨ ٩٠٩ ٩١٠ ٩١١ ٩١٢ ٩١٣ ٩١٤ ٩١٥ ٩١٦ ٩١٧ ٩١٨ ٩١٩ ٩٢٠ ٩٢١ ٩٢٢ ٩٢٣ ٩٢٤ ٩٢٥ ٩٢٦ ٩٢٧ ٩٢٨ ٩٢٩ ٩٣٠ ٩٣١ ٩٣٢ ٩٣٣ ٩٣٤ ٩٣٥ ٩٣٦ ٩٣٧ ٩٣٨ ٩٣٩ ٩٤٠ ٩٤١ ٩٤٢ ٩٤٣ ٩٤٤ ٩٤٥ ٩٤٦ ٩٤٧ ٩٤٨ ٩٤٩ ٩٥٠ ٩٥١ ٩٥٢ ٩٥٣ ٩٥٤ ٩٥٥ ٩٥٦ ٩٥٧ ٩٥٨ ٩٥٩ ٩٦٠ ٩٦١ ٩٦٢ ٩٦٣ ٩٦٤ ٩٦٥ ٩٦٦ ٩٦٧ ٩٦٨ ٩٦٩ ٩٧٠ ٩٧١ ٩٧٢ ٩٧٣ ٩٧٤ ٩٧٥ ٩٧٦ ٩٧٧ ٩٧٨ ٩٧٩ ٩٨٠ ٩٨١ ٩٨٢ ٩٨٣ ٩٨٤ ٩٨٥ ٩٨٦ ٩٨٧ ٩٨٨ ٩٨٩ ٩٩٠ ٩٩١ ٩٩٢ ٩٩٣ ٩٩٤ ٩٩٥ ٩٩٦ ٩٩٧ ٩٩٨ ٩٩٩ ١٠٠٠ ١٠٠١ ١٠٠٢ ١٠٠٣ ١٠٠٤ ١٠٠٥ ١٠٠٦ ١٠٠٧ ١٠٠٨ ١٠٠٩ ١٠١٠ ١٠١١ ١٠١٢ ١٠١٣ ١٠١٤ ١٠١٥ ١٠١٦ ١٠١٧ ١٠١٨ ١٠١٩ ١٠٢٠ ١٠٢١ ١٠٢٢ ١٠٢٣ ١٠٢٤ ١٠٢٥ ١٠٢٦ ١٠٢٧ ١٠٢٨ ١٠٢٩ ١٠٣٠ ١٠٣١ ١٠٣٢ ١٠٣٣ ١٠٣٤ ١٠٣٥ ١٠٣٦ ١٠٣٧ ١٠٣٨ ١٠٣٩ ١٠٤٠ ١٠٤١ ١٠٤٢ ١٠٤٣ ١٠٤٤ ١٠٤٥ ١٠٤٦ ١٠٤٧ ١٠٤٨ ١٠٤٩ ١٠٥٠ ١٠٥١ ١٠٥٢ ١٠٥٣ ١٠٥٤ ١٠٥٥ ١٠٥٦ ١٠٥٧ ١٠٥٨ ١٠٥٩ ١٠٦٠ ١٠٦١ ١٠٦٢ ١٠٦٣ ١٠٦٤ ١٠٦٥ ١٠٦٦ ١٠٦٧ ١٠٦٨ ١٠٦٩ ١٠٧٠ ١٠٧١ ١٠٧٢ ١٠٧٣ ١٠٧٤ ١٠٧٥ ١٠٧٦ ١٠٧٧ ١٠٧٨ ١٠٧٩ ١٠٨٠ ١٠٨١ ١٠٨٢ ١٠٨٣ ١٠٨٤ ١٠٨٥ ١٠٨٦ ١٠٨٧ ١٠٨٨ ١٠٨٩ ١٠٩٠ ١٠٩١ ١٠٩٢ ١٠٩٣ ١٠٩٤ ١٠٩٥ ١٠٩٦ ١٠٩٧ ١٠٩٨ ١٠٩٩ ١١٠٠ ١١٠١ ١١٠٢ ١١٠٣ ١١٠٤ ١١٠٥ ١١٠٦ ١١٠٧ ١١٠٨ ١١٠٩ ١١١٠ ١١١١ ١١١٢ ١١١٣ ١١١٤ ١١١٥ ١١١٦ ١١١٧ ١١١٨ ١١١٩ ١١٢٠ ١١٢١ ١١٢٢ ١١٢٣ ١١٢٤ ١١٢٥ ١١٢٦ ١١٢٧ ١١٢٨ ١١٢٩ ١١٣٠ ١١٣١ ١١٣٢ ١١٣٣ ١١٣٤ ١١٣٥ ١١٣٦ ١١٣٧ ١١٣٨ ١١٣٩ ١١٤٠ ١١٤١ ١١٤٢ ١١٤٣ ١١٤٤ ١١٤٥ ١١٤٦ ١١٤٧ ١١٤٨ ١١٤٩ ١١٥٠ ١١٥١ ١١٥٢ ١١٥٣ ١١٥٤ ١١٥٥ ١١٥٦ ١١٥٧ ١١٥٨ ١١٥٩ ١١٦٠ ١١٦١ ١١٦٢ ١١٦٣ ١١٦٤ ١١٦٥ ١١٦٦ ١١٦٧ ١١٦٨ ١١٦٩ ١١٧٠ ١١٧١ ١١٧٢ ١١٧٣ ١١٧٤ ١١٧٥ ١١٧٦ ١١٧٧ ١١٧٨ ١١٧٩ ١١٨٠ ١١٨١ ١١٨٢ ١١٨٣ ١١٨٤ ١١٨٥ ١١٨٦ ١١٨٧ ١١٨٨ ١١٨٩ ١١٩٠ ١١٩١ ١١٩٢ ١١٩٣ ١١٩٤ ١١٩٥ ١١٩٦ ١١٩٧ ١١٩٨ ١١٩٩ ١٢٠٠ ١٢٠١ ١٢٠٢ ١٢٠٣ ١٢٠٤ ١٢٠٥ ١٢٠٦ ١٢٠٧ ١٢٠٨ ١٢٠٩ ١٢١٠ ١٢١١ ١٢١٢ ١٢١٣ ١٢١٤ ١٢١٥ ١٢١٦ ١٢١٧ ١٢١٨ ١٢١٩ ١٢٢٠ ١٢٢١ ١٢٢٢ ١٢٢٣ ١٢٢٤ ١٢٢٥ ١٢٢٦ ١٢٢٧ ١٢٢٨ ١٢٢٩ ١٢٣٠ ١٢٣١ ١٢٣٢ ١٢٣٣ ١٢٣٤ ١٢٣٥ ١٢٣٦ ١٢٣٧ ١٢٣٨ ١٢٣٩ ١٢٤٠ ١٢٤١ ١٢٤٢ ١٢٤٣ ١٢٤٤ ١٢٤٥ ١٢٤٦ ١٢٤٧ ١٢٤٨ ١٢٤٩ ١٢٥٠ ١٢٥١ ١٢٥٢ ١٢٥٣ ١٢٥٤ ١٢٥٥ ١٢٥٦ ١٢٥٧ ١٢٥٨ ١٢٥٩ ١٢٦٠ ١٢٦١ ١٢٦٢ ١٢٦٣ ١٢٦٤ ١٢٦٥ ١٢٦٦ ١٢٦٧ ١٢٦٨ ١٢٦٩ ١٢٧٠ ١٢٧١ ١٢٧٢ ١٢٧٣ ١٢٧٤ ١٢٧٥ ١٢٧٦ ١٢٧٧ ١٢٧٨ ١٢٧٩ ١٢٨٠ ١٢٨١ ١٢٨٢ ١٢٨٣ ١٢٨٤ ١٢٨٥ ١٢٨٦ ١٢٨٧ ١٢٨٨ ١٢٨٩ ١٢٩٠ ١٢٩١ ١٢٩٢ ١٢٩٣ ١٢٩٤ ١٢٩٥ ١٢٩٦ ١٢٩٧ ١٢٩٨ ١٢٩٩ ١٣٠٠ ١٣٠١ ١٣٠٢ ١٣٠٣ ١٣٠٤ ١٣٠٥ ١٣٠٦ ١٣٠٧ ١٣٠٨ ١٣٠٩ ١٣١٠ ١٣١١ ١٣١٢ ١٣١٣ ١٣١٤ ١٣١٥ ١٣١٦ ١٣١٧ ١٣١٨ ١٣١٩ ١٣٢٠ ١٣٢١ ١٣٢٢ ١٣٢٣ ١٣٢٤ ١٣٢٥ ١٣٢٦ ١٣٢٧ ١٣٢٨ ١٣٢٩ ١٣٣٠ ١٣٣١ ١٣٣٢ ١٣٣٣ ١٣٣٤ ١٣٣٥ ١٣٣٦ ١٣٣٧ ١٣٣٨ ١٣٣٩ ١٣٤٠ ١٣٤١ ١٣٤٢ ١٣٤٣ ١٣٤٤ ١٣٤٥ ١٣٤٦ ١٣٤٧ ١٣٤٨ ١٣٤٩ ١٣٥٠ ١٣٥١ ١٣٥٢ ١٣٥٣ ١٣٥٤ ١٣٥٥ ١٣٥٦ ١٣٥٧ ١٣٥٨ ١٣٥٩ ١٣٦٠ ١٣٦١ ١٣٦٢ ١٣٦٣ ١٣٦٤ ١٣٦٥ ١٣٦٦ ١٣٦٧ ١٣٦٨ ١٣٦٩ ١٣٧٠ ١٣٧١ ١٣٧٢ ١٣٧٣ ١٣٧٤ ١٣٧٥ ١٣٧٦ ١٣٧٧ ١٣٧٨ ١٣٧٩ ١٣٨٠ ١٣٨١ ١٣٨٢ ١٣٨٣ ١٣٨٤ ١٣٨٥ ١٣٨٦ ١٣٨٧ ١٣٨٨ ١٣٨٩ ١٣٩٠ ١٣٩١ ١٣٩٢ ١٣٩٣ ١٣٩٤ ١٣٩٥ ١٣٩٦ ١٣٩٧ ١٣٩٨ ١٣٩٩ ١٤٠٠ ١٤٠١ ١٤٠٢ ١٤٠٣ ١٤٠٤ ١٤٠٥ ١٤٠٦ ١٤٠٧ ١٤٠٨ ١٤٠٩ ١٤١٠ ١٤١١ ١٤١٢ ١٤١٣ ١٤١٤ ١٤١٥ ١٤١٦ ١٤١٧ ١٤١٨ ١٤١٩ ١٤٢٠ ١٤٢١ ١٤٢٢ ١٤٢٣ ١٤٢٤ ١٤٢٥ ١٤٢٦ ١٤٢٧ ١٤٢٨ ١٤٢٩ ١٤٣٠ ١٤٣١ ١٤٣٢ ١٤٣٣ ١٤٣٤ ١٤٣٥ ١٤٣٦ ١٤٣٧ ١٤٣٨ ١٤٣٩ ١٤٤٠ ١٤٤١ ١٤٤٢ ١٤٤٣ ١٤٤٤ ١٤٤٥ ١٤٤٦ ١٤٤٧ ١٤٤٨ ١٤٤٩ ١٤٥٠ ١٤٥١ ١٤٥٢ ١٤٥٣ ١٤٥٤ ١٤٥٥ ١٤٥٦ ١٤٥٧ ١٤٥٨ ١٤٥٩ ١٤٦٠ ١٤٦١ ١٤٦٢ ١٤٦٣ ١٤٦٤ ١٤٦٥ ١٤٦٦ ١٤٦٧ ١٤٦٨ ١٤٦٩ ١٤٧٠ ١٤٧١ ١٤٧٢ ١٤٧٣ ١٤٧٤ ١٤٧٥ ١٤٧٦ ١٤٧٧ ١٤٧٨ ١٤٧٩ ١٤٨٠ ١٤٨١ ١٤٨٢ ١٤٨٣ ١٤٨٤ ١٤٨٥ ١٤٨٦ ١٤٨٧ ١٤٨٨ ١٤٨٩ ١٤٩٠ ١٤٩١ ١٤٩٢ ١٤٩٣ ١٤٩٤ ١٤٩٥ ١٤٩٦ ١٤٩٧ ١٤٩٨ ١٤٩٩ ١٥٠٠ ١٥٠١ ١٥٠٢ ١٥٠٣ ١٥٠٤ ١٥٠٥ ١٥٠٦ ١٥٠٧ ١٥٠٨ ١٥٠٩ ١٥١٠ ١٥١١ ١٥١٢ ١٥١٣ ١٥١٤ ١٥١٥ ١٥١٦ ١٥١٧ ١٥١٨ ١٥١٩ ١٥٢٠ ١٥٢١ ١٥٢٢ ١٥٢٣ ١٥٢٤ ١٥٢٥ ١٥٢٦ ١٥٢٧ ١٥٢٨ ١٥٢٩ ١٥٣٠ ١٥٣١ ١٥٣٢ ١٥٣٣ ١٥٣٤ ١٥٣٥ ١٥٣٦ ١٥٣٧ ١٥٣٨ ١٥٣٩ ١٥٤٠ ١٥٤١ ١٥٤٢ ١٥٤٣ ١٥٤٤ ١٥٤٥ ١٥٤٦ ١٥٤٧ ١٥٤٨ ١٥٤٩ ١٥٥٠ ١٥٥١ ١٥٥٢ ١٥٥٣ ١٥٥٤ ١٥٥٥ ١٥٥٦ ١٥٥٧ ١٥٥٨ ١٥٥٩ ١٥٦٠ ١٥٦١ ١٥٦٢ ١٥٦٣ ١٥٦٤ ١٥٦٥ ١٥٦٦ ١٥٦٧ ١٥٦٨ ١٥٦٩ ١٥٧٠ ١٥٧١ ١٥٧٢ ١٥٧٣ ١٥٧٤ ١٥٧٥ ١٥٧٦ ١٥٧٧ ١٥٧٨ ١٥٧٩ ١٥٨٠ ١٥٨١ ١٥٨٢ ١٥٨٣ ١٥٨٤ ١٥٨٥ ١٥٨٦ ١٥٨٧ ١٥٨٨ ١٥٨٩ ١٥٩٠ ١٥٩١ ١٥٩٢ ١٥٩٣ ١٥٩٤ ١٥٩٥ ١٥٩٦ ١٥٩٧ ١٥٩٨ ١٥٩٩ ١٦٠٠ ١٦٠١ ١٦٠٢ ١٦٠٣ ١٦٠٤ ١٦٠٥ ١٦٠٦ ١٦٠٧ ١٦٠٨ ١٦٠٩ ١٦١٠ ١٦١١ ١٦١٢ ١٦١٣ ١٦١٤ ١٦١٥ ١٦١٦ ١٦١٧ ١٦١٨ ١٦١٩ ١٦٢٠ ١٦٢١ ١٦٢٢ ١٦٢٣ ١٦٢٤ ١٦٢٥ ١٦٢٦ ١٦٢٧ ١٦٢٨ ١٦٢٩ ١٦٣٠ ١٦٣١ ١٦٣٢ ١٦٣٣ ١٦٣٤ ١٦٣٥ ١٦٣٦ ١٦٣٧ ١٦٣٨ ١٦٣٩ ١٦٤٠ ١٦٤١ ١٦٤٢ ١٦٤٣ ١٦٤٤ ١٦٤٥ ١٦٤٦ ١٦٤٧ ١٦٤٨ ١٦٤٩ ١٦٥٠ ١٦٥١ ١٦٥٢ ١٦٥٣ ١٦٥٤ ١٦٥٥ ١٦٥٦ ١٦٥٧ ١٦٥٨ ١٦٥٩ ١٦٦٠ ١٦٦١ ١٦٦٢ ١٦٦٣ ١٦٦٤ ١٦٦٥ ١٦٦٦ ١٦٦٧ ١٦٦٨ ١٦٦٩ ١٦٧٠ ١٦٧١ ١٦٧٢ ١٦٧٣ ١٦٧٤ ١٦٧٥ ١٦٧٦ ١٦٧٧ ١٦٧٨ ١٦٧٩ ١٦٨٠ ١٦٨١ ١٦٨٢ ١٦٨٣ ١٦٨٤ ١٦٨٥ ١٦٨٦ ١٦٨٧ ١٦٨٨ ١٦٨٩ ١٦٩٠ ١٦٩١ ١٦٩٢ ١٦٩٣ ١٦٩٤ ١٦٩٥ ١٦٩٦ ١٦٩٧ ١٦٩٨ ١٦٩٩ ١٧٠٠ ١٧٠١ ١٧٠٢ ١٧٠٣ ١٧٠٤ ١٧٠٥ ١٧٠٦ ١٧٠٧ ١٧٠٨ ١٧٠٩ ١٧١٠ ١٧١١ ١٧١٢ ١٧١٣ ١٧١٤ ١٧١٥ ١٧١٦ ١٧١٧ ١٧١٨ ١٧١٩ ١٧٢٠ ١٧٢١ ١٧٢٢ ١٧٢٣ ١٧٢٤ ١٧٢٥ ١٧٢٦ ١٧٢٧ ١٧٢٨ ١٧٢٩ ١٧٣٠ ١٧٣١ ١٧٣٢ ١٧٣٣ ١٧٣٤ ١٧٣٥ ١٧٣٦ ١٧٣٧ ١٧٣٨ ١٧٣٩ ١٧٤٠ ١٧٤١ ١٧٤٢ ١٧٤٣ ١٧٤٤ ١٧٤٥ ١٧٤٦ ١٧٤٧ ١٧٤٨ ١٧٤٩ ١٧٥٠ ١٧٥١ ١٧٥٢ ١٧٥٣ ١٧٥٤ ١٧٥٥ ١٧٥٦ ١٧٥٧ ١٧٥٨ ١٧٥٩ ١٧٦٠ ١٧٦١ ١٧٦٢ ١٧٦٣ ١٧٦٤ ١٧٦٥ ١٧٦٦ ١٧٦٧ ١٧٦٨ ١٧٦٩ ١٧٧٠ ١٧٧١ ١٧٧٢ ١٧٧٣ ١٧٧٤ ١٧٧٥ ١٧٧٦ ١٧٧٧ ١٧٧٨ ١٧٧٩ ١٧٨٠

وقد اكتسب ابن سعيد شهرة كبيرة بسبب مصنفاته الهامة ، فاحتفل به جميع من صنعوا له من القدماء ، فوصفه ابن الخطيب بانه " وسطى عقد بيته ، وعلم اهله ، المصنف زء الاديب الرحال ، الاخبارى ، العجيب الشأن فى التجول <sup>١</sup> الاقطار ومداخله الاعيان للتمتع بالخزائن العلمية ، وتقييد الفوائد المشرقية ( ٢ ) " . وقال عنه المقرئ : " اديب زمانه غيـر مدافع من اعترف له اهل المشرق بالسبق واهل المغرب بالابداع " ( ٣ ) . واورد ابن فرحون فى ديباجه الخاص بعلماء المالكية ترجمته اجلالا لمكانته العلمية ( ٤ ) . ووصفه ابن فضل الله العمري بانه " اديب مبدع ، وليبب متع . . . وكان اجم من البحر امدادا . . . وله الكـلام الصافى البرود . . . " ( ٥ ) .

وشارك الباحثون المحدثون القدماء فى تقديرهم لابن سعيد فهذا الدكتور زكى محمد حسن يشير الى ان ابن سعيد يعتبر اديق مؤرخى القرون الوسطى من حيث اسناد رواياته فيقول : " ابن سعيد مثال يحتذى به فى هذه الناحية . . . واذا تذكرنا ان ذكر المصادر كان نادرا بين المؤرخين الاغريق والرومان . . . قدرنا هذا الفضل للمؤرخين المسلمين ، ولا سيما لمن كان منهم مثالا طيبا فى هذا الميدان كعملى بن موسى بن سعيد " ( ٦ ) .

ويعتبر المستشرق هاملتون جب ابن سعيد مثالا للمؤرخين المغاربة الذين امتازوا بحيادهم ودقتهم : " . . . واشد التواريخ العامة المتأخرة بالعربية اهمية لتدوين التاريخ كتبت فى الاندلس والمغرب ، واذا قارنا

---

( ٢ ) — النفع ٣٩/٣

( ٣ ) — المصدر السابق ٣٥

( ٤ ) — الديباج المذهب ٢٠٨ — ٢٠٩

( ٥ ) — مسالك الابصار ج ٨ ، ورقة ٣٨٢

( ٦ ) — مقدمة المغرب ( قسم مصر ) : م ٣٧

بما كتب في زمنها في المشرق نجد لدى كتاب المغرب مفهومًا أوسع للتاريخ وتصورا أقل تحيزًا • ولم يبق من الكتب التاريخية الكثيرة التي ألفها ابن سعيد المغربي ٠٠٠٠ إلا أجزاء متفرقة ، ولكنها تكفى لأن تبين لنا أنه اعتمد في كتابها نسخًا دقيقة عديدة عن كثير من الكتب السابقة " ( ١ ) •

ويتحدث المستشرق كراتشكوفسكى عن مؤلفات ابن سعيد الجغرافية ، ثم يقول : " وكل هذه الاعتبارات ٠٠٠ تقف دليلًا على أن جغرافيا ابن سعيد تستحق اهتمام الباحثين المعاصرين ٠٠٠ " إذ لم يكن ابن سعيد " مؤلفًا مغموًا — سواء عند العرب أو العلماء الأوروبيين ٠٠٠ " ( ٢ ) •

والواقع أننا إذا لاحظنا أن ابن سعيد لا يتمتع بالشهرة التي يستحقها في الوقت الحاضر فإن ذلك راجع بالدرجة الأولى إلى أن أهم مصنفاته طبعت في فترة متأخرة مما يتيح المجال الكافى لرواج ذكره في أوساط دارسى الأدب ومحبيه •

x

x

x

---

( ١ ) — هاملتون جب ، دراسات في حضارة الاسلام ، ص ١٦٢

( ٢ ) — كراتشكوفسكى : الادب الجغرافى العربى ، ص ٣٥٩



## الفصل الرابع

### ابن سعيد الرحالة الجغرافي

- ١ - مصادر دراسة جغرافية
- ٢ - جهود الجغرافية وأنواعها
- الجغرافيا الادبية عند ابن سعيد
- أدب الرحلة عند ابن سعيد
- التصنيف الجغرافي العلمي عند ابن سعيد

### (١) مصادر دراسة جغرافية

ان أى دراسة شاملة ومستقصية لجغرافية ابن سعيد لابد وأن تستند الى المصادر الاساسية التالية :

٠١ المقدمات الجغرافية التي صّدر بها " المغرب " و " المشرق " ، فقد قدّم للقسم الاندلسي من " المغرب " بمقدمة جغرافية مسهبة تعد وثيقة هامة للتعرف الى أحوال الاندلس الطبيعية والعمرانية والبشرية والاجتماعية والثقافة، وهذه المقدمة احتفظ لنا المقرئ باجزء منها في الباب الاول من النفع وكان جل اعتماده عليها في تبيان فضائل الاندلس (١).

أما مقدمته " للمشرق " فقد تضمنت نبذة جغرافية في صورة الارض وأقاليمها السهبية كما مهّد للقسم الخاص بجزيرة العرب من الكتاب بوصف جغرافي لها (٢). يضاف الى ذلك النبذ الادبية - الجغرافية القصيرة التي كان يعرف بها كل مدينة يبدأ التحدث عنها في المغرب وذلك تحت عنوان " المنصة " اذا كان حاضرة كبرى او بعنوان " البساط " اذا كانت مدينة عادية .

٠٢ مذكرات رحلته الى الفسطاط والقاهرة (٣). وهذه المذكرات تتدرج من الناحية الشكلية تحت " منصة " مدينتي الفسطاط والقاهرة وكان من الممكن اعتبارها من ضمن تعريفاته الجغرافية - الادبية لمدن ولكن حجم هذه المذكرات واهميتها يجعلان منها اكثر من مجرد تعريف جغرافي - أدبي موجز .

٠٣ كتبه الجغرافية الخالصة : وقد وردت اسما ثلاثة منها وهي كتاب الجغرافيا في الاقاليم السهبية وكتاب وصف الكون، وكتاب بسط الارض في الطول والعرض . والكتاب الاول - ويبدو انه الاصلي - لا نعرف عنه شيئا . أما الثاني - وهو المعروف بـ وصف الكون - فتوجد منه مخطوطة بالمكتبة الاهلية بباريس والمتحف البريطاني . وهذا الكتاب اختصار

(١) النفع ١/٢٤٤-٢١٣

(٢) المشرق، الاوراق ١-٢٦، ٢٨-٥٦ (نسخة مصورة)

(٣) المغرب (قسم مصر) ٥-١١، وكذلك النفع ٣/١٠٣-١١٤

عن الاول ، وهو يضم خريطة دقيقة وغنية بالاسماء الجغرافية <sup>(١)</sup> وأما الثالث - وهو بسط الارض في الطول والعرض - فهو مطبوع <sup>(٢)</sup> ، ويعتقد انه من مختصرات الكتاب الاول ايضا الا انه أقل جودة من " وصف الكون " <sup>(٣)</sup> . وهكذا فنحن أمام كتاب جغرافي كبير ومختصرات متفرعة عنه ، ويشير المستشرق الروسي كراتشكوفسكي الى ان " المشكلة المتعلقة بمسودات هذا الكتاب ومختصراته لا يمكن القول بانها قد حلت تماما ٠٠ (و) ٠٠ عدم وجود طبعة له حتى يومنا هذا يقف حجر عثرة في سبيل دراسته دراسة صحيحة " <sup>(٤)</sup> والواقع ان هذا الكتاب ومختصراته هي المصادر الاولى لدراسة المنحى الجغرافي الخالص عند ابن سعيد ، الذي استقل عن منحاه الادبي وأصبح جهدا قائما بذاته .

هذا ولم يتمكن من الاطلاع الا على الكتاب الاخير المطبوع وهو كتاب " بسط الارض في الطول والعرض " . وعليه فلهذا السبب ونظرا لان الدراسة الجغرافية العلمية خارج مقدور دراسي هذه ، فان هذا الفصل عن جغرافية ابن سعيد سيهتم بالتعريف بجهود ابن سعيد الجغرافية والتبنيه على مكانته ، دون ان يلتزم بنقد أو تقويم فيما يتعلق باعماله الجغرافية العلمية الخالصة .

أما ما اندرج من كتاباته الجغرافية ضمن " الوصف العام " او " أدب الرحلة " فسأعالجه بشئ من التحليل قدر المستطاع .

## (٢) جهود الجغرافية وأنواعها

لاحظنا ان المصادر لدراسة جغرافيته تنقسم الى ثلاث فئات : ما يندرج تحت الوصف الادبي المطعم باشارات جغرافية ، وما يدخل ضمن أدب الرحلة ، وما يعتبر تصنيفا علميا في نطاق الجغرافية الخالصة ، والواقع ان انقسام تلك المصادر الى هذه الفئات الثلاث مردّه

---

(١) A. Kammerer: La Mer Rouge, l'Abyssinie et l'Arabie Etc. وحققه الدكتور خ. ف. خنيس ونشر في تطوان سنة ١٩٥٨ . I, p. 48 et pl. XII.

(٢) تاريخ الادب الجغرافي العربي ٣٥٨/١ ، وكذلك مقدمة " المغرب - قسم مصر " ص ٢١

(٣) تاريخ الادب الجغرافي العربي ٣٥٧/١ - ٣٥٨

الى هذا التنوع الثلاثي في جهود الجغرافية : فهو حينما أديب يصف مظهرها جغرافيا ، وهو حينما آخر رحالة يسجل لنا انطباعاته المختلفة عما يراه في رحلاته ، وهو تارة أخرى عالم جغرافي مدقق يرسم لنا صورة الارض وأقاليمها واجزا هذه الاقاليم بدقة علمية لا تتأثر بتعبير أدبي وصفي غائم ولا بانطباعاته الشخصية . وسنتناول فيما يلي كل فئة من هذه الفئات على حدة .

#### ١ - الجغرافيا الادبية عند ابن سعيد

راينا كيف ان التصور الجغرافي كان داخلا في صلب خطة كتاب " المغرب " ، الذي وصفناه ، بانه المدرسة الكبرى لابن سعيد ، وقد مر بنا كيف ان هذا التصور الجغرافي جاء الى المغرب عن طريق كتاب الحجارى ، " المسهب " ، الذي وصفه ابن سعيد بانه أول مصنف من نوعه في تاريخ الادب الاندلسي . وسنرى هنا ان ابن سعيد سيعتمد اعتمادا كبيرا على ما كتبه الحجارى عن اوصاف المدن الاندلسية مما يوكد وجود ميل جغرافي قوى في الكتاب المذكور .

وأهم أثر لابن سعيد في نطاق الجغرافيا الادبية هو مقدمته للقسم الاندلسي من كتاب " المغرب " . فهذه المقدمة لو اعيد ترتيب اجزائها حسب قواعد البحث العلمي الحديث لما كان من المبالغة وصفها بانها " مقالة حضارية شاملة " عن الاندلس .

حقا ان ابن سعيد نقل عن غيره من المؤرخين والجغرافيين ولكن الملاحظات الشخصية التي ابداهها على جانب عظيم من الاهمية ، وقد تجاوزت هذه الملاحظات نطاق الوصف الجغرافي لتعطينا صورة عن طباع الاندلسيين وأزيائهم وعاداتهم وحالتهم الثقافية وأوضاعهم الاجتماعية مما يجعلها تقارب حدود النظرات الداخلة في " علم الاجتماع " . وأرى ان أى بحث عن جغرافية ابن سعيد لا يعرض لهذه المقدمة يتسم بالنقص والتقصير .

تبدأ هذه المقدمة بتحديد موقع الاندلس ومساحتها وحدودها ومظاهر مناخها . وابن سعيد في معلوماته عن ذلك ينقل عن الادريسي الذي يسميه " الشريف " وعن أحمد بن محمد بن موسى الرازى كما يورد روايات شفوية عن " جماعة من علماء هذا الشأن " (١) . وبعد

ذلك يعرض للتاريخ البشرى والسياسى والحربى والعمرانى للاندلس فيذكر اول من سكن  
الاندلس والدول التي حكمتها مارا بحروب الفتح شافعا كل ذلك باشارات الى المظاهر  
العمرانية في الاندلس ماتم منها قبل الفتح وما أنشأ العرب بعد ذلك . وبعد هذا  
التعميم يأخذ في الحديث عن المدن الاندلسية مدينة مدينة - ضمن هذه المقدمة،  
أى قبل المباشرة في فصول الكتاب الاخرى - يقصد اعطاء صورة موجزة عن اهمية كل واحدة  
منها . ثم يعود الى الحديث العام فيذكر الجوانب الاقتصادية من ثروة زراعية ومعدنية  
وبأتي بتفاصيل دقيقة عن الصناعات الاندلسية مشيرا الى مراكزها الصناعية وانواع تخصصها :  
" والى مصنوعات الاندلس ينتهي التفضيل ، . . . فقد اقتصت العربية ومالقة ومرسية بالموشى  
المذهب يتعجب من حسن صنعه أهل المشرق اذا رأوا منه شيئا، تنتالة من عمل مرسية  
تعمل البسط التي يغالي في ثمنها بالمشرق، ويصنع في غرناطة وبسطه من ثياب اللباس  
المحررة الصنف الذي يعرف بالطلب المختم ذو الالوان العجيبة، ويصنع في مرسية من الاسرة  
المرصعة والحصر الفتانة الصنعة وآلات الصفر والحديد من السكاكين والاقاص المذهبة وغير ذلك  
من آلات العروس والجندى ما يبهر العقل، ومنها تجهز هذه الاصناف الى بلاد أفريقية وغيرها (١)  
ويواصل ذكر انواع الصناعات الاخرى من زجاج عجيب وفخار مزجج مذقوب ونسيفساء وآلات حرب  
شافعا ذلك باشارات مهمة الى العلاقات التجارية بين افريقيا والاندلس العربية والامارات  
الاسبانية . وغني عن البيان ان هذه المعلومات الاقتصادية والتجارية هي مادة لا ي بحث  
تاريخي - اقتصادي عن هذه المنطقة من العالم في ذلك العصر .

هذا ومن الملاحظ ان المقرئ لم يورد مقدمة ابن سعيد في نسق واحد كما رتبها المؤلف  
نفسه ، ان يبدوا انه قدم فيها وأخر وأدخل ضمنها نقولا عن كتاب سابقين ولا حقين مما أدخل  
بعضها بعض الشئ وان لم يؤثر ذلك في قيمة الآراء والمعلومات التي تضمنتها . ومن  
الامور التي نقلها المقرئ كاملة تقريباً رد ابن سعيد على أقوال ابن حوقل عن الاندلس .

فقد أبدى ابن حوقل، الذي زار الأندلس في القرن الرابع عند ما كانت في ظل الأمويين، استغرابه لاحتفاظ هذه البلاد باستقلالها رغم ملاحظته في أهلها من " صغر أحلام وضعة نفوس ونقص عقول، وبعد عن البأس والشجاعة " (١) . . . . وهذا يرد ابن سعيد مستندا إلى تاريخ الأندلس الطويل الذي حفل بحركات مقاومة مستمرة ضد " أعدائها المجاورين " . وينتقل من ذلك إلى عرض متعمق لمراحل التاريخ الأندلسي - لتحليل أسباب النكبة - فيذكر عهد الأموية الموحدة وعظمته وكيف جاءت " الفتنة " لتقضي عليه وتؤدي إلى نشوء " الممالك المتفرقة " (٢) . ثم يتحدث عن عصر الموحدين بفهم عميق فيشير إلى أنه كان عصر هدوء في مظهره، أما في الباطن فقد كانت النفوس قلقة ثائرة : " . . . فصعب ضبطهم إلى نظام واحد، وتمكن العدو منهم بالتفرق وعداوة بعضهم لبعض بقبائح المنافسة والطمع، إلى أن انقادوا إلى عهد المومنين وبنينهم، وتلك القواعد في رؤوسهم كأمينة، والثوار في المعامل تشور، وتروم الكرة " . . . ويصف عهد ابن هود بشعور أندلسي " مشفق وبألم ظاهر لا تخفيه الحقائق التاريخية التي يوردها : " إلى أن ثار ابن هود، وتلقب بالمتوكل، ووجد القلوب منحرفة عن بر <sup>العدو</sup> ~~الصلوة~~ مهياة للاستبداد، فملكها بأيسر محاولة، مع الجهل المفرط وضعف الرأي، وكان مع العامة كأنه صاحب شعوزة، يمشي في الأسواق ويضحك في وجوههم ويبادر بالسؤال، وجاء للناس منه مالم يعتادوه من سلطان فأعجب ذلك سفهاء الناس وعامتهم العمياء " . . . قال ذلك إلى تلف القواعد العظيمة " (٣) . وواضح أن هذا العرض التاريخي يتعدى السرد السطحي للأحداث لينفذ إلى تبيان الأسباب ويقدم التفسيرات، إلى جانب ما يكشفه من شعور مصنف اشتهر بنزاهته أزاء دولة ابن هود . ويختم ابن سعيد ذلك بإشارة بارعة إلى نفسية الأندلسيين السياسية عند ما يذكر قلقهم السياسي وعدم القدرة على الانضباط وجريهم خلف كل من يظهر شجاعة وحماسة

(١) يرى الباحثون أن ابن حوقل كان من عيون الفاطميين وأن قوله هذا لا يخلو من مغزى سياسي . (غير أن هذا الرأي الذي جاء به دوزي تعرض لشيء من التشكيك في نظر ليفي بروفنسال، انظر : تاريخ الأدب الجغرافي العربي ٢٠٤ / ١)

(٢) يقصد " بالفتنة " الفتنة البربرية التي وقعت سنة ٤٠٠ هـ، أما الممالك المتفرقة فالمراد بها دول ملوك الطوائف

(٣) النفخ ٢٠٠ / ١

من الجند ويقارن هذه الناحية بالوضع في المشرق حيث انظمة الحكم مستقرة ويخلص من هذه المقارنة بأن " أهل المشرق أصوب رأياً منهم في مراعاة نظام الملك، والمحافظة على نصابه ، لكلا يدخل الخلل الذي يقضي باختلال القواعد وفساد التربية وحل الاوضاع " (١)

وبعد الحديث عن التاريخ السياسي يعرض ابن سعيد لمظاهر الحكم المختلفة في الاندلس من وزارة وكتابة واعمال خراج وقضاء وخطة شرطة وخطة احتساب وخطة طواف بالليل في ايجاز لا يخلو من اشارات تاريخية حية لها دلالتها الهامة عند الدارس الحديث .  
فها هو يتحدث عن خطة الاحتساب بقوله : " وأما خطة الاحتساب فانها عندهم موضوعة في اهل العلم والظن، وكأن صاحبها قاض والعادة فيه ان يعشي بنفسه راكبا على الاسواق واعوانه معه وميزانه الذي يزن به الخبز في يد أحد الاعوان، لان الخبز عندهم معلوم الاوزان : للربيع من الدرهم رغيف على وزن معلوم، وكذلك للثمن، وفي ذلك من المصلحة ان يرسل المبتاع الصبي الصغير او الجارية الرعنا فيستويان فيما يأتيانه من السوق مع الحاذق في معرفة الاوزان، وكذلك اللحم تكون عليه ورقة بسعره . . . " (٢)

ثم يحدثنا عن ظاهرة الجريمة في الاندلس وكيف ان " شطارها " ماهرون في امور التلصص وفتح الاقفال وكيف انهم يبالون الى العنف والقتل <sup>لتسبب</sup> أعمال سرقاتهم، وكيف ان العقاب الصارم لم يجد نفعافي الحد من انتشار الجريمة حتى " آل الحال عندهم الى ان قتلوا على عنقود سرقة شخص من كرم وما اشبه ذلك، ولم ينته اللصوص " (٣)

وبعد ها يأتي الحديث عن الظاهرة الدينية في الاندلس فيشير ابن سعيد الى تمسك الاندلسيين بالدين ومحافظةهم عليه وتشدد هم في ذلك حتى مع ملوكهم وقضاتهم، ويغمر العشارقة من طرف خفي عند ما يقول ان تدين الاندلسيين لم يدفعهم الى الدروزة المتنفدة عن الكد كما حدث في المشرق . ونلاحظ ان حسن المقارنة عند ابن سعيد حي يقظ فهو يقارن بين الاختلافات في الدين والاخلاق والسياسة بنظر ثاقب .

(١) النفخ ٢٠١/١

(٢) المصدر السابق ٢٠٣/١

(٣) النفخ ٢٠٤/١

وفي ختام المقدمة يأتي الى الحديث عن مظاهر الثقافة الاندلسية حيث يظهر كثيرا من النظرات الصائبة التي يشاركه فيها كثير من الباحثين المحدثين . فمن الامور التي يشير اليها احترام الاندلسيين لكل صاحب علم ولو كان علمه عاما بحرفة بسيطة " فالجاهل الذي لم يوفقه الله للعلم يجهد ان يتميز بصنعة، وربما بنفسه ان يرى فارغا عالية على الناس، لان هذا عندهم في نهاية القبح " . ويتحدث عن مسألة التعليم المأجور الذي تميز به الاندلسيون عن المشاركة وعن حبهم للعلم بذاته لا توسلا به لوظيفة : " . ليس لاهل الاندلس مدارس تعينهم على طلب العلم، بل يقرؤون جميع العلوم في المساجد بأجرة، فهم يقرؤون لان يعلموا لا لان يأخذوا جاريها (اي راتبيا او معاشا) " . وينبه الى وضع الفلسفة الحرج في المجتمع الاندلسي : " . وكل العلوم لها عندهم حظ واعتناء الا الفلسفة والتنجيم، فان لهما حظا عظيما عند خواصهم، ولا يتظاهر بها خوف العامة، فانه كلما قيل : فلان يقرأ الفلسفة، أطلقت عليه اسم زنديق وقيدت عليه أنفاسه " . (١) ويتبع ذلك باشارة الى المكانة الرفيعة التي تمتاز بها الدراسات الدينية : " وقراءة القرآن بالسبع ورواية الحديث عندهم رفيعة، وللفقه رونق ووجاهة " . ويواصل اشاراته الى خصائص الثقافة الاندلسية : " والنحو عندهم في نهاية من علو الطبقة " . وعلم الاصول عندهم متوسط الحال . . . . . والخاص منهم اذا تكلم بالاعراب واخذ يجرى على قوانين النحو استقلوه واستبردوه . . . . . وعلم الادب المنشور من حفظ التاريخ والنظم والنثر ومستظرفات الحكايات انبل علم عندهم، (٢) وبه يتقرب من . . . ملوكهم . . . ومن لا يكون فيه أدب من علمائهم فهو غفل مستثقل . . . والشعر عندهم له حظ عظيم، وللشعراء من ملوكهم وجاهة . . . " (٣)

ويربط ابن سعيد بين بعض فروع الثقافة ومظاهر نفسية معينة في اشارة بارعة يندر وجودها في مصنفات الادب القديمة : " واذا كان الشخص بالاندلس نحويا او شاعرا

(١) المصدر السابق ٢٠٥/١

(٢) أشرت الى ان ابن سعيد اعتنى بهذا النوع من الثقافة اعتناء خاصا عند الحديث عن حدود علمه واتجاهاته . ولعل في هذه الاشارة والعبارة التي تليها ما يفسر لنا احد الاسباب التي دفعت الى ذلك .

(٣) النفح ٢٠٦/١ - ٢٠٧



فانه يعظم في نفسه لا محالة ويسخف ويظهر العجب، عادة قد جبلوا عليها . . .  
واذا علمنا ان ابن سعيد يورد هذا القول في مجال تعداد محاسن الاندلس  
أدركنا مدى التزام هذا المصنف بالحياة والأمانة .  
ويختتم ابن سعيد حديثه بذكر أنباء الاندلسيين وبعض عاداتهم الاجتماعية . تراء  
يعقد مقارنة هنا في اختلاف التقاليد بين غرب الاندلس وشرقها : " وأما زى اهل الاندلس  
فالغالب عليهم ترك العمائم، لا سيما في شرق الاندلس، فان اهل غربها لا تكاد ترى فيهم  
قاضيا ولا فقيها مشارا اليه الا وهو بعمامة، وقد تسامحوا بشرقها في ذلك . . . " (١) وترى  
هذه الاشارة الهامة ضمن الحديث عن الزى : " . . . وكثيرا ما يتزيا سلاطينهم واجفادهم  
بزي النصارى المجاورين لهم، فسلحهم كسلحهم، واقبيبتهم . . . كاقبيبتهم . وكذلك اعلامهم  
وسروجهم . . . " (٢)، وهو تنبيه دقيق الى التاثير والتاثير في ناحية لا يلتفت اليها كثير من  
المؤرخين القدامى . ثم انظر اليه يحدد بتفصيل طريف مظاهر الاناقة واختلاف الطبقات  
الاجتماعية والفئات الدينية في ذلك، ثم الفرق بين الاناقة الاندلسية والاناقة المشرقية :  
" ولا تجد في خواص الاندلس واكثر عوامهم من يعيش دون طيلسان الا انه لا يضعه على  
رأسه منهم الا الاشياخ المعظمون، وغوائر الصوف كثيرا ما يلبسونها حمرا وخضرا، والصفرة  
مخصصة باليهود، ولا سبيل ليهودى ان يتعمم، وانما يسدلونها تحت الاذن اليسرى، وهذه  
الاضاع التي بالشرق في العمائم لا يعرفها اهل الاندلس، وان رأوا في راس مشرقى داخل  
الى بلادهم شكلامنها اظهروا التعجب والاستظراف ولا ياخذون انفسهم بتعليمها، لانهم  
لم يعتادوا ولم يستحسنوا اوضاع غيرهم . . . " فتأمل اولا في هذه التفاصيل الدقيقة  
عن الزى، ثم انظر ثانيا لباقة ابن سعيد في التعبير عن نظرة الاندلسيين الى زى المشاركة -  
وهذه المقدمة سيقراها المشاركة قبل غيرهم - فهو يعبر عن شعور مواطنيه ازاء ما يخالف  
تقاليدهم في اللبس بانه " تعجب واستظراف " مما يدل على اللياقة وسعة الافق،  
ولو ان مؤلفنا تنقصه لباقة ابن سعيد ويملكه الهوى الاقليمي

(١) المصدر السابق ٢٠٧/١  
(٢) المصدر السابق ٢٠٧/١

الانطباعي غير المتزن لوجد في هذه المناسبة فرصة للتشجيع على المشاركة (١). ولا تفوتك أخيراً ملاحظة التعبير الواعي عن الاحساس بالشخصية الاندلسية المستقلة التي تستظرف ما عند الغير ولكنها لم تعتد ولا تستحسن الا اوضاعها الخاصة !

وأنا لست بصدد الزعم هنا ان كل هذه الآراء والاحكام من عند ابن سعيد نعماً لا شك فيه انه يورد آراءً لغيره . . . ولكن صياغته لهذه المقدمة بالاسلوب الرصين الذي لمسناه والتركيز على القضايا المهمة في الظواهر الحضارية وعرضها بعمق ودقة يدل على أصالة في تفكيره وعلى حسن ادراكه لجوهر الامور وعدم تشتت بحثه بين ركام الامور التفصيلية والروايات الهزيلة التي تشغل عادة قدامى المصنفين . ومن نافلة القول الاشارة هنا الى ان اى بحث مسوؤل عن الحضارة الاندلسية لا يمكنه ان يتجاهل او يغفل هذه المقدمة على ايجازها . وأرى لو ان ابن سعيد استفاد من منهجه هذا في تأليف بحث مطول عن الاندلس - وأظن انه كان يعقدوره ان يفعل ذلك - ان لأغنى الجهد الجغرافي - التاريخي في التراث الاندلسي ولحقق لنفسه مكانة أرفع من مكانته الحالية . ولا أدري ان كان الدكتور زكي محمد حسن قد أدخل في اعتباره هذه المقدمة عندما أثار هذه التساؤلات حول قيمة المغرب وأجاب عليها كلها بالنفي : هل خلا " المغرب " من العيب الاساسي الذي نلمسه في معظم تصانيف التاريخ التي كتبها المسلمون من حيث انها سرد او اختصار لنصوص وكتب فيها اسلافهم ؟ هل امتاز اصحاب المغرب عن غيرهم . . . بالبعد عن تصديق كل الروايات التي تصل اليهم . . . ؟ هل خالف اصحاب المغرب غيرهم من المؤرخين في الاقبال على نسج القبط من القصص بغير ترتيب تاريخي او منهج علمي ؟ هل يستوى<sup>اصحاب</sup> " المغرب " ومؤرخاً كالبلاذري في البحث عن الحقائق التاريخية الدقيقة ؟ هل يضارع أصحاب المغرب مؤرخاً كابن مسكويه في معرفة أساليب الادارة الاسلامية، وفي الحصول على الروايات التاريخية من المصادر العلمية، وفي ربط الاسباب والنتائج وفي العناية بالاحوال الاقتصادية والاجتماعية، وفي البعد عن التعصب وفي الميل عن الهوى ؟ . . . هل بلغ أصحاب " المغرب " الى ما انفرد به البيروني من

---

(١) كما فعل العبدري مثلاً في " رحلته " ، انظر : الدكتور صلاح الدين المنجد ، المشرق في نظر المغاربة والاندلسيين ص ٢٠ - ٨٣

من اكتساب ثقافة جديدة على الثقافة العربية ؟ .. هل يمكن ان يُعدّوا نظراً لمؤرخ كابن خلدون ؟ (١)

والواقع اننا برجوعنا الى ملاحظتنا من منهج ابن سعيد وتأملنا في تلك المقدمة، نرى ان الاجابة على كل هذه الاسئلة بالنفي يعوزها الانصاف .. وأظن ان الدكتور زكي محمد حسن كان يضع في ذهنه القسم التاريخي المصري من " المغرب " وهو الذي نقله ابن سعيد نصاً عن مؤرخين مصريين سابقين لزمانه . أما مغرب الاندلس ومقدمته بالذات فلهما - كما رأينا - مكانة افضل .

أما المقدمة الجغرافية لكتاب المشرق فهي أقل قيمة بلاشك من مقدمة " المغرب "، وقد قسم فيها العالم المعمور الى سبعة أقاليم وتحدث عما يوجد من أقطار في كل اقليم وكان ينقل عن بطليموس من خلال كتاب الادريسي الذي يسميه كتاب " أجار " او " رجار " - وقد اوردت الاشارة عنها هنا لانها جاءت في اطار كتاب المشرق، المصنف الادبي الشعري، وهي في الحقيقة امتداد لتصوراته الجغرافية التي تتدرج ضمن علم الجغرافية المحض .

ومما يمثل امتزاج الادب والجغرافية عند أفضل تمثيل تلك النبذ التي اوردها في " منصات " او " بسط " الدلائل الاندلسية . ولربما مثلت هذه النبذ النماذج الاولى من تدرج الحس الجغرافي عند حيث كان مولوداً نامياً في ظل ثقافته الادبية الشعرية . فهو في هذه القطع لا يحدد في الاغلب موقع المدينة حسب خطوط الطول والعرض او حسب المسافات ولا يلتفت كثيراً الى الخواص المعدنية والنباتية، بل اكثر ما يهتم ما يمكن تسميته بالانطباعات " السياحية " ان صح التعبير كمنظر المدينة العمراني العام وما يوجد فيها من منازع وفرج . وهو يسهب احياناً في وصف المدن التي يحب وقد يستشهد بقصيدة او موشع لشاعر من شعرائها في التفتي بجمالها ، واكثر نقول ابن سعيد في هذا المجال عن مسهب الحجارى وعن كتابات أحمد بن محمد بن موسى الرازى ( ٢٧٤ - ٣٢٤ ) .

فمن نماذج وصفه الجغرافي الادبي للمدن ايراد مايلي عن مدينة بسطة : " بسطة

---

(١) انظر مقدمة " المغرب " - قسم مصر - ص ٤١ - ٤٢

ما آتاه الله في الحسن بسطة • لها خارج يأخذ بالعين والانفس وفيها يقول  
شعبان الغزى واليهما :

سقى الله صوب الغيث أكفاف بسطة فيها انبساط النفس والعين والقلب" (١)

الا انه يظهر دقة اكثر في بعض الاحيان، منها هو يصف مدينة هرجة من مملكة المرية  
وصفا أدبيا ولكنه يمر مروراً خاطفاً بخاصية جغرافية : " كان والدي متولعا بالفرجة فيها ،  
لما خصها الله به من حسن المنظر، أخبرني ان الجنات محدقة بها ، وهي على نهر  
بهيج ، يعرف بوادي عذراء ، وفيها الفواكه الجليلة ، ولها معدن الرصاص" (٢) وقد  
يصل وصفه الى تعريف جغرافي على قدر لا بأس به من الدقة ولكنه في هذه الحالات  
يكون ناقلاً عن مسهب الحجارى ، يقول في وصف طليطلة : " انها احدى المدن الاربع  
التي بنيت في مدة قيصر اكتبيا ن (اكتافيوس) وهي في الاقليم الخامس موسطة ، منها الى  
الحاجز الذي هو درب الاندلس نحو نصف شهر ، وكذلك الى البحر المحيط ٠٠٠ وفيها من  
ضروب التركيب والفلاحة ما تفضل به غيرها ، وابن بصال صاحب الفلاحة فيها ٠٠٠ ويضع  
فيها من آلات الحرب العجائب ٠٠ " (٣) . ومن المدن التي وصفها وصفا شاملاً حوى  
الخواص الجغرافية وذكر المنازه والاستشهاد بالشعر غرناطة (٤) وبلنسية (٥) ويبدو انه  
يتأثر بالمادة التي بين يديه كما ان شهرة المدينة لها أثر في تقرير حجم التعريف  
ونوعه •

ومن اعماله الجغرافية - الادبية كتابه " الشهب الثاقبة في الانصاف بين المشاركة  
والمغاربة " وهو مقارنة تقوم على الاستفادة من المعلومات الجغرافية في اقامة مناظرة بين  
المغرب والمشرق • وقد استغل ابن سعيد في هذا الكتاب مادته الجغرافية لم يقارن  
بين عمارة المشرق والمغرب وامتدادهما ، واهم ما يلفت النظر في المقاطع التي اوردها

(١) المغرب ٢/ ٧٧

(٢) المصدر السابق ٢/ ٢٢٨

(٣) المصدر السابق ٢/ ٨ - ٩

(٤) المصدر السابق ٢/ ١٠٢ - ١٠٥

(٥) المصدر السابق ٢/ ٢٩٧

العمري في " المسالك " - وهو يرد على ابن سعيد - مقارنة ابن سعيد بين اخلاق المغاربة القائمة على المصارحة والمكاشفة وعدم الخضوع للمظاهر الشكلية في الحياة الاجتماعية وبين اخلاق المشاركة الذين يعملون الى نوع من الريا والطق في المعاملة والى اهتمام بالمظهر دون المخبر في مواكبهم ولباسهم ومساكنهم<sup>(١)</sup>.

#### (٢) أدب الرحلة عند ابن سعيد

ان النموذج الوحيد الذي وصلنا في هذا المجال هو وصف ابن سعيد للفسطاط بالقاهرة، وربما كان في " الرحلة المكية " و " عدة المستنجز " نماذج اخرى ولكن هذين الكتابين لم يصلانا .

وقد اورد ابن سعيد مذكراته تلك عن الفسطاط والقاهرة<sup>(٢)</sup> في باب " المنصة " على عادته في كتاب المغرب . الا ان ما اورد ، عن المدينتين المصريتين تجاوز حد التعريف الجغرافي ، الادبي ، الوصفي الذي مررنا بنماذج منه قبل قليل ليدخل في نطاق المذكرات السياحية المسهبة التي يمكن اعتبارها مظهرا من مظاهر أدب الرحلة . والواقع ان ابن سعيد في هذه المذكرات كان مراقبا بصيرا اكثر منه سائحا عابرا وان كان قد جمع بين ما يهتم به الاول وما يلفت انتباه الثاني . واول ما يلفت انتباه القارئ في هذه المذكرات البساطة والصراحة الواقعية ووضوح التعبير عن الانطباعات الذاتية : يخبرنا ابن سعيد - فيما يختص بالفسطاط - انه كان قبل زيارتها في حيرة من أمرها فما يسمعه عنها من الرحالين والحجاج يتصف بقلّة " اتفاق الاغراض وتشتت الالهوا " ، وعندما اراد التوجه اليها من القاهرة رأى الناس - ومن بينهم الفقهاء - ذوا الشارات - يركبون اليها الحمير . وهنا يسجل ابن سعيد ازواره اولا عن هذه الطريقة التي لم يعهد لها في المغرب واقتناعه ثانيا باللبؤ

(١) مسالك الابصار ٢ / ورقة ٨٠٤ ، وما بعدها ، وكذلك النفح ١ / ١٩٦

(٢) المغرب (قسم مصر) : ٥ - ١١ ، النفح ٣ / ١٠٣ - ١١٤

اليها وسقوطه ثالثا عن ظهر الحمار " الطيار " واتساخ ملابسه . وباعتباره سائحا  
مهذبا ، نراه ينفذ العكاري - الذي لم يفرق به - أجره ويطلب منه ان " يحسن "  
اليه بتركه ماشيا !

وبعد وانه بينما كان يقطع مسافة الميلين بين القاهرة والفسطاط ألف أربعة أبيات  
في وصف الحادثة (وسجلها لنا في مذكراته ) ، ثم واصل سيره لدخول المدينة . وبذوق  
اشبيلي مرهف اخذ يحدق في الاسوار الكريمة السوداء والطرقات القذرة والجامع الذي  
اصبح ممرا للعامة وسوقا لبيع الكعك والمكسرات . فانقبضت نفسه من منظر الاسوار  
والطرقات وحركة الازدحام ، ولكن تدينه المغربي لم يدعه يزور عن منظر الجامع الذي  
نسج العنكبوت على اركانه وحيطانه وخط العامة على جدرانه كتابات قبيحة بالفحم ،  
فاذا به يشعر فيه بانبساط وارتياح لالشق الا لأط الصحابة - رضوان الله عليهم -  
قد وقفوا في صدر الاسلام بساحته .

وبواصل ابن سعيد سيره فلا يرى على النيل سورا ابيض كما هو الحال في اشبيلية  
ولكن ماء ينال اعجابه ان لم يذق مثله قط . وفي الليل ينظم في " طيارة " - اي  
قارب كبير في النيل - ويصفو الجو فينظم ابياتا في وصفه .

بعد هذه " الانطباعات الاولى " يتدرج بنا ابن سعيد الى دائرة اعرق واذا بالسائح  
الذي ينقل لنا مشاعره الذاتية يحدثنا حديث المتأمل في طبائع النامرواذا به يستخرج الخاصية  
الرئيسية لاهل تلك البلاد الصديقة المرحبة : وجملته الحال ان اهل الفسطاط في نهاية من  
اللطافة ولين الكلام ، وتحت ذلك من الملق وقلة المبالاة برعاية قدم الصحبة ، وكثرة المعازجة  
والالفة ما يطول ذكره <sup>(١)</sup> وبعد ان يحدثنا عن كرم بعض من تعرف اليهم ورعايتهم ، ينتقل بنا  
مرة اخرى الى دائرة الثالثة ، فاذا به الجغرافي الذي يعمتي بظواهر التجارة والاقتصاد :  
" واما ما يورد على الفسطاط من متاجر البحر الاسكندراني (اي المتوسط ) والبحر الحجازي  
( الاحمر ) فانه فوق ما يوصف . وبالفسطاط مطابخ السكر والصابون " ويقارن ابن سعيد

في هذا المجال ويعطي التفسيرات : " والخراب في الفسطاط كثير بالقاهرة أجد وأمر، وأكثر زحمة بسبب انتقال السلطان إليها، وسكنى الاجناد فيها " (١).

وهذا الاسلوب الذي اتبعه في الحديث عن الفسطاط، يتبعه في الحديث عن القاهرة فهو اولاً يقارن بين انطباعه السابق الذي كونه سماعاً وبين زيارته الآن والخلاصة ان " اسمها اعظم منها، وكان ينبغي ان تكون في ترتيبها ومبانيها على خلاف ما عاينت " (٢). وكما اتحفنا بحكايته مع الحمار قبيل دخولنا معه الفسطاط، يتحفنا هنا بحكاية العجلة التي سدت على الوزير طريقه مستشهداً بالحكاية على ضيق ازقة القاهرة : " ولقد عاينت يوماً وزير الدولة وبين يديه الامراء، وهو في موكب جليل وقد لقي في طريقه عجلة بقر تحمل حجارة، وقد سدت جميع الطرق بين يدي الدكاكين ووقف الوزير وعظم الازدحام وكان في موضع طباخين والدخان في وجه الوزير وعلى ثيابه بوقد كاد يهلك المشاة، وكذا اهلك في جملتهم ٠٠ واكثر دروب القاهرة ضيقة مظلمة كثيرة التراب والازبال " ٠٠ فتأمل هذا الوزير الجليل وقد استقبل بعجلة ودخان ! وابن سعيد لا ينسى حصة الادبي فتراه ينظم فيما يثير ضجره وما يثير اعجابه فهو يتأفف شعراً من الغبار والتراب ويبدى اعجابه في الوقت ذاته بجمال بركة الفيل، وبعد انطباعاته هذه ينتقل ايضا الى الحديث عن بعض نواحي الحياة في المدينة " فالقاهرة اكثر عمارة واحتراما وحشمة من الفسطاط، لانها أجل مدارس واضخم حانات، واعظم ديارا لسكن الامراء فيها ٠٠ و " هي مستحسنة للفقير الذي لا يخاف طلب زكاة ولا ترسيما ولا عذابا ٠٠ والفقير المعجود فيها يستريح بجهة رخص الخبز وكثرته ووجود السماع والفرج في ظواهرها ودواخلها وقلة الاعتراض عليه فيما تذهب اليه نفسه، يحكم فيها كيف شا من رقص في وسط السوق او تجريد او سكر من حشيشة، او صحبة مردان وما اشبه ذلك، بخلاف غيرها من بلاد المغرب ٠٠٠ ولا ينكر فيها اظهار اواني الخمر ولا آلات الطرب ذوات الاوتار ولا تبرج النساء العواهر ٠٠٠

(١) المغرب (قسم مصر) ١١

(٢) النفخ ١٠٨/٣

وربما وقع قتل بسبب السكر . . (١)

والى جانب هذا الوصف للحياة الاجتماعية يلتفت - بحكم ذهنيته الجغرافية - الى النواحي الاقتصادية والزراعية فيحدثنا عما " فيها من الثمرات والفواكه الرمان والموز، واما التفاح والاجاص فقليل غال وكذلك الخوخ، وفيها الورد والنرجس والنسرين . . . واما العنب والتين فقليل غال، ولكنة ما يعصرون العنب في ارباب النيل لا يصل منه الا القليل، ومع هذا فشرابه عندهم في غاية الغلاء، وعامتها يشربون المزر الابيض المعتخذ من الحنطة، حتى ان الحنطة يطلع سعرها بسبب ذلك " (٢). ويذكر نوع العملة المتداولة وتأثيرها في الحركة التجارية : " ومعاملة الفسطاط والقاهرة بالدرهم المعروفة بالسودا، كل درهم منها ثلاث من الدراهم الناصرية، وفي المعاملة بها شدة وخسارة في البيع والشراء، ومخاصمة بين الفريقين " . ويضيف الى المعلومات الجغرافية اشارة عن موقعها ومناخها : " وهي في الاقليم الثالث وهو اؤها ردي ولا سيما اذا هب المريسي من جهة القبلة، وايضا فرمد العين فيها كثير " (٣) وهكذا نرى ان منهج ابن سعيد في كتابه مذكرات رحلته منهج مزدوج متعدد الالوان : فهو اولا يكشف عن انطباعات الذاتية ويمزج ذلك بحكايات لطيفة . . ثم يلتفت الى الناحية الاجتماعية فيتحدث عن طباع الناس ومظاهر جدهم ولهوهم . . واخيرا يضمن مذكراته مادة جغرافية يقدمها معللة مفسرة في الاغلب وهو يغلف كل ذلك بأسلوب ادبي فيذكر ما نظم في هذا المنظر او ذاك، واسلوب جبري من السجع والتكلف يتصف ببساطة واقعية وايجاز معبر . وتراء في هذه المذكرات يكون انطباعاته ويجمع معلوماته عن طريق المشاهدة الحية ولا يقول لنا انه اخذ هذه الرواية او تلك من مرافق او صديق والارجح انه يستخرج كل شئ من ملاحظاته ، وربما استفسر عن شئ ولكن لا نراه يعتمد على قول معين . وما لاشك فيه ان كتاباته هذه عن الفسطاط والقاهرة تعتبر وثيقة هامة عن تاريخ المدينتين في العهد الايوبي . ومن أسف اننا لا نعثر على غير هذه المذكرات مع انه رحل الى الشام والعراق والحجاز ونارس

(١) النفح ١١١/٣ - ١١٢

(٢) المصدر السابق ١١٢/٣

(٣) النفح ١١٣/٣



ولو سجل في كل تلك البلدان انطباعات ومشاهداته كما فعل في مصر وبالمنهج الممتع  
المفيد ذاته ، لكان لدينا اليوم كتاب باسم " رحلة ابن سعيد " قد لا يقل قيمة عن رحلة  
ابن جبير . ولعلنا نجد في المخطوطات التي قد تكتشفه في المستقبل ما يحقق هذا  
الامل .

(١)

(٢) التصنيف الجغرافي العلمي عند ابن سعيد

تمت الاشارة الى كتابه الكبير في هذا المجال وهو " الجغرافيا في الاقاليم السبعة "   
والى المختصرين المتفرعين عنه وهما " وصف الكون " و " بسط الارض في الطول والعرض " .  
والكتاب الاخير مادة جغرافية مكثفة جافة تتناول وصف أقطار العالم كلها بشرها وطبيعتها  
واقتصادها . ويقسم هذا الكتاب العالم الى تسعة اقاليم هي على التوالي من منطقة خط  
الاستواء ، " المعمور خلف خط الاستواء " ، الاقاليم السبعة ، المعمور من الارض في شمالي  
الاقاليم السبعة " وينقسم كل اقليم بدوره الى عشرة أجزاء . ومنهج هذا الكتاب ان  
يقدم بكلمة عامة عن الاقليم في البداية تصف سكانه وتحدد <sup>موقعه</sup> ، مثل : " الاقليم الخامس :  
بياض اهله معتزج بالحمرة وفيهم شقرة وزرقة في غالب الحال ولا سيما فيما يلي السادس .  
والعرض عند آخره من خط الاستواء ٤١ درجة و ٣١ دقيقة ووسعه ٥ درجات " (٢) . ثم  
يبدأ الحديث عن اجزاء الاقليم العشرة جزاء <sup>جزء</sup> ابتدا من الغرب فتذكر المدن ومواقعها  
حسب خطوط الطول والعرض بالدرجات والدقائق وينوه بما فيها من خصائص معدنية  
ونباتية واخيانا تتم الاشارة الى بعض احداث تاريخها الهامة ولكن بايجاز شديد .

---

(١) اعتمدت في هذا القسم على المقال المركز القيم الذي كتبه المستشرق السوفيتي كراتشكونسكي

عن جغرافية ابن سعيد في كتابه " تاريخ الادب الجغرافي العربي " ، ص ٢٥٦ - ٣٥٩ .

وأهمية هذا المقال - الى جانب مقدرة كاتبه الخاصة - في انه يستند الى الابحاث

الالمانية والفرنسية في تاريخ الجغرافيا العربية ، تلك الابحاث التي خصت ابن سعيد باهتمامها .

(٢) بسط الارض ١١

ويختلف هذا الكتاب عن المؤلفات الكلاسيكية الجغرافية القديمة في انه يهتم بالعالم غير الاسلامي اهتمامه بالعالم الاسلامي فيتحدث عن الهند والشرق الاقصى وعن بعض مناطق روسيا وبريطانيا وبلاد الغال . ويلاحظ ان البلاد الواحدة حسب منهج هذا الكتاب تتوزع بين عدة اقاليم او اجزاء ولا توصف كلها دفعة واحدة . ويذكر ابن سعيد مصدرين او حدين في هذا الكتاب وهو ما يسميه كتاب " اجاز " - اي كتاب الادريسي " نزهة المشتاق " وكتابات ابن فاطمة الذي يبدو انه ملاح مكتشف توغل في غرب افريقيا ووسطها ومسجل مادة جغرافية قيمة . ويتجنب ابن سعيد أية استطرادات أدبية كما ان انطباعاته الشخصية تكاد تتعدى خلف صرامة المنهج المتبع . ويبدو هنا ابن سعيد وقد استقل ميله الجغرافي تماما عن ثقافته الادبية وغدا مجرى مستقلا عنها بعد ان نشأ في الاساس رافدا من روافدها .

وتشير الابحاث الجغرافية الى ان الدراسة العلمية لجغرافية ابن سعيد تكشف النتائج - او تشير القضايا - التالية :

- ١ - ان نشاط ابن سعيد في محيط الجغرافيا يتصل بالاتجاه الذي يمثله الادريسي (٥٦٤) (١) وهو الاتجاه الذي يذهب الى تقسيم العالم الى سبعة اقاليم كما فعل بطليموس لي " المجسطي " . ومدرسة الادريسي تعرف بطابعها المستقل نوعا عن المدرسة الكلاسيكية في المشرق ، وهي التي سماها ميلر K. Miller المدرسة العربية النورمانية (٢) بسبب نشوئها في بلاط روجر الثاني ملك صقلية واطلالها على آفاق العالمين العربي والاروبي معا .
- ٢ - ان ابن سعيد زاد على الادريسي في انه قام بتبيان عروض واطوال جميع المواضع المأهولة بطريقتة دقيقة يمكن معها الى حد كبير تخطيط مصور جغرافي كامل .
- ٣ - ان مادة ابن سعيد عن الاقطار الاوربية - وخاصة فرنسا وهنغاريا - غنية وحافلة ولا تخلو من طرافة .

---

(١) تاريخ الادب الجغرافي العربي ٣٥٧/١ وكذلك مادة " جغرافيا " في الموسوعة الاسلامية

(٢) نقولا زيادة، الجغرافية والرحلات عند العرب ص ١٤

٤ - ان شك المؤرخ المشرقى الايوبى عماد الدين ابى الفداء فى معلومات ابن سعيد عن جغرافية المغرب امر لم يقره عليه البحث الجغرافى الحديث بصفة دائمة، فأما رى AMARI وهو من خيرة الباحثين والعارفين بالمصادر فى هذا الميدان قد أضاف اللثام عن معرفة ابن سعيد الجيدة بجنوبى أوربا وبإيطاليا بوجه خاص.

٥ - ينفرد ابن سعيد - دون المؤلفين العرب قاطبة - بإيراد رواية هامة - ربما نقلها عن ابن فاطمة - تتعلق باستيطان الهنود لجزيرة مدغشقر .

٦ - بالرغم من انه نقل عن الادريسي ونقل عنه ابو الفداء فان مصنفاته " لدى مقارنتها بالادريسي وابى الفداء تمثل قائمة بذاتها . . ولم يستطع ابو الفداء او المترجمون والناشرون ان يستغرقوا جميع مادته " . . . ولذا فانها مازالت فى حاجة الى بحث خاص وعندئذ يمكن توضيح الجوانب الغامضة توضيحا كافيا . . . (١)

وهكذا نرى ان جغرافية ابن سعيد لم يسلط عليها الضوء الكافى بعد . والرجاء فى ان تحظى جغرافيته باهتمام خاص من قبل الباحثين الجغرافيين العرب لما لها من اهمية ظاهرة .



## الفصل الخامس

= / = / = / = / =

### آراءه النقدية

١ - الجو النقدى العام

٢ - مصادره دراسة نقده

٣ - آراءه النقدية :

موقفه العام -

درجات الشعر -

مقياس الجودة الشعرية -

مقياس الجودة النثرية -

## ١ - الجو النقدي العام :

اثبتت الدراسة التي قام بها الدكتور احسان عباس لتطور المذهب الادبي العام في الاندلس ان المنافسة اشتدت " بين ماسماه الاندلسيون طريقة المحدثين وما سموه طريقة " العرب " (١) خصوصا بعد ان كثر تلامذة القالسي واتسع نطاق تأثير مدرسته التي اهتمت بتدريس كتب تعتمد على شرح هي من صميم طريقة العرب في الشعر .

وما ان جاء عصر الطوائف والمرابطين حتى ادى ذلك التنافس - متأثرا بمدرسة القالسي - الى انتصار ظاهر لطريقة العرب - طريقة المحدثين من حيث المبنى والموضوع ، وهذا ذلك واضحا في شعر ابن هانسي ، وابن عبدون وابن وهبون وابن حصن وابن بقرى من خلال اسلوب جزل متدفق واجواء بدوية ومعان عربية تقليدية قديمة ، وعن طريق التأثر باكبر شاعرين عادا للطريقة البدوية وهما المتنبسي والبيهقي .

وهذا لا يعني ان طريقة المحدثين المعتمدة على الاستعارة البعيدة وأنواع البديع والرقعة والتأنق في الاسلوب قد تلاشت . فابن خفاجة - احد الشعراء البارزين في ذلك العصر - تمكن من المزج بين التدفق الجزل والصورة البعيدة الا ان الطابع العام للشعر في تلك الفترة ظل مصطبغا بلون مذهب القدماء القائم على الجزالة وشدة التدفق من حيث بناء وموسيقاه العامة ( ٢ ) .

---

(١) - تاريخ الادب الاندلسي (عصر الطوائف والمرابطين) ١٠٨

(٢) - المصدر السابق ١١٢ - ١١٨

أما في عصر الموحدين - عصر ابن سعيد - فأرى ان طريقة العرب عادت الى التفهيم والانزواء وان طريقة المحدثين عادت الى احتلال مكانتها بوصفها النمط النفس السائد في الشعر والنثر .

والواقع ان طريقة العرب كانت شيئا طارئا على البيئة الاندلسية الميالة الى الرقة البعيدة عن جوار الصحراء وخشونته المغرقة في الحضارة <sup>الزمنية</sup> والفن <sup>الزمني</sup> وانها ما لبثت ان ضعفت بزوال العوامل التي سببت قوتها :

أ - فأثر المتنبى والمعري تضائل بمرور الزمن واتجاه المشرق ذاته نحو مذهب أبى تمام بعد ان جرد من تعقيد الفكرى وولغ في ميله للاستعارات والبديعيات والاسلوب الرقيق وشدد فيه على مسألة كد القريحة و " الفوص " مقابل عمل البديهة .

( ١ )

ب - ان ردة بعض الشعراء في الاندلس ضد الاغراق في الحضارة كانت مظهرا نفسيا عابرا فالترف الاندلسى كان حقيقة واقعة لا بد من الاستسلام لها في النهاية .  
ولكن <sup>وبما كان</sup> المرء ان يلمس بوضوح آثار انتصار طريقة المحدثين في هذا العصر في الاعمال النقدية وفي كثير من مظاهر النتاج الشعرى على حد سواء ، وان كان ذلك بالمقابل لا ينفى وجود حالات فردية وظواهر متفرقة تعكس ميلا اوحيننا لطريقة القدماء اوللاجواء البدوية .

فعلى صعيد النقد لدينا عملان نقديان بارزان في هذا القرن ( القرن السابع ) ، احدهما من المشرق والثانى من المغرب ، يوكدان وبلوران كثيرا من المواقف التى تعتبر فى صميم طريقة المحدثين ، واعنى بهما كتاب " المثل السائر " لابن الاثير وكتاب " الوافى فى نظم القوافى " لآبى البقاء الرندى .

.../...

فابن الاثير يرفض الرأى القائل باقتصار الابداع على القدماء ويرى ان باب الابداع مفتوح الى آخر الدهر ويعتني عناية خاصة بناحية الصور البيانية من تشابيه واستعارات ومعطى اهتماما كبيرا لرقعة الاسلوب ويقدم ابا تمام على غيره من الشعراء حتى انه يفضل على المتنبي<sup>(١)</sup> ويجعل دراسته شعره طريق التفوق في البلاغة والفصاحة لانه " رب معان ، وصيقل الباس وأذهان ، وقد شهد له بكل معنى مبتكر لكل يمش فيه على اثر ، فهو غير مدافع عن مقام الاغراب ... وقد مارست من الشعر كل اول واخير ... فمن حفظ شعر الرجل وكشف عن غامضه ، وراض فكره برائضه اطاعته اعنة الكلام ...<sup>(٢)</sup>

وسير ابو البقاء الرندى ، الذى يمثل كتابه " الوافى " احد معالم النقد الرئيسية في عصر الموحدين ، في خط التيار الذى يمثل ابن الاثير ومناصب ومذهب المحدثين عامة ، فيهتم بالتاكيد منذ البدء على حق المتأخرين في التجديد والاختراع محاولا الرد على الرأى المضاد المنحاز للقديم : " هذا وان كان من سلف قد سبق في هذا المضمار ... فأنت ترى كيف اتى السابق بما ادرك ثم جاء اللاحق فنقض واستدرك ، وفي كل شجر نار ... وربما بلغ التأخر بشرف الاطلاع ما لم يبلغ المتقدم بفضل الاختراع . ولا شك ان للقول بابا لا يمد وللأختيار شأوا <sup>لا يجد</sup> وليسوا ذلك لسد الباب واكتفى في كل علم بكتاب " .<sup>(٣)</sup>

والرندى الى جانب دفاعه عن المتأخرين ونصيبهم من الابداع ، يؤكد على كد القريحة واعمال الذهن مقابل البديهة والعفوية ومنح الشاعر بانه " ينبغى الايقبل كل ما يبعثه هاجسه وينفث به وساوسه ، يل ينقح ويختار ولا يذهب الى الاستكثار واذا فرغ من شعره ثبت فى امره ، فيتأمله مرتين ويرجع البصر فيه كرتين<sup>(٤)</sup> .  
وغنى عن البيان ان هذا المبدأ اساس مذهب المحدثين .  
... / ...

(١) - ابن الاثير ، المثل السائر ٣٩٤/٢

(٢) - المصدر السابق ٣٦٩

(٣) - الوافى في نظم القوافى ( نسخة مصورة ) : ١٤

(٤) - المصدر السابق ١٥

وقد اهتم الرندى فى كتابه هذا بالبلاغة - وخاصة البديع - فافرد لها فى كتابه جزءا كبيرا باسم " محاسن الشعر وديعه " تحدث فيه عن اربعين بابا بلاغيا بين بيان وديع .

وفى مجال الشعر سار ابو البقاء الرندى طبقا لميوله النقدية ، فجا شعراء على حد قول ابن الخطيب " سهل المأخذ ، عذب اللفظ ، رائق المعنى ، غير مؤثر للجزالة " كما انه عكس ميلا واضحا نحو الصنعة والبديع .

وعلى وجه العموم فان هذه الخصائص المميزة لطريقة المحدثين يمكن تبينها فى القسم الاعظم من النتاج الشعرى لهذه الحقبة ، وعند الغالبية العظمى من الشعراء . وليس من الصعب وضع شعراء من مثل ابى بكر بن زهر وابن حيون وابن الهيثم وابن الصابون وابن سهل - فضلا عن الرندى - فى اطار تلك الطريقة هذا اذا اردنا الاقتصار على الاندلس . وسوف نرى فى هذا الفصل والفصل التالى الى اى مدى تفاعل ابن سعيد مع هذا التيار نقدا وشعرا .

#### ✻ مصادر دراسة نقده :

لم يخلف ابن سعيد مؤلفا مستقلا فى النقد ، ولكنه صنف كتابى " عنوان المرقعات " و " رايات البرزين " وهما عبارة عن مختارات من الشعر انتخبها ابن سعيد طبقا لمقاييس الجودة الفنية عنده . وقد قدم للكتاب الاول بمقدمة موجزة مهمة تكشف الكثير من آرائه النقدية . والاضافة الى ذلك فان ابن سعيد نشر بعض احكامه النقدية عند ترجمته لشعراء عصره فى " القدر " و " الغصون " .

#### ✻ آراءه النقدية :

يبدو ابن سعيد للدارس فى كتابى " عنوان المرقعات " و " الرايات " وكأنه احد هؤلاء المشرفين على سلسلة كتب المختارات الشعرية التي تصدر اليوم فى المغرب بقصد تعميم الثقافة الشعرية بين الفاس عن طريق نماذج من الشعر الرائع لشعراء متازين .



ومهمة اختيار قطع من الشعر الممتاز (وامتيازها نسبى من حيث صلاحيتها  
لعصرها ولذوق من يختارها ) ليست مهمة سهلة . فامام القائم بالعمل آلاف النصوص  
الادبية لمئات الشعراء عليه ان يختار من بينها القليل القليل الذى يكاد <sup>يفق</sup> يفق  
بالغرض ، ومن هنا تنشأ الاهمية القصوى لوجود مقياس نقدى يقوم على  
اساس الاختيار .

وهذا ما احس به ابن سعيد عندما اقدم على تصنيف كتاب " عنوان المرقصات " <sup>(١)</sup>  
والمطربات " الذى قرر ان يضمه الفبيت فقط تمثل قمة الابداع فى شعر  
العرب كله من العصر الجاهلى حتى منتصف القرن السابع للهجرة ، بالاضافة  
الى مجموعة من النصوص النثرية القليلة التى تشمل بدورها ابداع ما كتبه  
العرب فى مجال النثر الفنى

وما لاريب فيه ان المقياس النقدى الذى اعتمد المؤلف فى هذا الكتاب و اشار  
اليه صراحة قد اعتمد ضمنا فى اختياره لاشعار " المغرب " و " الشرق "  
و " الرايات " وفيما اختاره من شعر المترجم لهم فى " القدح " و " الفصون "  
فما هو هذا المقياس النقدى وما هى تلك الآراء <sup>المتفرعة</sup> المتفرعة عنه ؟

١ - موقف عام :

نرى ابن سعيد فى مقدمة كتابه " المرقص " <sup>وفى</sup> وفى مقدمة " الرايات " يشدد  
على رأى القائل انه لافرق بين القديم والجديد وان فرص الاجادة مفتوحة امام  
المحدثين كما كانت متاحة للقدماء ، وانه لا مجال لتفضيل عصر على عصر ولا مصر  
على مصر . " قاله جل ولا ٠٠٠ جباها ( البلاغة ) فى كل عصر <sup>بالكرم</sup> بالكرم ولى واعز ناصر  
ولم يقصر الفضل على من تقدم ، وابان لنا مطاح القصور بمن جعل جنته :  
هل غادر الشعراء من مُردم

واجبرى الحقيقة على لسان القائل :  
فلو كان يغنى الشعرُ افنته ماقرتُ      حياضك منه في العصور الذواهب  
ولكنه صوبُ العقولِ اذا انجلتُ      سحابُ منه اُعفيت بسحابِ (١)

ثم ان لكل عصر مهمته المعينة التي قام بها فـ "لله در القائل ان المتقدمين بنوا فأوثقوا وان المتأخرين زينوا ونمقوا" . وهكذا فان المتقدمين وضعوا اساس البلاغة قويا وثيقا تاركين للمتأخرين فضل زركشة البناء وزخرفته . وليس من الجائز ان نفرض على كل العصور نمطا معيناً من الذوق الفني اذ انـ (٣)  
" لكل زمان مايليق به من البيان . . . . . والناس يازمانهم اشبه منهم بآبائهم " فظروف الزمن الحاضر تفصل الانسان عن تقاليد ومنازع كانت لابائهم وتضطره للتلاؤم معها بشئ جديد من عنده . . . خلاصة الامر ان البلاغة لم تنزل " فـ كل عصر بالمشارك والمغارب تطلع مايزين سماءها من شمس ومدور وكواكب . والمنصف من اطلال عنان الاختبار دون اقتصار ولم يخص بالفضيلة عصرا من الاعصار ولا مصرا من الامصار " (٤)

مشعر المرء وهما لاحظ الطريقة التي يصوغ ابن سعيد بها مقدمته انه يرد على آراء معينة وانه يسعى لنقض مذهب مضاد :

- ١ - فباب الابداع مفتوح ، وان الامر ليس كما قال عنتره - وجاراه انصار الطريقة القديمة -
- ٢ - كما لا يفضل عصر على عصر كذلك لا يفضل قطر على قطر .
- ٣ - للاوائل فضل البناء وللأواخر فضل التزيين . وكأنه يريد ان يقول ان الاوائل وضعوا قواعد اللغة وركبوا الاساليب وانشأوا العروض واصطلحوا المفردات وان دور المحدثين في ادخال التشابيه البديعة والمحسنات اللفظية والبرقة والسهولة على ذلك البناء الوثيق .

.../...

(١) - المرقعات ٢

(٢) - المصدر السابق ٣

(٣) - المصدر السابق ٣

(٤) - المصدر السابق ٣

ومن الواضح ان ابن سعيد يتخذ هذه المواقف النقدية انسجاما مع مذهبه النقدي العام - الا وهو مذهب المحدثين - وانسجاما مع نزعتيه المغربية - الاندلسية ، فايقاف الفضل على المتقدمين معناه التقليل من كل ما قاله - وسيقول له المحدثون - وتفضيل قطر على قطر - من ناحية اخرى - لن يكون في صالح المغرب والاندلس فعند المقارنة الجديدة سيكون من الصعب تخطي الخلق والشام والجزيرة .

والواقع ان المرء عندما يتابع ابن سعيد في اختياراته وشارته وتقييماته يشعر ان الرجل يفضل طريقة المحدثين على طريقة القدماء - وانّه يميل الى تفضيل بلده اوعلى الاقل الى التذكير بان لبلده مزايا ليست لغيرها في مجال الشعر بالذات .

فهذه بعض آرائه مثلا في نتائج القدماء : (٢)

(١) - وجميع نثر القدماء داخل في طبقة المقبول وماتحتها " ودرجة المقبول هي الدرجة الثالثة بعد درجة المرقص ودرجة المطرب . . ومعنى ذلك ان نثر المحدثين متفوق بوضوح على نثر القدماء . . . فمنه المرقص ومنه المطرب .

(٢) - ويبدو ان نثر القدماء لا يعجب ابن سعيد حتى زمن ابن العميد . فرسالة هذا الكاتب الشهيرة التي كتبها باسم ركن الدولة الى الشاعر بلكا " وان اظنوا فيها وجعلها الثعالبى واسطة لعقد ترسل ابن العميد فانها من طبقة المقبول . . . . وفيها ايضا من اهمال التقيد بالسجع ما هو خارج عن شرط هذا الكتاب " (٣)

اما الذين سيتستحون نثرهم على اعجابه فهم الهذلي الذي عدّه " من سابقى هذه الحلبة ومن جاز في مراتبهم اعلى رتبة " والقاضى الفاضل الذي لا يعلم ( ابن سعيد ) " بالمشرق والمغرب مثله " وضيا " الدين بن الاثير " امام كتاب المائة السابعة <sup>(٤)</sup> فن هذا الكتاب <sup>(٥)</sup>

- (١) - المرقصات ٥
- (٢) - المصدر السابق ٧
- (٣) - المصدر السابق ٢
- (٤) - المصدر السابق ١٠
- (٥) - المصدر السابق ١٥

٣ - يخالف المتقدمين في تأخيرهم عنثرة ويعتبره مقدما " بالنظر الى معانى الغوص (٥) ويستدل بآيائه :

جاءت علي<sup>عليه</sup> كل غير<sup>قوة</sup> فتركن كل هديقة كالد رهيم  
وخلا الذباب بها فلي مباح  
هزجا يحك ذراع<sup>قوة</sup>ه بذراع<sup>قوة</sup>ه  
ويتنه :  
فوددت تقبيل السيوف لانها  
لمعت كسارق<sup>قوة</sup> غفر<sup>قوة</sup>ك<sup>قوة</sup> المتعظم<sup>قوة</sup>

والذى جعله يقدم عنثرة من خلال هذه الابيات هو هذه التشابه التى يسميها " معانى الغوص " . . . وهى نوعة اساسية فى طريقة المحدثين وخاصة خلال القرن السابع .

٤ - يصف اوصاف الاعشى الخمرية بانها " اعرابية جافية يخرجها جفا " <sup>نحو</sup> ~~تطعمها~~ عن المرقص<sup>(٢)</sup> .

٥ - عندما صنف كتابه " رايات المبرزين " للامير المشرق ابن يغمور تعمد ان يقصره على افضل ما قاله شعرا<sup>مقدمة</sup> المغرب خلال الثلاثمئة سنة الاخيرة . وقدم لـه ~~بمقدمة~~ دلت على اعتزازه الشديد بهذا الشعر ( والكتاب سيطلع عليه شعرا<sup>المشرق</sup> وخاصة الذين قابلهم فى مصر من البها<sup>قوة</sup> زهير الى ابن مطروح الى سيف الدين سابق الى ابن العديم ) . قال ابن سعيد<sup>(٣)</sup> فى تلك المقدمة : " فهذا مجموع اوردت فيه من غرائب شعر المغرب ما كان معناه ارق من النسيم ولفظه احسن من الوجه الوسيم . . . . . ان هو كما قال احد شعرائهم :

شعر على الشعرى علا قدره  
ينقلب القلب لـه جموده  
عنه ثناء<sup>قوة</sup> الصدق لا يثنى  
ويدخل القلب بلا ان

(١) - المرقصات ١٥  
(٢) - لم يدخل ابن سعيد مصرفى هذا الكتاب ضمن المغرب كما فعل فى " المغرب " و " عنوان المرقصات " فالامير الذى يولف<sup>قوة</sup> فى مصر ويريد الاطلاع على شعر الاندلس ومراكش والمغرب الاوسط .

”وحق له ذلك“ إذ قص الفاظه مفصلة على قدود معانيه وزخرف اتقانه من حسن  
مبانيه ، واشترطت مع هذا ان لا اورد منه الا ما لم يسبقوا الى <sup>معناه</sup> قصه او استحقوه بزيادة  
او حسن عبارة ابرزته بعد تجديده في حلاه <sup>(١)</sup>  
فاذن يحق لشعر المغرب ( الذي هو <sup>اندرسي</sup> الاصطلاحي في غالبية العظمى كما ورد في  
الكتب ) ان يعلو على النجوم . . . ثم ان هذا الشعر المختار كله معان مختصة  
او مزاده لم يصل اليها شعراء المشرق .

٦ - في ترجمته للشاعر الدمشقي ابن الساعاتي في كتاب " الغصون " " يصف شعره بأنه يجمع بين الفاظ المشاركة (١) الرقيقة ومعاني المغاربة الدقيقة فلا يخلو من صقل الكلام وغوص الفكر " فإذا كان للمشاركة الفاظهم الرقاق فللمغاربة معانيهم الدقاق وإن امتاز أولئك بصقل كلام فإن هؤلاء يمتازون بغوص فكر \* ولا غوص الفكر " هذا هو ما يكرره ابن سعيد في كل مكان إشارة على قدره الاتيان بتشابيه بعيدة الغور دقيقة التفاصيل \* \* تفاجئ \* \* وتدهش \* \* وهذه القدرة على ما يبدو ينسبها هنا للمغاربة \*

هذا فيما يختص بموقف ابن سعيد النقدي بصورة عامة • ولعله من الخير في ختام هذا الكلام ان نذكر ان ابن الاثير والرندى في كتابيهما النقديين اتخذا الموقف العام ذاته تقريبا بالنسبة <sup>للمائل الذي</sup> ~~الى~~ تناولها ابن سعيد •

وقبل الانتقال الى النقد "الفني" عند ابن يعقوب ، لابد من وقفة عند تقسيماته  
 "المكانية" و "الزمانية" للنجاح الادبي . ففي كتابي المغرب والمشرق نلاحظ  
 "حسا جغرافيا" واضحا يسايره "حسن تاريخي زمني" فهو يقسم القطر الى  
 اقسامه الرئيسية ثم يقسم كل قسم الى مدنه <sup>الرئيسية</sup> <sup>النامية</sup> . ويبدأ بالحديث عن المدينة <sup>المدنية</sup>  
 حديثا جغرافيا محددات يتناول جوها وطبيعتها واهلها وشهرتهم ثم ياخذ في  
 الترجمة للشخصيات حسب التتابع الزمني وقد تمت الاشارة الى منهجه هذا تفصيلا عند  
 الحديث عن مصنفاته .

(١) - الرايات ٥

(٢) - الغصون ١٢

السؤال الذى اود ان اطرحه هنا يتعلق بإمكانية وجود صلة بين نظراته النقدية وبين هذا المنهج فى التقسيم والتبويب : الى اى مدى استطاع ابن سعيد - ان كان الاحتمال واردا - التنبه الى العلاقة بين النتاج الادبى وبين البيئة المكانية والظروف الزمانية ؟ وهل يمكن تفسير منهجه فى التقسيم على انه شعور بتلك العلاقة ؟

الواقع ان ابن سعيد لم يشر صراحة الى هذه الناحية . وليس من سبيل السى تحميله مالم يقله او يشر اليه من قريب او بعيد . الا ان التساؤل يظل قائما - وليس الجواب عنه بالايجاب امراً مستحيلاً - وان لم يكن قوى الاحتمال . فابن سعيد فى بعض الاحيان يورد شعرا لشعراء مدينة معينة تنعكس فيه خاصية واضحة من الخصائص التى وصف بها اهل تلك المدينة اوجوها ( وان كان ذلك الشعير يحمل خصائص اخرى ايضا ) ، كما انه اشار فى مقدمة المغرب الى علاقة الادب بفروع المعرفة الاخرى - وكان يقصد التاريخ والجغرافيا على وجه الخصوص - ملمحا الى ان <sup>الناقد</sup> ~~التقيد~~ يحتاج الى ثقافة تتعدى مجال الادب الخالص : " اذ هذا الفن الادبى متطفل على سواء متوشح بغيره من الفنون توشح البلبل بالدوح من اسفله الى اعلاه ، ولذلك احتجنا مع الاستضلاع من صميم <sup>(١)</sup> فنه الى مطالعة غيره من الفنون التى مزجناه بها مزج الصبا بالما " . . . فهل يمكن تفسير هذا القول على ضوء ذلك الاهتمام ؟ وربط كل ذلك باشارته السابقة من ان الناس اقرب الى عصورهم منهم الى ابائهم ؟

قد يكون الاحتمال واردا ، ولكن ابن سعيد <sup>فى</sup> نقد التطبيقى يبدو ابعدا ما يكون عن تصورات كهذه .

## ٢ - درجات الشعر :

في مقدمة كتاب " المرقصات " قسم ابن سعيد الشعر الى خمس درجات :  
أ - مرقص : وهو " ما كان مخترا او مولدا يكاد <sup>بالحو</sup> يخلق بطبقة الاختراع (١) مثل :

سموت اليها بعدما نام أهلها      سمو حباب الماء حالا على حال  
..... فأت اذا ما هجع السامر

واسقط علينا كسقوط الندى

و : الشمس لا تشرب خمر الندى      في الروض إلا بكؤوس الشقيق

ويتضح من تعريف ابن سعيد للمرقص ومن هذه الامثلة وكافة الامثلة الواردة في الكتاب

انه يقصد بالشعر المرقص - شعر الدرجة الاولى - ذلك الشعر الذي يتضمن

تشابيه بعيدة ودقيقة . من ذلك النوع الذي يسعى في البلاغة بتشبيه التمثيل

او تشبيه حالة بحالة . . . . وهو التشبيه بين حالتين في اطارها العام ثم

التوفيق بين دقائقهما التفصيلية . . . .

ففي البيت الاخير مثلا :

والشمس لا تشرب خمر الندى      في الروض إلا بكؤوس الشقيق

لدينا تشبيه حالة تبخير حرارة الشمس لقطرات الندى من على ازهار الشقيق بحالة

شارب الخمرة الذي يحتسى شرابه من الكأس .

ثم لدينا مقابلة الدقائق بالدقائق :

الشمس تشبه الشارب ، والندى هو الخمر ، وربما كانت هناك شمة اشارة بان

الروض هو الحانة ، واما ازهار الشقيق فهي الكؤوس .

ويكاد هذا القياس ينطبق على كل ما اورد ابن سعيد في باب المرقص . وهذه

بعض نماذج وشواهد على ذلك على سبيل المثال لا الحصر :

...../.....

(١) للمجنون :

بعادٌ وهجرٌ واشتياقٌ ولوعةٌ      ولا انتَ تدنيني ولا انا اقربُ  
كعصفورةٍ في كفٍّ طفلٍ يضمُّها      تذوقُ حياضَ الموت والطفلُ يلعبُ  
فلا الطفلُ ذو عقلٍ يرقِّ لمابها      ولا <sup>الطير</sup> ~~يطلق~~ ذورٍ يشيطيرُ فيذهبُ (١)

فحالة الشاعر هنا بوقوعه في أسر الحب تشبه حالة العصفور الواقع في يد طفل يعذبه ... ثم تأتي التفاصيل لتحدد :

الشاعر المحب كالطائر اللقائد جناحيه ، والمحبة الغريزة كذلك الطفل الغرير اللاهي . وحالة التعذيب القاتل غير المتعمد مشتركة بين الحالتين .

(٢) ابونواس :

فتشتُ في مفاصلهم      كتمش البرء في المقام  
وقوله : كأن يواقتياً بصحنٍ اناءها      وزرق سنانيرٍ تُديرُ عيونَها (٢)

(٣) ابوتام :

واذا اراد الله نشرَ فضيلةٍ      طويتِ اتاحَ لها لسانُ حسودٍ  
لولا اشتعال النارِ فيما جاورتُ      ما كان يُعرفُ فضلُ طيبِ العودِ

وليس من الضروري ان تأتي الصورة البيانية على هيئة تشبيه صريح ... فالمهم هي "فكرة الغوص" والمعنى الدقيق البعيد ... جاء تشبيها ام استعارة . فمن المرقصات مثلا هذه الاستعارات ( والاستعارة كما هو معروف في البلاغة تشبيها

حذف احد طرفيه ) الواردة في بيت " مرقص " لابي تمام :  
فتى كلما فاضت عيونُ قبيلةٍ      دماً هضكت عنه الاحاديثُ والذكرُ (٣)

(٤) ابن الرومي في تفضيله النرجس على الورد :

أين العيون من الخدودِ نفاسةً      ورئاسةً لولا القياسُ الفاسدُ ؟

(١) - المرقصات ٢٤

(٢) - المصدر السابق ٣١

(٣) - المصدر السابق ٣٣



(٥) ابن المعتز في وصفه للهلال :  
 ولاح ضوء هلالٍ كاد يفضحنا  
 مثل القلعة قد قادت من النافر  
 وقوله : وانظر اليه كزورقٍ من فضة  
 قد انقلته جمولة من عنبر (١)

(٦) ابن خفاجة :

وقد خلعت ليلا علينا يد الهوى رداءً عنق مزقته يد الفجر  
 (٧) وقول ابن سعيد في غلام احاط الشعر النابت بخال على خده :  
 كان خالاً لاج من خدّه للعين في سلسلة من عذار  
 أسود يخدم في جنسة قيده مولاة خوف الفرار  
 فالقياس باستمرار هو وجود الصورة البيانية البعيدة ، الدقيقة ، التي يتم  
 التلازم بين تفصيلاتها

ب- مطرب : وهو " ما يغص فيه الفوص عن درجة الاختراع الا ان فيه مسحة من  
 الابتداء وهو على ما يبدو من خلال الامثلة التي اختارها صورة بيانية تقل عن  
 درجة المرقص غرابية ومعدا واغراقا في التفاصيل . كقول زهير :  
 تراه اذا ماجتته متهللا كأنك تعطيه الذي انت سائله

ج- مقبول : وهو " ما كان عليه طلاوة مما لا يكون فيه غوص على تشبيه وتمثيل " (٣) .  
 وهذا هو الشعر السهل ، العذب في لفظه ، العادي في معناه ، الخالي  
 من التشابيه والاستعارات والبديع . كقول طرفة :

سبدي لك الايام ما كنت جاهلا وبأتيك بالاخبار من لم تزود  
 د- مسموع : وهو " ما عليه اكثر الشعراء ما به اكثر القافية والوزن دون ان يعجزه الطبع  
 ويمتثله السمع (٤) ويبدو ان ابن سعيد يقصد به الكلام المنظم ~~المتطاول~~

- (١) - المرقصات ٣٩  
 (٢) - المصدر السابق ٤  
 (٣) - المصدر السابق ٥  
 (٤) - المصدر السابق ٥

الاسلوب العادى والمعنى العادى الخالى من كلمة نابية او معنى ملتصق  
كقول امرئ القيس :

وقوفاً بها صبحى عليّ مطيهم يقولون لاتهلك أسي وتجمّل

والظاهر ان الاسلوب الجاهلى القوى الجزل لا يرفع من منزلة الشعر عند ابن  
سعيد فهذا البيت من معلقة امرئ القيس يعد من درجة المسموع .  
ويبدو من المثل الثانى الذى يورده هنا من شعر ابن المعتز :

سقى الجزيرة ذات الظلّ والشجر

ودبر عبدون هطال من المطر

يبدو من هذا المثل والمثل الذى سبقه ان المسموع عند ابن سعيد هو المعنى  
المكرر الذى يورده كل الشعراء كمعنى الوقوف على الاطلال وطلب الغيث .

هـ المتروك : " ما كان كلاً على السمع والطبع كقول المتنبي :

فقلقتُ بهمّ الذى قلل الحشا قلاقل عيسٍ كلهن قلاقل<sup>(١)</sup>

وظاهر ان المتروك ما استكرر لفظه <sup>لفظه</sup> والقوى <sup>والتوى</sup> معناه او استغلق . ومن الملاحظ  
ان ابن سعيد لم يورد فى الطبقات الاربع السابقة اى بيت للمتنبي . واستخدم فى ادنى  
درجة بيتا من شعره للإشارة الى الشعر المتروك . وهو امر قد يكون وليد المصادفة  
الا انه يمكن ان يتخذ دليلاً على مدى تقدير النقد فى القرن السابع لشعراى الطيب  
وللمدرسة <sup>التي</sup> يمثلها .

٣ - مقياس الجودة الشعرية عند ابن سعيد :

أ - رأينا ان مقياس الجودة الشعرية عند ابن سعيد هو ان يكون الشعر من درجة  
المرقص الحافل بالصور البيانية من استعارات وتشابيه بعيدة ، دقيقة ،  
حافلة بالتفاصيل ، مفاجئة ومدهشة تشغل العقل وتملأ النظر . ويبدو انه كان  
يقيم الشعراء على هذا الاساس ولا يعد الشاعر فى نظره شاعراً اذا لم يكثر من

التشابه و "معاني الغوص" على حد تعبيره . فقد رأينا كيف قدم عنتره بسبب مجموعة من التشابه الواردة في معلقته . وسنعمل الآن على النظر في تعليقاته على مختارات بعض الشعراء الذين قدمهم في كتاب "المرقصات" : فها هوذا يقدم ابا نـواس بقوله : " هو من ائمة اصحاب الغوص ولا سيما في اوصاف الخمر <sup>(١)</sup> ثم يـورد تسع نماذج من شعره حافلة كلها بالصور البيانية .

ويظهر اعجاب ابن سعيد بشعر ابي تمام من خلال كثرة النماذج التي يورد هاله . فقد اورد له خمسة عشر نموذجا حافلة بالبديع والاستعارات والتشابه من مثل : <sup>(٢)</sup>

كواكبُ زارت في ليالٍ قصيرةٍ      يخيّلن لي من حسنهن كواكباً  
وجوهه . . لو ان الارضَ فيها كواكبٌ      توحد للسارى . . لكانت كواكباً

ومن مثل :

تردى ثياب الموت حمرًا فما اتى      لها الليلُ الا وهى من سندسٍ خضرٍ <sup>(٣)</sup>

ومن مثل :

يُخفى الزجاجة لونها فكانها      في الكف قائمةٌ بغيرانـاءٍ

وابو تمام يعتبر رأس طريقة المحدثين وامامها فهو الذى جعلها اتجاهها شعريا واضحا بعد ان كانت ظواهر متناثرة في شعر القدماء . وقد تعصب الكثيرون لابي تمام ضد المتنبى والبحتري انتصارا منهم لهذه الطريقة . ولقد امكن القول ان حركة النقد في القرن الرابع وما بعده كانت تعبيرا عن الصراع بين المذهبين .

ومن شعراء توليد المعاني والتنقيب عنها الذين اعجب بهم ابن سعيد الشاعر ابن الرومي الذى قال عنه : " يقولون انه احق الناس باسم شاعر لكثرة اختراعه وحسن توليده <sup>(٤)</sup> وكذلك

(١) - المرقصات ٣١  
(٢) - المصدر السابق ٣٣ - ٣٤  
(٣) - المصدر السابق ٣٧

(١)

سمى شاعر البديع عبد الله بن المعتز " امام المشبهين في الدولة العباسية " .

وما يجدر ذكره ان ابن سعيد في مختاراته لم يلتفت الى اى نتائج شعري ، مهما علا قدره وعظمت مكانته - لم يخضع لفهمه الذى ذكرنا . فهو بلا شك قد اطلع على شعر البحتري والمتنبى مثلاً . يدل على ذلك ايراده لنماذج من شعرهما . ولكن ما اورده من شعرلها يشير بوضوح الى انه لم يقدر النتائج الذى كان اساس نجاحهما وشهرتهما بل قدر ما خضع لفهمه وذوق عصره .

فشاعر كالبحترى مثلاً عرف بشعره المطبوع ، المتأثر بالاسلوب والجوابدويين ، البرى من زخارف البيان والبديع . . . ولكن كيف قدر ابن سعيد هذا الشعر ؟ . . . . .  
لقد اختار من ديوان البحتري كله بيتاً واحداً فقط اعتبره في مستوى المرقص . (٢)  
هذا البيت هو : شرف تتابع كابران كابر كالريح انبها على انبوب

وهو بيت كان يمكن للبحترى الايقوله مطلقاً . . دون ان يغير ذلك من مكانته شيئاً فهو لا يمثل طابعه ولا طريقته . . . ولكن - مع ذلك - " ارقص " ابن سعيد - والنقد معه - في القرن السابع .

وفيما يختص بشعر المتنبى فان الناس ظلوا يعجبون على العموم في شعره :

أ - بهذا النفس الملحمى ذى الاسلوب الجزل المتدفق

ب - يمتلك النظرات التأملية الحية ، النابعة من تجربة صادقة ، المسكوبة في اسلوب قوى متين .

ولكن ابن سعيد - وفاً منه لذوقه ولعقائمه ومقاييس عصره النقدية - لا يعجب باى من

ذلك . . ولا تلفت نظره في نتائج المتنبى الغزير الا " المرقصات " السنة التالية :

١ - فان يك سيارُين مكرم انقضى فانك ما الورد ان فذهب الورد

٢ - فاصبح شعري منها عني مكانيه وفي عنق الحسناء يستحسن العقيد

٣ - والهجر اقبل لي مما اراقبه انا الغريق فما خوفي من البلبل

٤ - وما ثناك كلام الناصع كرم ومن يسر طريق العارض الهطل

٥ - فان تغق الانام وانت منهم فان المسك بعض دم الغزال

٦ - وهدت الى حلب ظافراً كعود الحلى الى العاطل

(١) - المرقصات ٣٩

(٢) - المصدر السابق ٣٦

(٣) - المصدر السابق ٤٠

ويبدو ان ابن سعيد يضع شعر الحكمة والتأمل - الخالي من صور البيان من تشبيه واستعارة - في درجة المقبول مهما كان رائعا في بناء ومعناه . فهو يقدم بيت طرفه " متبدى لك الايام " وبيت ابن شرف (١)

لاتسأل الناس والايام عن خبري هما ييثانك الاخبار تطفيفا

يقدمهما كنموذجين على شعر طبقة المقبول . ثم هو يصف زهيراً بأنه شاعر أكثر ما اشتهر به الحكم والامثال مما يدخل في طبقة المقبول

ب - ويجمل بنا ونحن نتحدث عن مقياس ابن سعيد النقدي ان نتساءل عن كيفية نظوره لمقياسه؟ قلنا ان المقياس هو الاتيان بالتشبيه البعيد الدقيق . . فما هي مزايا هذا التشبيه هل هو الصورة الحية المتحركة ؟ ام هو النقش الملون الجامد ، هل هو تشبيه الاشياء بما هو اجمل منها او اقوى في ناحية معينة او اشهر ؟

يبدو انه في اغلب ما يختاره من شعر " مرقص " لايهتم بحيوية التشبيه وجماله بقدر ما يهتم ببعده وطرافته وجدته . . فها هوذا يورد التشابه الآتية في " مرقصاته " :  
 لابن المعتز : ولاح ضوءٌ هلال كاد يفضحنا مثل <sup>القدرة</sup> الكلمة قد قُدت من الظفر  
 وقوليه : وانظر اليه كزرق من فضة قد اثقلت حمله من عنبر (٣)

ولذي الرهبة الذي وصفه بأنه " فارس ذلك العصر في معاني الغوص لتولعه بالتشبيه والتخيل وحسن التخيل وهو رئيس المشبهين الاسلاميين " (٤) قوله :

كان انوف الطير في عرصاتها خراطيم اقلام تخط وتعجم  
 والمعاني قوله : في رجل لمده والنجم في كبد السماء كأنه  
 اعمى تحير ما لديه قائد (٥)

(١) - المرقصات ٥

(٢) - المصدر السابق ١٦

(٣) - المصدر السابق ٣٩

(٤) - المصدر السابق ٢٢

(٥) - المصدر السابق ٢٩

ومن البين ان كل هذه التشبيهات التقى راها ابن سعيد " مرقصة " اما ان تكون غريبة او ملونة مزخرفة اودقيقة ٠٠ او لمجرد ان احدا لم يتنبه لها من قبل ولكنها - على اى حال - لاتمثل حيوية وحركة ولا تعكس جمالا ولا تقى بالفرض التقى اوردت من اجله ايقافا تاما بل ان بعضها اورد لمجرد التشبيه للتوضيح اى معنى كبيت ابن المعتز الثانى مثلا .

ج - فى شعر الغزل بالذات يلاحظ ان ابن سعيد لا يشتد فى استخدام قياسه المعتاد ٠٠ وقبل القصيدة الغزلية المشبوهة العاطفة <sup>المعبرة</sup> عن تشوق المحب الشديد على انها من الشعر الجيد ٠٠٠ الا انها لاترقى فى نظره الى درجة المرقص ٠٠٠ بل يضعها فى الدرجة الثانية من الجودة الا <sup>وهي</sup> طبقة المطرب . من ذلك شعر المجنون .. من مثل :

أعدَّ اليالى ليلةً بعد ليلةٍ      وقد عشتُ دهرًا لأعدَّ الليالى  
وقوله :      الا ايها الركبُ اليماني عرجوا      علينا فقد امسى هوانا يمانيا  
وقوله :      فلاحبَ حتى يلصقَ الجلدُ بالحشى      وتصمتَ حتى لاتجيبَ المناديا (١)  
وقول الهذلي :  
هجرتك حتى قيل لا يعرف الهوى      وزرتك حتى قيل ليس له صبر (٢)

وهذه الاشعار الغزلية الرقيقة تشبع ذوقه الاندلسى من حيث موضوعها الغزلى ومن حيث اسلوبها الرقيق السهل .

د - يرى ابن سعيد ان " السرقة الادبية " جائزة اذا " لم يقع الحافر على الحافر " واذا استطاع الشاعر ان يأخذ المعنى السابق ويطوره او " يلفق " بين معنيين متقاربين فيخجن منهما معنى شبه جديد .  
فقد ذكر فى " المرقصات " <sup>(٣)</sup> انه اخذ معنى علقمه المرقص فى قوله :  
اوردتها وصدور العيس مسنخة والصبح بالكوكب الدرى منحور

(١) - المرقصات ٢٤

(٢) - المصدر السابق ٢٨

(٣) - المصدر السابق ١٧

فأعاد صياغته وزاده ايضاحا :

كم زرتُ رواقَ الليلِ منسُودُ  
وأبت والصبحُ منحورٌ بكوكبه  
مسهرُ راقٍ لعجايبا بانجميه  
وسائلُ الشفقِ المحمر من ديه

وأورد في " الغصون " البيتين لشميم الحلبي في ترجمته :

الاهاتِها حيثُ الجدولُ أصبحت  
لدى نرجسٍ يسبى الميونَ بمثلها  
تصول على أرجائها بصلالٍ  
كأقراطٍ قهرٍ كللت بـلالٍ

ثم عقب عليهما قائلا : " فهو وإن لم يأت بما يظهر عليه غوص الفكر فانه ما قصر في سبك اللفظ وتقريب المعنى وزيادة التلفيق . واشهر ما تقدمه في تشبيه النرجس بالأقراط قول ابن عبد ربه القرطبي صاحب العقد :

على ياسمينٍ كاللجين ونرجسٍ  
نظر اليه والى قول ابى الطيب السلافي :  
كأقراطٍ تبر في قضيبٍ زرجدٍ  
انظر الى غصنٍ لوته الصبا  
وقد غدا من زهره في حلى  
كأنه جيد على قامسه<sup>(١)</sup>  
من عقده بالدر قد كـلا

ولفق منهما ما استحق به اسم شاعر  
ويعتبر ابن سعيد أن وضوح اللفظ ورقته وتلاوه مع المعنى الشعري من مزايا الشعر  
الجيد . فهو يقدم لببت طرفه :

يشقُّ حبابَ الماءِ حيزومها بها  
قائلا بانه شعر : " مرقص كد ره استغلاق لغته "<sup>(٢)</sup>  
كما قسم الترب المغايل بالبيد  
وهوورد هذه الابيات الغزلية لاستاذة الشلويميني :

وما شجى قلبي وفرض مدامعنى  
تعشقتُه جهدي فكان لشقوتي  
هوئ قد قلبي اذ كلفت بقاسم  
وطول عنائي قاسيا غير راحم  
وكنت اظن الميم اصلا فلم تكن  
ثم يقول : " والزراقم : الحيات . والمراد انه قاس . فانظر الى هذا التكلف في الغزل  
والتعسف الذي يكدر كل قول وهمل " (٣)

(١) - الغصون ٦ - ٧

(٢) - المرقصات ١٦

(٣) - القدر ١٥٣

#### ٤ - مقياس الجودة النثرية عند ابن سعيد :

من خلال الملاحظات التالية ربما كان بإمكاننا الخروج بصورة شبه متكاملة عن مقياس الجودة النثرية عند ابن سعيد .

أ - قال ابن سعيد في مقدمة " المرقصات " : " وجميع نثر القدماء داخل في طبقة المقبول وما تحتها " (١)

ب - انتقد رسالة ابن العميد بسبب إهماله " التقيد بالسجع " ووصفها بأنها من عبقة المقبول (٢)  
ج - أكثر من إيراد نماذج لأصحاب مذهب السجع والبديع من أمثال الهذاني والحريري والفاضل وابن الأثير . وكل ما أورده لهم من نماذج حافل بمحسنات البديع وصور البيان ، متقيد بالسجع إلى أبعد الحدود . (٣)

د - لم يورد أية نماذج في " المرقصات " متقيد بنثر ابن المقفع والجاحظ . والمعروف أنهم يمثلان مذهبين في النثر يختلفان عن مذهب الفاضل ومن هنا منحا ، والذي أورده لعبد الحميد الكاتب عبارة نثرية قصيرة مسجعة لا تمثل أسلوبه الأصيل . (٤)  
من هذه الملاحظات يتبين لنا ما يلي :

- ١ - أن مقياس الاجارة في النثر الفني هي في ذلك الأسلوب المتقيد بالسجع ، الحافل بالمحسنات البديعية ، المليء بصور البيان من تشابيه واستعارات .
- ٢ - أن القدماء لم يبدعوا في نثرهم كالمحدثين لأنهم أهملوا التقيد بشروط النثر الجيد .

x x x

هذه مجموعة من الآراء النقدية التي يمكن استخراجها من مقدمة " عنوان المرقصات والمطريات " ومن النظر في النصوص الشعرية التي اختارها للكاتب ولكتاب " الرايسات " ولكتاب " المقطف من أواخر الطرف " ومن أحكامه المنتشرة هنا وهناك في " القدح " و " الفصون " .

(١) - المرقصات ٥

(٢) - المصدر السابق ٧

(٣) - المصدر السابق ١ - ١٠

(٤) - المصدر السابق ٦



- واذا جاز لنا ان نجمل ماتقدم امكن تركيز آراء ابن سعيد النقدية فيما يلى :
- ١ - انه لافضل لقديم على جديد ولا قطر على قطر . وان مجال الاجادة مفتوح امام كل صاحب موهبة .
  - ٢ - ان لكل عصر ذوقه واساليب بيانه التى تختلف عن العصور السابقة .
  - ٣ - مقياس الجودة الشعرية هو الاتيان بصور بيانية تكون بعيدة ، مستجدة ، دقيقة ففى تفصيلياتها ، مفاجئة ومدهشة . . . تدل على " غوص الفكر " ، وان يكون ذلك ففى اسلوب سهل رقيق يجليها ويوضحها .
  - ٤ - يمكن للشعر ان يحقق مقدارا من الجودة ، وان خلا من صور البيان - شريطة ان يكون رقيق الاسلوب ، مغزلى الموضوع ، مشوب العاطفة .
  - ٥ - النثر ~~المختار~~ <sup>المستأن</sup> هو ما تنقيد بالسجع وحفل بالبديع وصور البيان .
  - ٦ - يجوز للاديب ان يقتبس معانى سابقة شريطة ان يطورها ويجليها او يخلق فيما بينها ببراعة ليأتى بنتاج شبه جديد .

x x x

من كل ذلك يتبين لنا ان ابن سعيد لا يخرج فى آرائه النقدية عن الجوانب النقدية السائدة فى ذلك العصر . وانه <sup>يتبين</sup> ~~يظهر~~ آراء عرفتنا بانتشارها فى كتب البلاغة والنقد التى كانت تظهر فى ذلك الحين .

وكيف <sup>كان</sup> ابن الاثير " المثل السائر " ، وكتاب الرندى " الوافى " ، اللذان تمت الاشارة اليهما شاهداً على ذلك ، واذا كانت آراء ابن سعيد فى النقد لا تمثل اصالة ولا طرافة فى ذاتها فان خطورتها فى انها تحكمت فى اختياره للنصوص وهو المصنف الذى قضى عمره فى البحث عن هذه النصوص وتبويبها وتهذيبها . . . وهذا يعنى انه وامثالهم من المصنفين الذين خضعوا لنفس المقياس فى الاختيار قد اثروا بصورة قوية فى ذوق هذا القرن والقرون التى تلت عبر مختاراتهم ومصنفاتهم التى اعتبرت خزائن للبيان ومناذج للبلاغة والادب الرائع .

## الفصل السادس

### شعرا بن سعيد

#### (١) تمهيد

- مصادر شعره
- آراء سابقة متفرقة في شعره

#### (٢) نقد شعره

- المظاهر الرئيسية
- الناحية الفنية
- تأثيرات متعددة في شعره

(١) تمهيد

مصادر شعره

لابن سعيد ديوان شعر رتبته على حروف المعجم ، الا ان هذا الديوان لم يصل اليهنا . ولكن المقرئ ، الذي اخبر عنه <sup>(١)</sup> ، حفظ لنا قدرا لا بأس به منه . وسيكون التعويل في دراسة شعر ابن سعيد على ما اورد ، المقرئ في " النفع " ، بالإضافة الى ما اورد ، ابن سعيد من مختارات قليلة لنفسه في " المغرب " و " القدح " و " الرايات " و " الفصون " و " المقتطف " ، وما ذكره له العمري من نماذج متفرقة في " مسالك الابصار " <sup>(٢)</sup> .

آراء سابقة متفرقة في شعره

نلتقي بابن سعيد ، اول ما نلتقي ، في مجال الشعر وهو شاب في حوالي العشرين من عمره ، يصحب والده ، في تجواله بين مدن الاندلس ويجاربه في النظم . فمن ذلك الابيات التي نظمها عند مرورهما في بنية بين وادي المنصور ولورقة عند ما طلب منه والده ، ان يجهز ويتم هذا البيت .

ومجهلة معروفة بتوحشٍ يصيرُ بها قلبُ الشجاعِ جباناً

نقال :

تري الآل فيها خافقاً متعطشاً يمدُّ الى لفتحِ الهجيرِ لسانا  
لبستُ بها شمسَ الظهيرةِ حُلَّةً مذهباً حيثُ الهجيرُ كسانا الخ

نقال له ابوه : " هذا طراز يعجز عنه ابوك ! " <sup>(٣)</sup>

واذا تجاوزنا هذا التشجيع الابوي الذي لا يمكن حمله على محمل النقد الجدي ، وجدنا

(١) النفع ٦٦/٣

(٢) مسالك الابصار ٨ / ورقة ٣٨٢ - ٣٨٨ (نسخة مصورة)

(٣) القدح ٤

ابن الخطيب يشير الى تعاطيه المبكر للنظم قائلا: "وتعاطى الشعر في حصد من الشيبه  
يعجب فيه من مثله . فيذكر انه خرج مع ابيه الى اشبيلية وفي صحبتة سهل بن مالك (١).  
فجعل سهل بن مالك يباحثه عن نظمه الى ان انشده في صفة نهر:

كانما النهر صفحة كتبت      اسطرها ، والنسيم ينشئها  
لما ابانت عن حسن منظرها      مالت عليها الغصون تقروها  
فطرب واثق عليه " (٢)

ولا يعلم لماذا طرب سهل وما كان ثناؤه . وربما اعجبه هذه الصورة البعيدة التي اعتنى  
باصطادها هذا الفتى الناشئ .

ويكاد يكون في حكم المتعذر العثور على احكام نقدية واضحة لاحد معاصريه او لمن جاء بعده  
في القديم . فجميع الاخبار المروية بهذا الشأن تشير الى اعجاب القوم بشعره نظرا لتناسقه مع  
مقتضى الحال والعقام لا لسبب فني داخلي . فادباء القاهرة - ومن بينهم ابو الحسين الجزار  
وابن ابي الاصبع - يتهافون ببيته هذا ويرومون اجازته : (وقد قاله لان الجزار كان يدوس  
الترجس برجله )

يا واطىء الترجس ما تستحي      ان تطأ الاعين بالارجل ؟ !

حتى اذا عجزوا ابوا الا ان يحيزه بنفسه ، فيقول :

قابل جفونا بجفون ولا      تهتدل الارتفاع بالاسفل (٣)

وفي مجلس آخر على النيل محفوف بالورد والترجس ارتجل هذين البيتين :

من فضل الترجس فهو الذي      يرضى بحكم الورد ان يرأس  
أما ترى الورد غدا قاعدا      وقام في خدمته الترجس ؟

(١) عالم ، اديب ، رئيس . نفي في ثورة ابن هود من بلدة غرناطة الى مرسية ثم عاد اليها . توفي  
سنة ٦٤٠ (انظر القدرح ص ٦٠ - ٦٥)

(٢) النسخ ٣٨/٣  
المصدر السابق ص ٣٩/٣  
(٣) النسخ ٣٩/٣

" ووافق ذلك ماليك الترك وقوفا في الخدمة على عادة المشاركة - فطرب الحاضرون (١) وعندما دخل على الملك الناصر في حلب أنشده قصيدة مطلعها :

جَدُّ لي بما القى الخيال من الكرى لا بد للضيف العلم من القرى

" فقال كمال الدين (ابن العديم) : هذا رجل طارف ورّى بمقصوده من أول كلمة " (٢)

الا ان هذه الاخبار التي تصور الاستحسان الذي كان يقابل به شعره لا يمكن - كما ذكرت - اعتبارها احكاما نقدية معتمدة . واقصى ما يمكن العثور عليه في هذا المجال بعض اشارات الى ابتكاره في الصورة ، كما ورد عن لسان كمال الدين ابن العديم عندما وجه ابن سعيد الابهات التالية الى الملك الناصر صاحب حلب :

يا ايها الملك الذي      نفع الزمان به وضر  
اهديت لي التشريف      كن دونه زاد السفر  
فكانا اهديت لي      فصل الربيع بلا مطر

فحلف كمال الدين على ابتداء هذا المعنى " (٣)

والملاحظ ان المصنفين القدامى كانوا يفتتحون ذكره باوصاف كـ " الاخبارى " او " الرحالة " او " المصنف " دون ان يلقبوه بالشاعر . والارجح انه لم يكن معدودا بين الشعراء المتميزين بشهرتهم الشعرية من كثرة منظوماته ، (٤) وبالرغم من شيوعها في مصنفاته وفي ديوانه الذي كان متداولاً حتى ايام الممقري ( القرن الحادى عشر الهجرى ) على الاقل ، فقد طغت شهرته مصنفاً ورحالة على صفته ادبياً يتعاطى نظم الشعر . الا ان الظروف التي ابعده عن وطنه في حياته وغطت صفته الشعرية ، قهضت لذكره ان يعود الى اسبانيا في القرن التاسع عشر بصفته شاعراً يحن الى وطنه ولا يرضى عنه بديلاً ، وذلك عندما قام خوان فاليرا بترجمة احدى قصائد

(١) المصدر السابق ٣١/٣

(٢) المصدر السابق ٣١/٣

(٣) القدر ٨

(٤) فقد جمع المختار من مدحه في الناصر وحده فبلغ خمسة آلاف بيت ( القدر ٧ )

غربته في " شعر اسباني جميل " ، ف " طار اسم ابن سعيد " بسبب تلك الترجمة (١) اما القصيدة فمطلعها :

هذه مصر، فإين المغرب؟      مذ نأى عني دموعي تسكب

وهي طويلة، وسترد الاشارة اليها فيما بعد .

وتفاوت آراء الباحثين المحدثين في شعر ابن سعيد : فالمستشرق الاسباني بالنثيا يصفه بأنه " آخر من ظهر من اعلام الشعر <sup>هنا عند المغرب</sup> (مصر الموحدين) ولكن ما يورده بالنثيا بعد هذه العبارة لا يستدل منه انه يقصد بالشعر هنا النتاج الشعري الذاتي، بقدر ما يعني الاهتمام بالشعر رواية ونقدا وتصنيفا، اذ يعقب على عبارته تلك بقوله : " وتناول الان جانبه كعلم من كبار مصنفى مجموعات النظم والنثر " ثم لا يورد في حديثه عنه اى حكم نقدي . (٢)

ولعل اوضح حكم اجمالي على شعر ابن سعيد هو ما ذكره الدكتور شوقي خليف في مقدمته لكتاب " المغرب " ، اذ قال : " وهو شعر متوسط، قلما يرتفع الى افق فني عال فاجنحته لم تكن من القوة بحيث تجعله يحلق في افاق الفن والشعر العليا " (٣) ومن الخير ان نأخذ حذرنا من هذا الحكم الذي يورده الباحث على هيئة انطباع ذاتي دون ان يقدم له بأى نوع من انواع البحث المدعوم بالشواهد والادلة . وشبيه بهذا الحكم ما اورده المرحوم الدكتور زكي حسن في مقدمته للقسم الخاص بمصر من كتاب " المغرب " معقبا على حكم الدكتور شوقي <sup>خليف</sup> : " والحق ان له بعض الصور الشعرية الجميلة، ولكن معظم شعره عادى " . (٤)

\*

\*

يتضح مما سبق ان شعر ابن سعيد لم يحظ بدراسة مستهينة متأنية، فقد انشغل الباحثون

(١) تاريخ الفكر الاندلسي ١٣٦

(٢) <sup>المصدر السابق</sup> تاريخ الفكر الاندلسي ١٣٥ - ١٣٦ .

(٣) المغرب ١/١

(٤) المغرب (قسم مصر) م ٢٣

بتحقيق كتبه وبالمصنف وبالرجالة فيه دون ان يععتوا به شاعرا .  
ولذا فمن حق ابن سعيد علينا في هذا البحث ان نولي شعره عناية تتعدى النظرة العجلى .

## (٢) نقد شعره

### المظاهر الرئيسية

من دراستنا لنقد ابن سعيد ، اتضح لنا كيف انه - انسجاما مع الذوق النقدي السائد في عصره - كان ينظر الى مقدرة الاتيان بصورة بعيدة مبتكرة دقيقة مدهشة باعتبارها مقياسا للبراعة الشعرية وللمثل الشعري الأعلى ، وكيف ان ذوقه بصورة عامة كان يساير مدرسة المحدثين التي تفضل كد القريحة ورقة الأسلوب على عمل البديهة والتدفق والجزالة ، وعلى الأخص ذلك الاتجاه داخل نطاق مدرسة المحدثين الذي جرد مذهب ابي تمام من عمقه الفكري وتعقيد ، اللفظي وبالغ في ميله الى الافكار والصور البعيدة ، الدقيقة ، المنحوتة ، المزخرفة والى الأسلوب الرقيق المصقول (١) ولنا ان نتوقع تأثر ابن سعيد بذلك كله في شعره ، ومحاولته الاحتذاء حذو الشعر " المرقص " الذي كان يجسد تلك الغزايا التي فتنت النقاد والناس في ذلك العصر .

\*

\*

وبصورة عامة ، يتجاذب شعر ابن سعيد في مجمله طرفان متكاملان مترابطان : الشكوى من الغربة والحنين الى الوطن او الى الماضي . ويتجسد هذا التجاذب - على المستوى الفني - بين ميل ملحوظ الى تصيد الفكرة الغريبة والصورة الناتجة عن الكد الذهني وبين احتفال بالصياغة اللفظية وعناية بصقل الأسلوب .

والملاحظ ان الاحساس بالغربة عند ابن سعيد احساس مبكر جدا ، يمكن تلخيصه في شعره

---

(١) انظر ص ٢٤ ، من هذا البحث

وهو لما يغادر الأندلس نهائيا ، بعد . فمن ذلك قصيدة قالها بقرمونة ، وهي مدينة تقع الى الشرق قليلا من اشبيلية ، يتشوق فيها الى غرناطة (١) . والقصيدة وان كانت غزلية وصفية في مجملها ، الا انها تختتم بالتحسر على ماضٍ ناعم اطاح به التغرب

فياليت ماولى معاد نعيمه      وأى نعيم عند من يتغرب ؟!

وفي غرناطة (٢) ذاتها نصادفه يهكي زمانا مضى بعد ان يصف ما كان فيه من أنس ونعيم :

أى عيشٍ سمح الدهر به      كل نعيم ذهب لما ذهب

وكلما ابتعد ابن سعيد عن ملاعب صباه في منطقة اشبيلية باتجاه الشرق او الجنوب - وهو في طريقه الى افريقية (تونس) - اتضح في شعره الحنين الى موطنه وماضيه ، وازداد عند حسن الاغتراب . ففي مدينة مالقة ( على ساحل الأندلس الجنوبي ) ، وهي من آخر المدن التي مربها قبل رحيله ، نراه يتشوق الى الجزيرة الخضراء الاشبيلية قائلا : (٢)

يانسيما من نحو تلك النواحي      كيف بالله نورُ تلك البطاح

-----

أما لما بقيت بعدك من هم وشوق وغربة وانتراج

أين قوم الفتهم فيك لما      قرب الدهر آذ نوا بالروح  
تركوني أسير وجدٍ وشوقٍ      مالقلي من الجوى من سراح

وفي مرسية ( بأقصى الشرق الأندلسي ) ، وهي ايضا من المدن الاخيرة التي مربها قبل وصوله الى تونس بهضعة اشهر ، نلتقي به في هذه الابيات (٣) الحزينة الجميلة ينوح ويتمنى راحة الموت ويستبشر بالزواج ليسألها عن حمص ( اشبيلية ) . ويطلب من الحمام جناحا ليطير اليها :

اقلقه وجدّه فباحا      وزاد تبرّحه فباحا  
ورام يثني الد موع لما      جوت فزادت له جماحا

(١) النسخ ٥١/٣

(٢) النسخ ٥٧/٣

(٣) المصدر السابق : ٢٣/٣ - ٢٤

(٤) النسخ ٧٢/٣



يا من جفا فارقتن عليه	مستعبدا لا يرى السراحا
يكابد الموت كل حين	لو أنه مات لاستراحا
ينزو اذا ما الريح هبت	لأنه يعشق الرياحا
يسألها عن ربوع حمص	لما نما عرفها وفاحا
كم قد بكى للحمام كيما	يعيره نحوها جناحا

وهكذا نرى ان هذا الشعور بالاعترا ب غدا واضحا في شعره قبيل رحيله الاخير عن الاندلس .  
ويلاحظ ان هذا الشعور يغدو تارة محورا شعريا رئيسيا كما في الابيات الاخيرة، ويظهر تارة  
اخرى كصدي ختامي لوصف جلسات الانس وما يتعلق بها من ذكريات كما في الامثلة السابقة،  
واحيانا يستخدم ابن سعيد موضوعه كحيلة فنية - كما هي العادة عند كثير من الشعراء -  
ينفذ بها الى وصف ما يريد من رياض وانهار . (١)

وايما كان الامر فان ورود مثل هذه الاشارات - على اختلاف حظوظها من القوة والوضوح -  
في اشعاره المبكرة وقبل بدء تغربه الحقيقي ، يدل على ان فكرة التغرب كانت ماثلة في ذهنه ،  
معاذرة لشعوره .

وربما امكن تفسير هذه الظاهرة بالالتفات الى الحقائق والاعتبارات التالية :

- ١ - الشعور العام عند الاندلسيين باقترا ب شبح " التغرب " مع زحف الاسبان . ويلاحظ  
ان هزيمة الموحدين في معركة العقاب ( ٦٠٩ هـ ) - وهي الهزيمة التي تعتبر بداية النهاية  
في حياة الاندلس العربية - قد جاءت قبل مولد ابن سعيد ( ٦١٠ هـ ) بسنة واحدة ، وعليه  
فان ابن سعيد قد رضع هذا الجو منذ مولده وتشبعت نفسيته به .
- ب - كون اسرته قد " تغربت " من موطنها غرناطة الى اشبيلية بحكم صلة والده بالذات  
بامراء الموحدين - والمتأمل لتاريخ الاندلسيين يلاحظ ان هذا الانتقال عندهم من مدينة  
الى اخرى كان يعد نوعا من التغرب الذي تتأثر به النفس وتتألم له .
- ج - بداية تجواله مع ابيه في بر الاندلس ، وبين بر الاندلس وبر العدو ( المغرب ) منذ  
سن مبكرة . فقد صاحب اباة في رحلته الى مراكش وهو مازال في الرابعة عشرة من عمره ،  
وظل ينتقل معه منذ ذلك الوقت بين المدن الاندلسية ، حتى غادرا الاندلس نهائيا سنة ٦٣٦ هـ (٢)

(١) المصدر السابق : ٥١/٣ - ٥٤  
(٢) انظر ص ٧٤ من هذا البحث

وهذا يفسر لنا - بالإضافة الى احساسه المبكر بالغربة - مدى تعلقه بسنوات  
 " الاستقرار " القليلة في اشبيلية حيث كان يتلقى العلم ويعيش حياة المدينة المزدهرة  
 الضاحكة . فنجد البدء كان ترحاله هو القاعدة واستقراره هو الاستثناء .  
 ومع اقامته في تونس بين سنة ٦٣٦ وسنة ٦٣٩، تبدأ أيام غربته الحقيقية ويأخذ شعوره  
 المرير بالاعتراب في الاشتداد والوضوح . وبالرغم من ان ابن سعيد ووالده استطاعا التقرب  
 من السلطان الحفصي ابي زكريا ورجاله ، وحصلوا على وظائف حسنة لديهم ، فان الجو العام  
 لم يكن يوحى بالاطمئنان بسبب تقلب الاحوال وكثرة الوشايات وشدة التنافس .  
 وفي هذه الفترة، نجد ان الشعور بالاعتراب تتسع دائرته وتتعدد اشكاله وانعكاساته ،  
 ويصبح العنوان الرئيسي الذي يشمل جميع مصاعب ابن سعيد الشخصية والمعاشية والاجتماعية .  
 فهو ان فقد بعض وظائفه رد ذلك الى التغرب ، وهو ان ساءت علاقته برؤسائه واصحابه لام  
 على ذلك التغرب ، وهو ان احس عموما بجور الزمان وسوء الحظ فسر ذلك بانه غريب وحيد .  
 وبعبارة اخرى فان التغرب اصبحت بالنسبة له في هذه الفترة مشكلة كيانية . فهذه ابيات  
 من قصيدة يعاتب فيها الوزير التونسي ابن جامع لانه لامه على قلة ثقته فيه : (١)

هل الهجو الا ان يطول التجنب ؟      ويبعد من قد كان منه التقرب

.....

ولو انني ادرى لنفسي زلّة      جعلت لكم عذرا ولم اكن اعتب  
 ولكنكم لنا ملتم هجرتم      وذنبتكم في الحب من ليس مذنب

الى ان يستهلك ماله من عتاب ولوم ، فيرجو الالتفات والعناية بحرمة الغربة التي يساويها  
 بالموت ، وكأنه يقول ارحم ميتا في شخص هذا الغريب :

فهل رعيتم انه في ذراكم      غريب ... وليس الموت الا التغرب !

ويصف حزنه وكرهه بعد ابيات قليلة ، ثم يعود الى استدراك العطف بأسوأ الغربة : (٢)

سلوا الكأس عني اذ تدار ، فانني      لأتركها هماً ود معي اشرب

(١) النفع ٤٥/٣

(٢) السابق ٤٦/٣

ولا اسمع الألحان حين تهزني  
فدُيتكم كم ذا أهون بأرضكم  
ولو كان نوحاً كنت أصفي وأطرب  
أهذا جزاء للذي يتغرب ؟

وفي قصيدة أخرى (١) يشير الى ذلك النموذج الشائع من الأصحاب المنافيين ، مؤكدا ان  
الاغتراب من جديد افضل من مصاحبتهم :

صاحب هم الداء الدفين ، فليتي  
كلامهم شهد ، ولكن فعلهم  
سأرحل عنهم والتجارب لم تدع  
إذا اغترب الانسان عن يسوه  
ولم ادن منهم - للذئاب صوب  
كسّم له بين الضلوع ديب  
بقلبي لهم شيئا عليه أثيب  
فما هو في الأبعاد عنه غريب

وذنبه الوحيد ازاء هؤلاء الاصحاب الوشاة هو انه نجيب متأدب بين قوم جهلة : (٢)

ولا تستمع قول الوشاة ، فانما  
فما ليبت اني لم اكن متأدبا  
وكنت كبعض الجاهلين محبا  
عدوهم بين الانام نجيب  
ولم يك لي اصل هناك رسوب  
فما انا اللهم العلم حبيب

وقد جعل منه علمه وادبه جملا أجرب يحاذره الجميع ، فاذا به غريب حتى بين اصحابه : (٣)

فغدوت ما بين الصحابة أجربا  
كل يحاذر مني الاعداء

غير انه يجد في اعتزازه الشديد بنفسه عوضا عن كل ذلك :

ولقد ارى ان النجوم ثقل لي  
فليهجروا هجر الفطيم لدرة  
فلقد شكوت لهم احالة ودهم  
حجبا ، وأصغر ان أخل سماء  
ويساعدوا الزمن الخئون جفاء  
ان لم أكن أرضي بهم خد ماء

ولكن الاعتزاز بالنفس في غربة قاسية لا يجدى وحده ، وليس بإمكانه ان يعين على استمرار  
المقاومة ، فكان لابد من طغيان الشعور الصارخ بانحسار كل الظلال الرفيعة :

(١) النفس  
للطاهر : ٤٤-٤٣/٣  
(٢) المصدر السابق : ٤٤/٣  
(٣) السابق : ٣١/٣

تقلص عني كل ظلٍ .. ولم أجدُ  
 - كما كُنتُ أُلقي - من أودٍ وأصحبُ  
 أذو طمعٍ في العيش يبقى وحوله  
 مدى الدهر أُنسى لا تزال وعقربُ ؟! (١)

.. ثم رحل ابن سعيد إلى مصر . وهنا يصل حسن الاغتراب العربي إلى ذروته . ويبلغ حد التأزم والألم الذي لا يطاق . ففي هذه الفترة يتمازج المخزون من هذا الشعور مع جو التحفظ، القريب من الجفاء، الذي يقابل به المغاربة عامة في القطر المصري، مع مظاهر الاختلاف في العادات والثقافة بين بلاد المغرب ومصر، مع الأثر الذي خلفته وفاة أبيه بعد عام من وصولهما إليها، مع تعذر تأديته لفريضة الحج التي كان يأمل أن يؤديها مذ كان بالاندلس . أقول تمازجت كل هذه العوامل لتوصل شعور الاغتراب عند ابن سعيد إلى ذروة تأزمه .

وينقل ابن سعيد إلينا صورته وهو يسير لأول مرة في طرقات مصر (٢)، فإذا بكل شيء غريب جوله حتى وجوه الناس التي أخذ يتمعن فيها فلا يجد لها مألوفة بالنسبة له ، وإذا بغرابة الاشياء والناس ترد إليه وتغلفه حتى يتطكه الشعور انه واحد من الذين ضاعوا في التيه . ثم عادوا فلم يجدوا لهم اشباها . . وان الغربة لترسم حتى في اللاحاظ فتلفها بوحشة :

أصبحتُ أفترضُ الوجوهَ ، ولا أرى  
 ما بينها وجهاً لمن أدريه -  
 عودى على بدئي ضاللاً بينهم  
 حتى كأني من بقايا التيه -  
 وبع الغريب ! توحشت الحاظه  
 في عالم ليسوا له بشبيه -

وكان اقصى ما يمكن ان يحدث له ، وهو سليل الإستقرائية الاندلسية وحفيد الامراء ، ان ينظر إليه الناس باعتباره أحد أولئك الحجاج والرحالة المغاربة المغموين ، وان يتعجبوا من خطة المغربي الغريب . . متجاهلين نباهته وطيب محنته : (٣)

ها أنا فيها فريد مهمل  
 وكلامي ولساني معرب

(١) النفع ٤٧/٣

(٢) المصدر السابق ٢٩/٣

(٣) المصدر السابق ٥٠/٣

وأرى اللاحاظ تتبوعند ما  
 وإذا أحسبُ في الديوانِ لم  
 وأنادي مغربيا ، ليتني  
 نسبُ يشرك فيه خاملٌ  
 أتزاني ليس لي جد له  
 وهنا يدرك قيمة موطنه الذي تركه :  
 فأرقته النفسُ جهلا ، انما  
 أين حمص ؟ أين أيامي بها  
 ويكرر المعنى ذاته ثانية :

ان عاد لي وطني اعترفت بحقه  
 ان التغرب ضاع عسرى فيه  
 . . . وتراوده فكرة العودة من مصر الى المغرب بعد ان ادرك ان ماتبعه لم يكن سوى  
 برق خادع :

سوف أثنى راجعا ، لا غربي  
 بعد ما جربت برق خلب  
 ومع تعذر حجه (١) في تلك الفترة يتبين مدى ضياع آماله ومقاصده في خضم هذا التغرب  
 الشاق :

قرب العزار ، ولا زمان يسعد  
 وارحمة لعتيم ذي غربة  
 يا سائرين ليثرب - بلغتموه -  
 أعلمتوا أن طرئت دون محلها  
 كم ذا أقرب ما أراه يبعد  
 ومع التغرب فاتته ما يقصد  
 قد عاقني عنها الزمانُ الآنك  
 سبقا ؟ وها أنا اذ تدانى مقعد !

وتتأطر صورة الغربة الأليمة هذه برسم كاريكاتوري ساخر يحرض ابن سعيد على نقله اليها حتى  
 تكتمل الصورة بالاطار . فقد اضطر الى ركوب الحمار في طريقه بين القاهرة والفسطاط جريا

على عادة عليّة القوم هناك (١) .. فكانت النتيجة أن ..

لقيتُ بصرَ أشدِّ البوارِ      ركوبَ الحمارِ وكحلَّ الغبارِ  
وخلفي مكارٍ يفوقُ الرياحَ لا يعرفُ الرفقَ مهما استطارَ  
أناديه مهلاً فلا يرعوى      إلى أن سجدتُ سجودَ العثارِ !

.. ولكن ابن سعيد يستعيد ثقته بنفسه ، ويظهر عزمه على استرجاع مكانته ويحاول تحليل ما أصابه من إهمال وضعه قائلاً ان عزة الضرغام في عرينه ، وانه لا يلام السيف اذا وقع في يد الجبان (كما لا يلام الغريب لانخفاض مكانته في البلد البعيد) :

فان كنت في أرضِ التغربِ غارباً      فسوف ترانسي طالماً فوق غاربِ  
فصصامُ عمرو حين فارق كفه      وموه - ولا ذنبُ - لعجزِ المضاربِ  
وما عزة الضرغامِ الا عرينه      ومن مكة سادت لؤى بن غالب (٢)

وهكذا يعود اليه - بعد الشكوى المريرة - اعتداده بنفسه ويتحدث عن طلوع جديد بعد ضعة الغربة وقسوتها .

ولربما قصد ابن سعيد بالآيات الأخيرة العودة الى عرينه (المغرب) ، الا ان الذي حدث فعلاً هو ان هذا الطلوع الجديد الذي تمناه تمثل في سفره الى حلب واتصاله بسلطانها الناصر الأيوبي .

وبرحيله الى الديار الشامية ، يمكن القول ان شعره ايضا انتقل الى مرحلة جديدة . ففي هذه الفترة لا نرى بين ما روى له من شعر أثرا للشكوى من الغربة وواقع الحال . بل على العكس من ذلك نراه يتفاعل ايجابيا مع بيئته الجديدة ، وينتقل هذا التفاعل الى شعره الذي بدأ يعكس اعجاباً وحفاً لتلك البيئة .

ويمكن تفسير هذه النقطة الجديدة تاريخياً بالقبول الحسن الذي حظي به ابن سعيد من جهة الامراء والادباء على حد سواء . ثم ان البيئة الشامية عموماً قريبة الشبه بالبيئة الاندلسية من عدة أوجه ، واعجاب الاندلسيين بـ " الوطن الام " ظاهرة معروفة بارزة .

(١) المصدر السابق ١٠٣/٣

(٢) المصدر السابق ٣٤/٣

وقد بلغ من احتقار الحليين به الى حد ان " رئيس الاصحاب " ابن العديم حرص على تهيئة جو " شاعري " له عند وصوله معه الى حلب . اذ انزله في دار بيستان وما جار وقال له : " انت اندلسي وقد عرفت ان ديارهم لا تخلو من هذا " . (١)

فكان من الطبيعي ان يشعر ابن سعيد انه في وطنه ، وان ينعكس ذلك الشعور في حالته النفسية وبالتالي في شعره مخفيا بذلك ظلال الغربة الحزينة التي امتدت خلال اقامته في تونس ومصر .

حقا ان ابن سعيد قال شعرا في مظاهر الطبيعة المصرية . وأعجب بجمال النيل ورياضه ، الا ان ما لدينا من شعره المصري في هذا الموضوع كله من النوع الوصفي الذي يقصد به الاتيان بالصورة الشعرية العجيبة لذاتها ، ولا يوجد فيه اثر من تفاعل داخلي كالشوق والاسى للمفارقة او التذكر المصحوب بشعور الحنين والحب — بعكس ما نشاهده في شعره الشامي على الخصوص .

فهو مثلا يصف احاطة النيل بالفسطاط وما ينتج عن ذلك من منظر جميل : (٢)

نزلنا من الفسطاط ارفع منزل	بحيث امتداد النيل قد دار كالعقد
وقد جمعت فيه المراكب سحرة	كسرب قطا اضحى يرف على ورد
وقد كان مثل الزهر من قبل مد	فاصبح لما زاده المد كالورد

ونتابع بقية الابيات فلا نرى اثرا للشعور ، فالغرض فني بلاغي مراده تسجيل تلك الصور والمحسنات البديعية .

وبالرغم من ان ابن سعيد لم يذق احلى من ماء النيل على حد قوله ، (٣) فان ذلك لم ينسه نهر اشبيلية :

يا نيل مصر، اين حمص ونهرها	حيث المناظر انجم تلتاح ؟
في كل شط للنواظر مسرح	تدعو اليه مناظر وطاح

(١) المقتطف، ورقة : ٧١

(٢) المغرب (قسم مصر) ٨

(٣) المصدر السابق ٨

واذا سبحتُ فليستُ أصبحُ خائفاً ما فيه تيارٌ ولا تساحُ (١)

أما عندما واجه نهر العاصي في حماة - على اختلاف ما بين العاصي والنهل من حيث الامتداد والجلال وتعدد المناظر - فانه يقف موقفاً آخر : فاذا به ينسى نهر اشبيلية ، واذا به ينسجم ويتناغم مع النهر الحموي فيفوق نواحيه رقصاً و " عصياناً " عصياناً ، ويصبح جزءاً لا يتجزأ من المشهد " العاصي " ، الشادي ، الراقص :

حصى الله من شطي حماة مناظراً	وقفت عليها السمع والفكر والطرفا
يلومون ان اعصي التصون والنهي	بها واطيح الكأس واللهم والقصفا
اذا كان فيها النهر عاص فكيف لا	احاكيه عصياناً ، واشربها صرناً
واشد و لذي تلك النواحي شديداً	واغلبها رقصاً ، واشبهها عزناً (٢)

واذا كان الشعور الشديد بالاغتراب قد حجب عنه - في شعره على الاقل - جمال ارض الكفانة وخصبها وروح مجتمعيها الودود ، حتى قال :

كم ذا تقيم بمصر	معذبا بذوبها
وكيف ترجو ندام	والسحب تبخل فيها ؟ !

فان شعوره بالالفة والقبول في الديار الشامية ، هو الذي جعله يعتبر حلب " مقام " غرامه و " قبلة " اشواقه ، ويحن اليها هذا الحنين القوي :

حادي العيس ! كم تتيح المطايا !	سقى ، فروحي من بعدهم في سياق
حلب أنها مقر غرامي . . .	ومرامي ، وقبلة الاشواق . . .
كم بها مرتع لطرف وقلب	فيه يسقى المنى بكأس دهاق (٣)

والشعور ذاته هو الذي ولد هذه الابيات الجميلة في دمشق الشام ، تلك الجفة التي يمكن ان يجد فيها " الغريب " وطنه :

(١) النفع ٧٢/٣

(٢) المصدر السابق ١٢/٣-١٣

(٣) المصدر السابق ١٢/٣



يَبْنِي بِهَا الْوَطْنَ الْغَرِيبَ  
الْأَحِبَّ أَوْ حَبِيبَ  
أَوْ يَرَأِى أَوْ يَعِيبَ (١)

أَمَّا دَمَشْقُ فَجَنَّةٌ  
أَنْظُرْ بِعَيْنِكَ هَلْ تَرَى  
أَرْضَ خَلَّتْ مِنْ يَنْغَصُ

أو هذه الأبيات الرقيقة الموحية :

أَمَّا دَمَشْقُ فَمَا فِي الْأَرْضِ مِثْلُهَا  
بِهَا النَّعِيمُ غَدَا لِلنَّاسِ مَكْتَمًا  
وَقَدْ تَجَلَّتْ مِنَ اللَّذَاتِ أَوْجُهَا  
وَكُلَّ رَأَى بِهِ مُوسَى يَفْجَرُ  
جَنَاتُ عَدْنٍ بِهَا مَا يَشْتَهِي الْبَشَرُ  
مَطْوَلًا وَهُوَ فِي الْأَفَاقِ مُخْتَصَرُ  
لَكِنَّا بِظِلَالِ الدَّوْحِ تَسْتَرُ  
وَكُلَّ رَوْضٍ عَلَى حَانَاتِ الْخَضَرِ

\*

\*

ولا تسعفنا المصادر بعد هذا بالمزيد من المادة الشعرية حول هذا الموضوع . وفي شعره العراقي الذي وصل اليها وصف وغزل وخمريات دون اية اشارات للاحية الاغتراب . وما لا شك فيه ان ديوان ابن سعيد الكامل هو الذي يروى " القصة " كلها بتفصيل ودقة . والارجح ان ابا الحسن بعد تجارب الاغتراب الطويلة ، المتعددة الالوان ، اعتاد هذا النوع من الحياة ووطن النفس على قبوله ، فلم تعد الاجواء الجديدة الغريبة تناجه كما حدث له لأول مرة عند ما سار في طرقات مصر . والانسان ينفعل مع التجربة الاولى ، فتمت تعدد التجارب غدت مظهرها عاديا ، وليس من شأن التكرار الاعتيادي اثاره مشاعر او توليد فكر . ولعله من الخير الاشارة هنا ، الى ان احساس ابن سعيد بالاغتراب لم يتطور في " موقف " معين او " نظرة فكرية " محددة تلون بطابعها نتاجه الشعري او تعكس نفسها وتمتد بظلالها الى الوان شعره الاخرى . بل ظل ذلك الاحساس نوعا من الشكوى الصاخبة المباشرة التي تحاول استدرار العطف والتي تتأثر بالظروف الانية سلبا او ايجابا . كما انها رغم صخبها

والحاحها لم تعكس عاطفة قوية وشعورا حارا يتناسب - على المستوى الفني الشعوري - مع قسوة الغربة التي ساواها ابن سعيد بالموت .

وبناءً على ذلك، واستنادا الى ما وصلنا من شعره، يمكن القول ان حسن الاغتراب عند ابن سعيد، رغم وضوحه واستمراره مدة من الزمن، لم يتحول الى مستوى التيار السيكولوجي المستمر في مجرى الذات . وربما كان ذلك عائدا الى عدة عوامل في طبيعتها تكوين ابن سعيد النفسي الذي تمت الاشارة اليه في الفصل الخاص بشخصيته، والذي يتصف بالبعد عن الحدة الانفعالية الداخلية، الضرورية لكل عمل شعري يتميز بالزخم الشعوري . كما ان ذهنية ابن سعيد ليست من النوع التأملية المستغرق الذي يستطيع اتخاذ موقف فكري محدد من قضايا الحياة . بل ان ذهنيته تلك، التي يمكن وصفها بأنها " تصنيفية "، زخرفية، تفصيلية، هادئة، قد افسدت عليه - فيما أرى - كثيرا من المحاولات الشعرية التي كان يمكن ان تنال حظا وافرا من النجاح في ظل الظروف الفريدة التي مر بها ابن سعيد من فقدان لوطن، وابتعاد عن أهل، واغتراب طويل الامد، ومواجهة لظروف صعبة، ومعاناة لتجارب جديدة متنوعة، واحتكاك بأوساط ثقافية مختلفة . . .

\*

\*

الى جانب محور الغربة، نلاحظ في شعر ابن سعيد محورا آخر يرتبط به في بعض الاحيان شكلا وموضوعا، ويستقل عنه في أحيان أخرى استقلالاً تاما . هذا المحور هو موضوع " وصف " مظاهر الطبيعة الاندلسية كما تتمثل في المشاهد والمنتزهات التي قضى فيها ابن سعيد جانبا من أيام شبابه، بالإضافة الى مناظر الانهار والرياض على وجه العموم . والواقع ان هذا الوصف ليس مجرد رسم لمشاهد الطبيعة بشكل او بآخر بقدر ما هو حديث عما يدور في " مجالس اللهو " . ففي هذا النوع من الشعر نرى ابن سعيد يصف لنا المشهد الطبيعي العام ثم يتحدث عما دار فيه من " مغازلة " لمحبوب، ومن " شراب "، ومن سماع " طرب " .

وقد يغلب أحيانا على القصيدة الطابع الغزلي أو الطابع الخمرى المجونى، أو الطابع  
الوصفى، إلا أنها تظل بصورة عامة جامعة لكل هذه الجوانب.  
وبناءً على ذلك، وتسهيلا لخطة البحث، ربما جاز لي أن أدرج شعره في هذا الموضوع  
تحت عنوان الحديث عن " مجالس اللهو "، على أن يفهم من ذلك تلك الجوانب الشعرية  
مجتمعة.



ربط ابن سعيد في كثير من قصائده بين حديثه عن الغربة وبين وصفه لمجالس اللهو  
في الاندلس، بحيث يأتي ذلك الوصف تجسيدا لتألق حياة السعادة الماضية التي يقارنها  
الشاعر بحياة الغربة القاتمة، وكأنه أراد أن يقارن بين لوني الماضي المتألق، والحاضر القاتم،  
ليوضح - عن طريق المقارنة بين الاضداد - مدى قتامة حاضره وتألق ماضيه في الوقت  
ناتمه.

وفي مثل هذه القصائد يفتتح ابن سعيد حديثه بالتشكي من الغربة وينتهي بالموضوع  
ذاته. تاركا لذكريات الاندلس مجال الظهور في الوسط وكأنها حلم يقظه معلق بين حدى  
الواقع المرير، وواقع الغربة. ومن افضل الامثلة على ذلك قصيدته الشهيرة التي قالها في مصر  
والتي تبدأ بالاشارة الى الغربة ثم تنتقل الى التحدث عن مدن الاندلس واحدة بعد الاخرى  
(المدن التي عاش فيها ابن سعيد) في اطار وصفى يغلب فيه طابع التألق واظهار البراعة  
على مدى التذكر المشوب بالالام الذى يظهر خافتا بين مشهد ومشهد :

أين حمص ؟ أين أيامي بها ؟	بعدَها لم ألقَ شيئا يُعجبُ
كم بهيش لي بها من لذةٍ	حيثُ للنهر خيرٌ مطربٍ
وحمام الأيك تشدو حولنا	والثاني في ذراها تصخبُ

ثم ينتقل في وصفه من مكان الى آخر

ولكم " بالمرج " لي من لذةٍ بعدها ما العيشُ عندى يعذبُ

...

ولكم في " شنتبوس " من منى قد قضينا ولا من يعتبُ

...

بل على " الخضراء " لا أنفك من زفرةٍ في كل حين تلهبُ  
حيث للبحر زئيرٌ حولها تبصرُ الاغصان منه ترهبُ

...

والى " مالقة " يهفو هوى قلبٌ هبَّ بالنوى لا يُقلبُ  
أين أبراجٌ بها قد طالما حث كاسي في ذراها كوكبُ  
هفت الاشجارُ عشقا حولنا تارة تتأى، وطورا تقربُ الخ

وتنتهي هذه المشاهد والذكريات البعيدة بعودة الى الواقع المر:

هذه حالي، وأما حالتي في ذرى مصر ففكر متعب (١)

\*

\*

وفي قصائد أخرى استخدم ابن سعيد شعره الوصفي هذا استخداما فنيا بان جعله افتتاحيات للأمداح على عادة الاندلسيين . فعند عصر سابق لعصر ابن سعيد " اصبح المنظر الطبيعي كالقاعدة او " العامل الكيميائي المساعد " في القصيدة الاندلسية، فهو فاتحة القصيدة او اساس يبنى عليه موضوع الخمر، او موضوع الحب " (٢) . من ذلك قصيدة يمدح فيها أمير تونس أبا زكريا الحفصي :

(١) النفح ٥٠/٣

(٢) تاريخ الادب الاندلسي، عصر الطوائف والمرايطين، ص ٢٠٣

الأفق طلق والنسيم رخاءاً  
والنهر قد مالت عليه غصونه  
وبدا نثار الجلنار بصفحة  
والشمس قد رقت طرازاً فوقه  
فأدرككوكي يتم لك العنى  
تدعوك: حي على الصبح فلاتنم  
والروض وشت برد الأنداء  
فكأنما هو مقلّة وطفاء  
فكأنما هو حية رقطاء  
فكأنما هي حلة زرقاء  
واسمع إلى ما قالت الورقاء  
فعلى المنام لدى الصباح عفاء (١)

وبالاحظ انه يجمع في افتتاحياته هذه بين الوصف الطبيعي والجو الخمرى كما في الابيات السابقة، وقد يغلب عليها أحياناً الجانب الغزلى مع الاحتفاظ " بخلفية " طبيعية، كما في هذه الابيات التي افتتح بها قصيدة مدح في ابن عمه ابي عبد الله بن الحسين بن سعيد :

آه مما تكن فيك الجوانح !  
ودموعي على نواك سوانح  
يا أتم الأطلال ~~صفا لما تعين حتى يتم أطرا~~ مدح  
يا زمان الوصال، عوداً، فاني  
طوحت بي لما غدرت الطوائح  
أين عيش " العروس " ان يبطح السكر حبيبي ما بين تلك الأباطح  
والاناني تترى، ولا أحد ينصح ان لا يصفى الى قول ناصح  
وزمان السرور سمح مطيع  
ورسول الحبيب غار ورائح  
ولكم ليلة أنظي بلا طيب ولكن يزرى بأدكن الروائح  
هو ظبي، فليس محتاج طيباً  
قد كفاء عرف من العسك فائح  
مثل علياً محمد، لم تكن كسها، وما لا يكون في الطبع فاضح

اما القسم الاعظم من شعره في هذا الموضوع فهو المقطعات القصيرة او المتوسطة الطول التي تدور حول جلسة لهو او وصف مشهد طبيعي معين او صورة خاصة <sup>كنظر</sup> فرس او ثفاحة او قارب الخ . وهذه المقطعات تأتي مستقلة غير مرتبطة بموضوعها وهي على الاغلب قائمة على ابراز صورة بيانية او براعة بدعية، ان في هذه المقطعات يظهر بوضوح ميل ابن سعيد الى

الاتيان بالفكرة الغريبة والصورة المزخرفة البعيدة في أسلوب مثقل بالبديع، بل ان هذه المقطعات لتدل على ان البيان والبديع كانا الهدف والغاية وان موضوعاتها ماهي الا وسيلة اختيرت نظرا لتناسبها وقابليتها الشديدة للغرض البياني البديعي . أما اذا تجاوزت بعض هذه المقطعات التمسك الشديد بهذا الغرض فانها تأتي خلقا " لموقف غزلي " او احيا " لجو خمري نواصي " .

فمن قطعة الوصفية " الزخرفية " قوله في وصف حصان اصفرأغرا كحل :

وأجودَ تَبَرَّى أَثَرْتُ بِهِ الثَّرَى	وللفجرِ في خصرِ الظالمِ وشاحٌ
له لون ذى عِشْقٍ وحسنُ معشَقٍ	لذلك فيه ذُلَّةٌ ومِراحٌ
عجبتُ به وهو الاصيلُ، بعُرفه	ظلامٌ، وبين الناظرين صباح (١)

فهذه ابيات ثلاثة أقل ما توصف بانها " معرض ألوان " : فهذا الفرس " أصفر " بلون الذهب ينطلق بين " بياض " الفجر و " سواد " الليل، وهو بين " صفرة " و " بياض " يجمع بين اصفرار العاشق وحسن المعشوق، وهو بالوانه المتعددة من صفرة وبياض وسواد يجمع الليل والفجر والاصيل . والابيات - في وصفها للفرس - تمر سريعا بصورة للفجر كوشاح يلف خصر الظالم . وهي على قلتها تزدحم بحشد بديعي يتمثل في : جناس غير تمام بين " أثرت " و " ثرى "، وطباق بين " ذى عشق " و " معشق " وبين " ظلام " و " صباح "، وتورية في لفظة " الاصيل " بين معنى " أصالة " الحصان وبين لونه الاصفر الذي يشبه الاصيل . ومن الابيات التي اعجب بها ابن سعيد نفسه وذكرها باعتبارها نموذجالشعر الجيد، قوله (٢) :

لأنما النهرُ صفحةٌ كُتِبَتْ	أسطرُّها، والنسيمُ منشئُها
لما أبانت من حسنِ منظرِها	مالت عليها الغصونُ تقرُّوها

وهذه صورة تفصيلية دقيقة لا يمكن للبديهة، ولا حتى للتأمل المنفعل بجمال المنظر ان يقتبها لها . واجهاد الفكر وحده يمكن ان " يصطاد " تلك العلاقة بين ذلك التشبيه ومنظر

(١) المغرب ١٢٣/٢

(٢) المغرب ١٢٣/٢، الرايات ٦٦

النهر ويولد فيها دقائقها : فصورة الاغصان العائلة على صفحة النهر لرجواجة التي يحركها النسيم تشبه صورة القارى المنكب على صفحة يقرأها !  
ليس ذلك فقط بل ان كل جزء في الصورة المشبهة يطابق مثله في الصورة المشبه بها .  
النهر هو الصفحة . . . والتعوج هو السطور . . . والنسيم هو الكاتب والاعصان - المعجبة بحسن المنظر - هي القارى أو القراء !

والمأمل لصور ابن سعيد يرى ان ميزتها الكبرى الغرابة والدقة وكثرة التفاصيل ، اما عيبها الاكبر فهو انها تحول حيوية الحركة الى جمود مزخرف ساكن . فعند وصفه للفرس نراه يبرز الالوان دون ان ينتبه - حتى من وجهة نظره المهتمة بناحية اللون في الصورة - الى ان تلك الالوان يمكن ان تتداخل وتتمازج في تراقص لوني مدهش عند ما ينطلق الفرس في عذوه السريع . بل اننا لانرى من مظاهر الحركة في ذلك الوصف الا صورة الغبار الذي أثاره انطلاقه : " أثرت به الثرى " أما ماعدا ذلك فالوان متلاحقة ساكنة . وفي المثال الاخير نرى كيف تحولت حيوية منظر الاغصان المتمايلة الى جمود انسان يقرأ كتابا وكيف تجسد النهر المعتدق المتعوج الى صفحة خطت عليها سطور جامدة !

وهو يعطي احيانا صورا اكثر اتساعا للمنظر الطبيعي عن طريق اضافة صورة جزئية الى اخرى بقصد رسم المشهد كله ولكن هذه الرسوم قلما تعكس وحدة متكاملة وأقصى ما تصل اليه اعطاء صورة لنقش مزخرف قد يكون من الممكن تلمس بعض انسجام بين الوانه واشكاله . من هذا القبيل قوله (١) :

والنهر سيف بالصبا مهزوز	الروض يرد بالندى مطروز
فعليه من خط النسيم حرور	كُتبت به خوف النواظر اسطر
فعلا مذا ب لجينها ابريز	ورمت عليه الشمس فضل ردايها
ألف بهمة طيره مهزوز	والفصن ان ركد النسيم كأنه
وكأننا الاوراق فيه خزوز	وكأننا الازهار فيه قلايد

وكأننا امام زخرف على جدار قصر عربي تخطط فيه النقوش بالخطوط الكتابية بين برد مطروز وحرور كتبت ضد العين الحاسدة وألف مهموز تحيط به قلائد وخزوز . الا ان هذا التفنن لا يخفي الجمود والسكون المسيطرين على المشهد ، وان العراء ليند هش كيف يحول الكد الذهني والتكلف الغصن وطيره الى ألف وهمزة !

وفي بعض الصور الجزئية <sup>(١)</sup> يتمكن ابن سعيد من بث مسحة حياة في المشهد ومن خلق شئ من التفاعل بين جوانبه ، كقوله واصفا الجزيرة الخضراء :

حيث للبحر زفيرٌ حولها      تبصر الاغصان منه ترهبُ

وكقوله في القصيدة ذاتها وقد رفع درجة التفاعل الى مشاركة بين الطبيعة والناس :

حفت الاشجار عشقا حولنا      تارة تنأى ، وطورا تقربُ  
جاءت الريح بها ، ثم انتثت      أتراها حذرت من يرقبُ ؟

وفي أحيان نادرة يرتفع وصفه للمنظر الى درجة " التشخيص " والمشاركة الوجدانية كقوله في دولا بيسقي حديقة وكان ذلك اثناء فترة اغترابه الاول في تونس <sup>(٢)</sup> :

وذا حنينٍ ، لا تزال مطيفةً      تشن وتبكي بالدموع السواكبِ  
كأن أيقنا بان عنها ، فأصحت      بعربيهِ كالصَّبِّ بعد الحباءِ  
شربت على تحنائها ذهبيّةً      ذخيرة كسرى في العصور الذواهبِ  
فهاجت لي الكأس أدكار مغاضبٍ      فحاكيتها وجداً بذاك المغاضبِ

ويقرب من جو المشاركة هذا ابياته في وصف العاصي بحماة ، وقد تمت الاشارة اليها <sup>(٣)</sup> :

يلومون ان اعصى التصون والنهى      بها ، واطيع الكأس واللهمو والقصفا  
اذا كان فيها النهر عاص فكيف لا      أحاكبه عصيانا وأشربها صرفا  
وأشد ولدى تلك النواعير شدوها      وأغلبها رقصاء واشبهها عزفا

(١) النفخ ٥٠/٣

(٢) المصدر السابق ٥٦/٣

(٣) انظر ص ٤٩



ومن اللحن الشعرية عند ابن سعيد استغلاله لايحاء الجو القصصي الديني في اضافة مسحة موجية على المنظر الطبيعي، الا ان هذه الاشارات نادرة عند ولا تشكل ظاهرة في شعره . ومن أجمل اشاراته في هذا المجال تصويره لينايع دمشق وكأنها تنفجر من ضربات موسى، ولربهاضها وكأنها تخضر من لمسات الخضر :

أما دمشقُ فما في الأرضِ مشبهُها      جناتُ عدنٍ بها ما يشتهي البشرُ  
.....

وكل وادٍ به موسى يفجره      وكل روضٍ على حافاتِهِ الخضرُ  
ونرى لذكر الازهار، الظاهرة البارزة في شعر الطبيعة الاندلسي (١)، بعض آثار في شعره أيضا . فمن ذلك وصفه للزهر باعتباره " تذكارا " للماضي الجميل (٢) :

يا حبذا نسمة هبت لنا شقيها      غب الكرى سحرا من روضة الحب  
حسبتها عندما هبت وقد نعشت      بيلة من نداها، روح فتشوق  
قرنفل العند قد وافى التجار به      محافظين على شدة له عبق  
فعند ما فاضه الداوي ذكرني      بطيبه، طيب عيش مرلي أنق  
بتونس أنسى الرحمن ساهتها      وسقيت أبدا بالعارض الغدق

وقوله في " تفضيل " الورد على النرجس (٣) :

من فضل النرجس فهو الذي      يرض بحكم الورد ان يرأس  
أما ترى الورد غدا قاعدا      وقام في خدمته النرجس ؟!

أما في أبياته الغزلية التي ترد عادة ضمن وصفه لمجالس اللهو، فانه يصطنع مواقف متناقضة ولا يلتزم بموقف واحد له طابع في الغزل محدد معين . فهو تارة عذري وتارة متاجن صريح الى أبعد الحدود ، وهو تارة يتمنى طيف الحبيب في الكرى ولا يراء وتارة أخرى يأتيه الحبيب ليبيت عنده الليل بأكمله . والملاحظ انعدام وجود شخصية غزلية

(١) تاريخ الادب الاندلسي، عصر الطوائف والمرابطين، ١٩٤

(٢) رحلة التجاني، ٢٥٢

(٣) النفع ٣/٣٩

معينة في غزله وهو لا يذكر أسماء أحبته ، ولا تشير المصادر - من ناحية أخرى - إلى  
تعلقه بمحبوب ، ولا بن سعيد غزل غلماني إلا أنه لا ينزع إلى درجة الفحش .  
فمن غزله الذي يشير إلى حرمانه وهجر محبوبه له قوله (١) :

طلب الوصل منك عين المحال	فألى كم أغر بالآمال
ما أبالي إذا وعدت بوعدي	وخدعت العنى بطول المطال
يا بخيلا بوصله كيف بالغت	فما جدت لي بوصل الخيال
لم تجد بالكرى وجدت بروحي	ان هذا الغاية في الضلال

وبالغ في هذا الاتجاه حتى يتلمس العذر لهاجره (٢) :

ولتغنه عما أوجب الهجر بيننا      وان لم يجد عذرا ، فعندى له عذر

ولكن هاجره يأتي على حين غفلة بعد هجر وصد دون ان يبدي سببا لوصله اول صده (٣) :

يا حبذا زورة تأتت	منها على غلصة اللواح
فلم أصدق بها سرورا	وظللت نشوان دون راح
أما منعت السلام دهرًا	ولا رسول سوى الرياح
قالت: ألا فانس ما تقضي	فمن يدع ما مضى استراح

.....

كلنا بت بين روض      والغصن والورد والاقاح

وبعد ان كان بخيلا بوصل الخيال ، لا يبخل عليه هنا بشئ (٤) :

ولا فيه من بخل ، ولا بي قناعة      كلانا بلذات التواصل معجب

بل هو مطواع رهن اشارته (٥) :

بالله مل معتقًا لاثما	فقال كالغصن شنته الصبا
وقال : ما ترغب ؟ قلت اشد	أدركت ان كلمتني المرغبا

(١) مسالك الابصار ٣ / ١٨٥

(٢) المصدر السابق ١٨٥

(٣) النفع ٣ / ٧٧

(٤) المصدر السابق ٣ / ٥٢

(٥) المصدر السابق ٣ / ٥٣ - ٥٤

فكان ما كان، فوالله ما  
ذكرته دهرى أو أغلبا

ويهدو محبوبه أحيانا وفيها مخلصا يستسهل الصعب في سبيله (١)

فقالوا: ألا قد خان عهدك، قلت لم  
يخن من إذا قربته يتقرب  
وكم دونه من صارم ومثقف  
فيما من رأى بدرا بهذين يحجب  
على أنه يستسهل الصعب عند ما  
يزور، فلا يجدى حصى وترقب

ويهدو أحيانا أخرى هاجرا متجنباً غادرا (٢):

هلى الهجر إلا ان يطول التجنب ؟  
ويبعد من قد كان منه التقرب ؟  
وتقطع رسل بيننا ورسائل  
ويمنع لقيانا نوى وتحجب  
الى الله أشكو عذركم ومالكم  
وقلنا له ذاك التعذب يعذب

ويلاحظ ان أغلب مقطعات غزله التي تعبر عن هجر وصد، كالأبيات الأخيرة، تعود الى فترة اشتداد احساسه بالغربة في تونس أو في مصر.

\*

\*

أما الجانب الخمرى في جلسات لهوه فلا يعدو ان يكون ترديدا لاجواء أبي نواس وأوصافه وتشابيهه، إلا أنه ترديد وصدى خافت لا تسرى فيه حيوية الصوت الاصلي:

فهذه بعض الاوصاف والتأثيرات المعهوده عند أبي نواس:

شربنا عليها قهوة ذهبية  
غدت تشرب الالباب أيا ن تشرب  
إذا ما شربناها لنيل مشرة  
تبسم عن درلها فتقطب  
أنت دونها الأحقاب حتى تخالها  
سرابا بأفاق الزجاجة يلعب  
كواكب أمست بين شربه ولم تخل  
بان النجوم الزهر تدنو وتقرب

(١) المصدر السابق ٥١/٣

(٢) المصدر السابق ٤٥/٣

ظللنا عليها عاكفين وليلنا      نهار الى ان صاح بالأيك مطرب  
صرعنا ، فامسى يحسب السكر قد قضى      عليها ، وذلك السكر أشهى وأعجب (١)

وعصته في الشرب هي العصبة النواسية التي ترى الفساد صلاحا وتكره التستر وتستقل  
من يكره المزاج (٢) :

لا يعرفون تسترا      السكر عند هم مباح  
متهتكون لدى المنى      وفساد هم فيها صلاح  
لا ينكرون سوى ثقل      لا يميل به مزاج  
أفنى الذي قد جمعوا      الكأس والحدق الملاح

وقد حاول ابن سعيد ، أثناء اقامته في العراق ، أن يستعيد الاجواء الخمرية النواسية في  
مواضعها الحقيقية . فعندما كان في بغداد اجتمع بالنجم بن شجير البغدادي وراء  
" مكثرا من ذكر قطر بل مع مافي النفس عنها من ذكر ابي نواس لها . فاقضى الحال  
المسير اليها ، وهي كروم وبساتين على الغربي من دجلة ، ثم اقتضى الاجتماع " ان قام  
بنظم هذه الابيات (٣) التي تسير على نمط الحكاية الخمرية النواسية :

قم نديمي لحانة الخمار      تنف ما قد أصابنا من خمار  
قم لقطر بل فان بسمعي      لفظها غير محوج للقمار  
وهذا أنا شذى من الدير دارت      كأسه قبل حث كأس العمار  
ثم جينا الى عجائز قم لا بس      سبعة مع الزنار  
نسج العنكبوت سترا عليها      كم به هتكت من الاستار  
قلت ما هذه ؟ فقال : شمس      ستروها بظلمة من قمار  
ثم وافى بساطع مستطيل      يترك الليل في رداء النهار  
لم نطق أن نزه شيئا على الذوق ، ويتناصر على الازهار

(١) النفح ٥٢/٣

(٢) المصدر السابق ٧١/٣

(٣) المقتطفة ورقة ٥٤

ويمكن في هذا المجال متابعة ابن سعيد في ترديد هـ فلا صدأ أبي نواس حتى في مبالغاته الشهيرة التي أخذها بدوره ممن سبقه من شعراء الخمرة أو التي زاد عليها حتى أوصلها إلى درجة التطرف الشديد .<sup>١</sup> فيها هو ابن سعيد يتحدث عن سكر يجعل الناس عبيدا في نظره ويربط بين وجوده وبين الخمرة :

يجرى الزمان طوعي	بكل ما أريد
الخمرة ملكتي . . .	فالخلق لي عبيد
فيها أنا إذا ما . . .	فقدتها فقيد
يا من يلوم بغيا	العذل لا يفيد
إذا عدمت كاسي	فليس لي وجود <sup>(١)</sup>

وقد تناول شعر ابن سعيد ، بالإضافة إلى ما ذكر ، موضوعات متعددة منها ما يدخل ضمن المدح أو الرثاء أو العتاب ومنها ما يمكن أن ينسب إلى شعر الرسائل الإخوانية ، وله قصيدة طويلة في مدح الحضرة النبوية قالها بعد أن تعذر حجه عند وصوله إلى الإسكندرية وأهميتها فيما تكشفه من شعور بالغرابة تمت الإشارة إليه ، أما فيما عدا ذلك فإنها لا تتجاوز مسحة المدح والتفخيم بما تورد ، من ذكر للفضائل والمعجزات .

### الناحية الفنية

من الحديث عن المظاهر الرئيسية في شعر ابن سعيد ومن الملاحظات الجانبية ، التي صحبت ذلك الحديث ، عن فنه ربما برزت بعض خصائصه الفنية الظاهرة .<sup>٢</sup> وسينصب الاهتمام هنا على هذه الناحية .

تكثر المصادر - ومن بينها مصنفات ابن سعيد نفسه - من ذكر المواقف الشعرية " الارتجالية " له عند مدحه للامراء او عند اشتراكه مع اصحابه في وصف جلسات اللهو والمناظر الطبيعية . ولو حططنا تلك الاخبار على محمل الجد دونما تمعن طويل في تلك الاشعار " المرتجلة "، لاعتقدنا ان البديهة والارتجال والانفعال العفوي يغلب على شعر ابن سعيد . ولكن التأمل حتى في تلك الاشعار التي قيلت " ارتجالا " يثبت عدم صحة ذلك الاعتقاد ، بل ويثبت العكس تماما .

وقد تكون تلك الاخبار صحيحة، وليس من داع للشك في صحتها ، ولكن يجمل بنا ان نتنبه الى ان لابن سعيد ، بحكم مهنته التصنيفية، وبحكم اهتمامه بحفظ الشعر ونظمه منذ الصغر، " تمرسا " طويلا بالاساليب والصور الشعرية . بل انه يمكن القول ان ذاكرته قد خزنت انماطا معينة من التعابير والتشبيه والافكار لتستخدمها " عند الحاجة " . . . وان مهمة ابن سعيد في تلك المواقف الشعرية الارتجالية التي تتطلب عمل البديهة تنحصر في ملاءمته بين ذلك المخزون الشعري وبين الموقف المعين . فمن شعره المرتجل قوله مخاطبا أحد اصحابه ، وقد تمت الاشارة الى ذلك من قبل (١) :

يا واطى النرجس ما تستحي      أن تطأ العين بالارجل ؟  
قابل جفونا بجفون ولا      تبتذل الرفع بالاسفل

ان تشبيه النرجس بالعيون تشبيه قديم معروف ثم ان المقابلة الذهبية بين ارفع وأرفع وأسفل وأسفل لا تحتاج الى " بديهة " من ابن سعيد المصنف الذي تخضع تأليفه لنظام دقيق، وحتى عبارة " جفونا بجفون " توازي لفظا الحكم الفقهي : " العين بالعين والسن بالسن " !

ويذكر ابن سعيد ان مقطوعته القطرلية، التي ورد ذكرها، قد قيلت ارتجالا ، ولكن اتضح لنا كيف ان تلك الابيات مجرد تكرار لمعان شائعة في شعراي نواس كانت مخزونة في ذاكرته منذ زمن بعيد ، أي منذ بداية عهد ، بالتقييد والنقل .

وبلاحظ في شعر ابن سعيد تكرار متواتر للمعاني الشائعة في الشعر العربي بحكم كثرة محفوظه ، وهذا التكرار ان دل على شيء فانما يدل على ان الذاكرة ، لا البديهة ، هي التي تسعف ابن سعيد في شعره الارتجالي . وقد تنبه الى هذا التكرار المحقق الذي حقق شعره في النفع (في طبعته المصرية الاخيرة) حين قال : " وأرى ان ابن سعيد يأخذ المعاني المسبوق بها فلا يحسن التعبير عنها حسنا يرضي بلغاء الادب ونقاد الشعر ، واكثر معانيه في قصائده ، كذلك " (١)

وعلى العموم فان كد القريحة عند ابن سعيد لا يتجاوز محصوله الصورة او الفكرة الغريبة ، المبالغ فيها ، الكثيرة التفاصيل ، المستحيلة أحيانا . وصوره - كما ذكر من قبل - تتصف بالجمود والسكون في معظمها .

ولقد أغرم ابن سعيد بما يسمى في البلاغة بحسن التعليل ، وله في ذلك أفكار كثيرة تبلغ حد المبالغة البعيدة والاحالة . من ذلك قوله يعلل وجود الريش في السهام (٢) :

قد كستها الطيور لما رأتهَا      كافات لها برزق عظيم

وقوله يعلل أيضا هجوم ثور على صاحب له (٣) :

ثار ثور السماء في الأرض لما      أن رأى منك نيرا قريبا

وقوله مفسرا لم لا يهب مدحواه الكواكب والصباح ، في مدح مزدوج (٤) :

لوم يخافوا تيه سار نحوهم      وهبوا الكواكب والصباح المسفرا

وربما عادت هذه القدرة على حسن التعليل في الشعر الى اللباقة الاجتماعية التي عرفت عن ابن سعيد ، فان من مقومات اللباقة امتلاك البراعة والقدرة على ابداء الاعذار والاسباب .

(١) انظر طبعة النفع التي راجعتها وزارة المعارف بمصر وصدرت باسم " دار مطبوعات المؤمن " ، ج ٨ ، ص ٥٦ في هامش الصفحة . وهذه الطبعة هي غير الطبعة المعتمدة في هذا البحث - انظر قائمة المصادر والمراجع ، ص ٥٨

(٢) المصدر السابق ٣٧/٣

(٣) القدح ٢

(٤) المغرب ١٧٥/٢

ويبدو ان ابن سعيد يلجأ الى كد القرينة والعمل الذهني المركز عندما ينظم في حالة هدوء وبعد عن أى نوع من انواع الانفعال - وقد نظم أغلب اشعاره وهو في هذه الحالة - اما عندما يكون تحت تأثير انفعال معين فانه يلجأ الى الاسلوب التقريرى المباشر وتخفي الصور بشكل ملحوظ، وحتى اسلوبه يفقد صقله ويقرب من الخشونة او بعض الركاسة . وهذا يدل على ان الصورة الشعرية عنده ليست مرتبطة بالتجربة الشعرية بقدر ارتباطها بالبراعة الذهنية وكد القرينة . ويتضح هذا التمييز بجلاء عندما نقارن بين اشعاره في الاعترا ب وبين اشعاره في المديح وفي الوصف . ففي الاولى نلاحظ أثرا للعاطفة ونفتقد الصور الدقيقة والاسلوب الصقل وفي الثانية نرى العكس تماما : عاطفة تكاد تكون معدومة بالفعل ، وعمل شعري خافى بالصورة ، يغلف بأسلوب صليل .

واسلوب ابن سعيد يفتقر الى التدفق والجزالة، وهو ان حاول اصطناعها وقع في تكلف واضح لا يلبث ان يكون مجوجا بعد بيتين او ثلاثة . ولتعويض ذلك يلجأ الى التأنق والصقل وهي طريقة تتناسب مع مذهبه في ايراد الصورة والفكرة . وعلى هذا الاساس جاء اسلوبه على الاغلب مثقلا بالبديع والمحسنات اللفظية بشكل واضح ، وقد اتضح لنا ذلك من امثلة سابقة . وهو ما يكاد يهمل التأنق والصقل الشديد حتى يقع في شئ من الركاسة تجعل من نظمه عبارات تصنيفية تربط بينها " انما " و " حيث " و " لكن " الخ من الادوات السائدة في النثر والتي يؤثر تكرارها على سلامة الاسلوب الشعري . فمن ذلك قوله في هذا البيت :

ولقد شكوت لهم إحالة دهم	ان لم اكن أرض بهم خدما
وقوله : والاماني تترى، ولا أحد ينصح،	ان لا يصنى الى قول ناصح
وقوله : ولكن أبى إلا يحن لغيركم	والأ يرى عنكم مدى الدهر مذ هب الخ الخ

### تأثيرات متعددة في شعره

بعد ان تعرفنا الى شعر ابن سعيد عن كثب ، يجعل بنا ان ننظر في التأثيرات التي سحبت ظلالها على شعره ، ولربما كان من الافضل التحدث عن هذه التأثيرات منذ البدء



الا ان عدم وجود خيط فكري شعوري يربط المادة الشعرية التي بين ايدينا جعل من الصعب تقديم الحديث عن تلك التأثيرات وتحديد مواقعها بدقة من نتاج ابن سعيد الشعري .  
ولربما جاز لنا ان نوجز اهم التأثيرات فيما يلي :

٠١ بيئة اشبيلية والاندلس : امتازت اشبيلية بنظافة شوارعها ، وأناقة مبانيها ، وترفاهلهها وظرفهم وكان طبيعيا ان يتأثر ابن سعيد بمظاهر الاناقة والرفقة والترف وهو الذي اضى سني شبابه في الحاضرة الاشبيلية، كما ان الطبيعة الاندلسية الجميلة كان لها أثرها في تعميق اهتمامه بالمنظر الطبيعي من حيث اتخاذه محورا شعريا او من حيث استخدامه في الصور البيانية .

٠٢ تأثير ثقافته العامة : عكس شعره كثيرا من مظاهر ثقافته الادبية والتاريخية والجغرافية الفلكية . وقد برزت بعض تلك المظاهر بصورة مباشرة في نتاجه الشعري . من ذلك قوله في رثاء المعظم بن الصالح الايوبي وقد مات قتلا على يد الترك بالسيف والنار والتراب<sup>(١)</sup> :

ليت المعظم لم يسر من حصنه	يوسا بولا وافى الى أملاكه
ان الطبايع ان رأته مكسلا	حسدته فاجتمعت على اهلاكه

وقوله في المعنى ذاته واصفا الخمرة<sup>(٢)</sup> :

قد جمعت فيها العناصر ان	غدت ماء ونارا في اناء هوا
-------------------------	---------------------------

وقوله ، وقد ورد البيتان من قبل :

ثار ثور السماء في الارض لما	ان رأى منك نيرا قمريا
جعل النطح بين روقيه بأسا	فتلقيته بخمس الثريا

وقوله في مدح ابن عمه<sup>(٣)</sup> :

"سؤول" هذا العصر، "حاتم" جوده ، "مهلبه" ان مارسته حروب

(١) القدح ٨

(٢) المقتطف الورقة ٥٤

(٣) النفع ٤١/٣ - ٤٢

إذا رَقَمَ القُرطاسَ قلتُ "ابنُ مقلّةٍ"      وإنْ نظَمَ الأشعارَ قلتُ "حبيبٌ"  
فتى سَيَّرَ الأمداحَ شرقاً ومغرباً      "أبو دلفٍ" من دونهِ و "خَصِيبٌ"  
وما أحرزَ "الصوليُّ" آدابَهُ التي      إذا ما تلاها لم يجبه أديبٌ

وربما كانت هذه الظواهر، على تعددها، ظواهر سطحية، ولكن الذي لا شك فيه، وكما ذكر من قبل، أن ثقافة ابن سعيد قد تغلغلت في فنه الشعري فتأثرت بها أفكاره وصوره في طريقة تركيبها ونحتها كما أن لغته الشعرية عكست مرارا مسحة النثر المستخدم في التأليف والتصنيف.

### ٣٠ تأثيرات شعرية سابقة ومعاصرة

تمت الإشارة إلى تكرار ابن سعيد للكثير من معاني الشعر العربي المشهورة، ورأينا كيف احتفظ بالآثر الخمرى وبالصدى النواصي خافتا في أشعاره الخمرية . بجانب ذلك يمكن تلمس بعض أثر لابي تمام، الشاعر الذي أورد له ابن سعيد في "عنوان المرقصات والطربات" شعرا يزيد على ما أورد له لاي شاعر آخر . وليس مستغربا أن يتأثر ابن سعيد بابي تمام . وهو الذي - على الصعيد النقدي - ينتمي إلى التيار الذي يعتبر أبا تمام اما ما في الشعر .

وي تجلّى هذا التأثير أكثر ما يتجلّى في الافتتاحيات وفي اكثاره من استخدام العبارة الانشائية المعهودة عند ابي تمام من مثل : قد كاثب، كذا فليجل الخطب ! . الخ . شبيه بذلك قوله في افتتاح قصيدة مدح :

بالعدل قمت، وبالسماح قدن، وجد لا فارقتك كفاية وعطاء

وافتاح - في المدح - آخر، وقد سار فيه على الأسلوب ذاته وطرزه بجناس لفظي بين الكرى والقرى :

جد لي بما ألقى الخيال من الكرى لا بد للضيف العلم من القرى

وهذه المحاولة في جمع فضائل المشاهير في شخص المدوح :

سَمَوْتُ هَذَا الْعَصْرَ حَاتِمُ جُودٍ مَهْلَبُهُ أَنْ مَارَسَتْهُ حُرُوبُ

عَلَى غَرَارِ بَيْتِ أَبِي تَعَامٍ فِي الْمَعْتَصَمِ :

أَقْدَامُ عَمْرٍو، فِي سَمَاحَةِ حَاتِمٍ فِي حِلْمٍ أُحْنَفَةٍ فِي ذِكَاةِ إِيَّاسٍ

وَالْوَاقِعُ أَنَّ هَذِهِ الْأَسَالِيبَ وَالْمَعَانِي اصْطَنَعَهَا أَوْ كَرَّرَهَا شُعْرَاءٌ عَدِيدُونَ بَيْنَ أَبِي تَعَامٍ وَابْنِ سَعِيدٍ، وَقَدْ لَا يَكُونُ التَّأْثِيرُ مُبَاشِرًا مِنْ أَبِي تَعَامٍ نَفْسَهُ، كَمَا أَنَّهُ لَيْسَ مِنَ الْيَسِيرِ اثْبَاتُ وَجُودِ تَقْلِيدٍ مُبَاشِرٍ عِنْدَ شَاعِرٍ لَاحِقٍ بِشَاعِرٍ سَابِقٍ عَبْرَ بَضْعَةِ آيَاتٍ، إِلَّا أَنْ الرَّاجِحُ - كَمَا تَبَيَّنَ - أَنَّ ابْنَ سَعِيدٍ، عَلَى الْعَمُومِ، يَتَحَرَّكُ ضَمْنَ تَيَّارِ الْمَحْدَثِينَ نَقْدًا وَشُعْرًا .

وَشُعْةُ أَثَرٍ مَغَايِرَ لِأَثَرِ أَبِي تَعَامٍ يُمْكِنُ تَلَمُّسُهُ فِي شِعْرِهِ : هَذَا الْأَثَرُ يَتِمَثَّلُ فِي نَوْعٍ مِنَ الصَّدَى الْخَافِتِ (أَيْضًا) لِلْمَتَنَّبِيِّ . وَقَدْ يَكُونُ مِنَ الْمُسْتَغْرَبِ اجْتِمَاعُ الْأَثَرَيْنِ - عَلَى مَا بَيْنَهُمَا مِنْ تَبَايُنٍ - فِي نَتَاجِ شِعْرَى وَاحِدٍ . إِلَّا أَنَّهُ إِذَا ثَبَتَ وَجُودُهُمَا مَعًا فَإِنَّ ذَلِكَ دَلِيلٌ آخَرٌ عَلَى انْعِدَامِ " الْخَاصِيَةِ الْمَوْحَدَةِ " فِي شِعْرِ ابْنِ سَعِيدٍ :

هَذِهِ قَصِيدَةُ عِتَابِ تَمَتُّ الْإِشَارَةِ إِلَى بَعْضِ آيَاتِهَا قَبْلَ قَلِيلٍ، يُوْجِّهَهَا ابْنُ سَعِيدٍ إِلَى ابْنِ عَمِّهِ وَزَيْرِ الْحَفْصِيِّينَ فِي تُونَسَ، وَفِيهَا تَظْهَرُ اقْتِبَاسَاتٌ مُبَاشِرَةٌ لِمَعَانٍ مَشْهُورَةٍ فِي شِعْرِ الْمَتَنَّبِيِّ . . . وَيَتَعَدَّى الْأَمْرَ مَجْرَدَ الْقِتْبَاسِ إِلَى مُحَاوَلَةِ اصْطِنَاعِ الْعَجَبِ الشَّدِيدِ بِالنَّفْسِ وَتَكْلُفِ الْجَوِّ الْمَعْهُودِ بَيْنَ الْمَتَنَّبِيِّ وَسَيْفِ الدَّوْلَةِ :

وَلَقَدْ كَسَبْتُ بِكُمْ عَلًا، لَكُنْهَا	صَارَتْ بِأَقْوَالِ الْوُشَاةِ هِبَاءً
وَلَقَدْ أَرَى أَنَّ النُّجُومَ تَقِلُّ لِي	حُجْبًا وَأَصْفَرُ أَنْ أُحِلَّ سَمَاءُ
فَلْيَهْجُرُوا هَجْرَ الْفَطِيمِ لَدَّرَهُ	وَيَسَاعِدُوا الزَّمْنَ الْخَثُونَ جَفَاءُ
فَلَقَدْ شَكُوتُ لَهُمْ إِحَالَةً وَدَّعُهُمْ	أَنْ لَمْ أَكُنْ أَرْضَى بِهِمْ خُدَمَا
أَيُّهُ فَذَكَرَهُمْ أَقْلًا، وَأَنَا	أُومِي إِلَيْكَ فَتَفْهَمُ الْإِيْمَاءُ
لَوْلَمْ يَكُنْ قَيْدًا لَمَا فَتَكَّتْ ظَهْرِي	أَنْتَ الَّذِي صَيَّرْتَهُمْ أَعْدَاءُ
أَنْ لَمْ يَكُنْ عَظْفًا فَعَمُوا بِالنَّوَى	أَنْ الْكَرِيمَ إِذَا أَهَيْنَ تَنَاءُ

ونلاحظ في البيت الثاني والرابع مبالغة في العجب بالنفس غير معهودة عند ابن سعيد .  
كما ان الشطر : " أنت الذي صيرتهم أعداء " معنى من معاني المتنبى المشهورة ،  
وعبارة " أومي الهك فتظلم الایما " من مخاطباته المعتادة لسيف الدولة .  
ومحاولة أخرى على غرار السابقة يحاول فيها ان يصطنع اسلوبا جزلا يقرب من افتتاحيات  
المتنبى في جوها العتد فوق المعاتب ، ذى الطابع البدوى :

أما واجب الا يحول وجيب	وقد بعدت دار ويا ن حبيب ؟
وليس اليف غير ذكر وحسرة	ودمع على من لا يرق صبيب
وخفق فؤاد ان هذا البرق خافقا	وشوق كما شاء الهوى ونحيب
وفائي اذا ما غبت عنكم مجد	وغيرى ذوا أو ان يغيب ..
ولولم يكن مني الوفاء سجية	لكنت لغير ابن الحسين أنيب

وهكذا يحسن التخلص لما أتى الى ذكر مدحيه ، ثم ليعاتبه على وتر المتنبى المشهور  
" فيك الخصام ، وانت لخصم والحكم .

أشكوك ، أم أشكو اليك ؟ فما عدت عدأتي حتى حان منك وثوب

ومن الطريف ان نلاحظ ان ابن سعيد في هذه القصيدة سرعان ما يفقد هذا النفس المصطنع ،  
فتتلاشى آثار الجزالة ويخفت العجب بالنفس والاحساس بالصدقة الحميمة ، لينتهي بهذين  
البيتين حيث النظم قريب من الركائكة والحديث ضعيف متها لك :

سأشكر ما ولى ، وأتهجر للذى	توالى ، على ان العزاء سليب
قدم في سرور ما بقيت ، فأنني	— وحقق — مذ د ب الوشاة كهب !

ما يدل على ان مطلع القصيدة فيه الكثير من الجهد والتكلف ومحاولة اللحاق بنموذج شاهر .  
وشبيه بذلك هذه المبالغة في الرثاء (١) :

بكت لك حتى الهاطلات السواكب	وشقت جبهها فيك حتى السحاب
فكيف بمن دافعت عنه ، ومن به	أحاطت ، وقد بوعدت عنه ، العصاب

وهي محاولة كسابقتها تنتهي بنوع من النظم المتهاك :

ولكن قضاء الله ، من ذا يرده ، نصبرا ! فقد يرضى الزمان المغاضب  
واني لأدري ان في الصبر راحة اذا لم تكن فيه عليّ مثالب

وسير ابن سعيد - خلف من سار وراء المعتبي - في تساؤل العارف المشهور :

أريقك رام ماء الغمامة أم خمر ؟ فيفصل ابن سعيد ويفرع (١) :

أوجه صبح أم الصباح ؟ ولحظها أم ظبا الصفاح ؟  
وشفرها أم نظيم در ؟ وريقها أم سلاف راح ؟  
وقدها أم قوام غصن ؟ وعرفها أم شذا البطاح ؟

الى جانب هذا التأثير بالشعراء السابقين ، يمكننا ان نتوقع وان نتلمس تأثرا ببعض الجوانب من شعر ابن سهل . فابن سهل - كما رأينا - صديق مقرب لابن سعيد ، وربما كان أكبر شاعر صلبه وعاشره وعاصره ، ولهما مقطعات مشتركة في وصف بعض جلسات اللهو والسمر في منتزهات اشبيلية ولقد شارك ابن سعيد صاحبه - على سعيد الشعر - أمورا عدة . شاركه الميل الواضح الى شعر الطبيعة والى الغزل الغلواني ، وشاركه الاحتفال بالصورة البيانية وشاركه الميل الى الاسلوب الرقيق في موضوعي الطبيعة والغزل خاصة ، الا انه لم يشاركه بالطبع مزاياء التي جعلت منه شاعرا مجيدا وأخصها حدة الانفعال <sup>وسلوة</sup> في الاسلوب وحتى في الصور التي شاركه فيها لم يكن بالمجيد اجادته . فلقد كان ابن سهل يأتي بالصورة البيانية اكمالا لرسم جو القصيدة بينما يأتي بها ابن سعيد مطولة مفصلة ولذا انها لا لغرض آخر . وكان ابن سهل فذا في اسلوبه السهل الرقيق بينما وجدنا ابن سعيد يقع في براثن النثرية الا نادرا .

فعلى سعيد الصور البيانية نرى ابن سهل يعر سراجا بصورة كهذه في وصف نهر (٢) :

وجرت بصفحة الصبا فحسبتها كفاتمق في الصحيفة أسطرا

(١) المصدر السابق ٧٧/٣

(٢) القدح ٧٥

فاذا بها عند ابن سعيد مفصلة ، <sup>حزنا</sup> فزلزل عليها  
 كأنما النهر صفحة كتبت  
 لما أبانت عن حسن منظرها  
 أسطرها ، والنسيم منشئها  
 مالت عليها الغصون تقروها

ويأتي ابن سهل بصورة مسرعة للطيور على الأغصان :

والطير قد قامت عليه خطيبة  
 لم تتخذ الا الراكعة منبرا

فاذا بالصورة عند ابن سعيد منظر متعدد الجوانب ، مفصل (١) :

أوما نظرت الى الحمامة تشدد  
 ونثاره تلقاه جائزة لها  
 ألقى عليها الطل بردا سابغا  
 والغصن من طرب بها يتأود  
 لما يزل بيد النسيم يبدد  
 فتناوئه طول الزمان يردد

\* \* \*

وبعد فما كان ابن سعيد في تركيبه النفسي رجل " تطرف " ولا " تأزم " بل كان  
 رجل " اعتدال وتوسط " واذا استطاع بسعة اطلاعه الشعري ان يصوغ شعرا ، فانه  
 لم يكن يمتلك من اسباب الزخم الشعوري المتدفق ولا من مزايا العقل الفكر النافذ ما يمكنه  
 من انتاج شعر يحمل صفات الشعر الجيد . وهكذا نرى كيف تبدأ قصائده ، بنفس خافت  
 لشاعر يتتبع خطاه لمنتهي بجهد مرهق في صياغة نظم تنعكس فيه آثار الثقافة وميل واضح  
 نحو التفنن في البيان والبديع ، وتبدو عليه بعض رقة في الاسلوب لا تلبث ان تضع في  
 تراكيب نثرية .

## خاتمة

شملت هذه الدراسة، التي حاولت ان تلمّ بالجوانب المختلفة في حياة ابن سعيد وآثاره، مقدمة عن عصره وبيئته، وفصولاً ستة تناولت على التوالي: تاريخ حياته، شخصيته وثقافته العامة، علمه ومصنفاته، جهود الجغرافية، آراءه النقدية، نتاجه الشعري.

في المقدمة، كان الالتفات بشئ من الاسهاب الى حياة المجتمع والثقافة في الاندلس خلال النصف الاول من القرن السابع الهجري، وذلك بسبب التفاعل القوي والصلة الوثيقة بين المظاهر الاجتماعية والثقافية وبين جوانب شخصية ابن سعيد الخصبة التي يمكن للدارس ان يلمس حضورها بشكل او بآخر فيما يتعلق بالنشاط العلمي التصنيفي، او النتاج الشعري، او الحياة الاجتماعية الجادة واللاهية، او ظاهرة الاسفار والرحلات على حد سواء. وثمة سبب آخر دعا الى الاهتمام بتلك المقدمة وهو عدم توفر ابحاث اجتماعية او ثقافية عن تلك الحقبة في الاندلس - بالذات - يمكن الاحالة اليها، فكان لابد لهذه الدراسة ان تعتني بهذا الشأن - قدر الامكان - حتى لا تبقى دراسة ابن سعيد معلقة دون اطارها الحضاري العام. وقد جاءت الاحكام والتقويمات في ذلك البحث التمهيدى حصيلة استقراء لمصادر الحقبة الاولى، بالدرجة الاولى، دون توكؤ على استنتاجات جاهزة لدى معاصرين محدثين للشئ الا لندرة وجود ابحاث علمية موثوقة، كما تقدم.

بعد تلك المقدمة التي تناولت بيانات ابن سعيد المختلفة وتدرجت معها من الاعم الى الاخص جاء الفصل الاول ليرسم الخطوط الرئيسية في تاريخ حياة ابن سعيد الحافلة بالحركة والاحداث بصورة تراعي التفاصيل من حيث تأكيدها للخط العام، وتحاول قدر الامكان - من ناحية اخرى - الا تطفئ الجزئيات على التناسب بين المراحل العامة.

ثم جاء الحديث عن شخصية ابن سعيد التي حاولت إعادة رسمها من ركام الاخبار والحكايات والنصوص، ولقد تمكنت - وارجو ان يكون ذلك بنجاح - من استخراج الخاصة المميزة لشخصيته او الخيط الذي يربط بين جوانب تلك الحياة المتنوعة، فوجدت انه التوسط او الاعتدال القائم على اساس من هدوء العاطفة وغبية التعقل والميل الى كثير من اللطف والتسامح . وقد عولجت في هذا الفصل علاقة التأثير والتأثير بين شخصية ابن سعيد وبين ثقافته العامة، وتم الالتفات الى نواحي هذه الثقافة من حيث علاقتها بميول ابن سعيد النفسية وحياته الشخصية .

وبعد ان تعرفنا الى ابن سعيد في بيئاته المتعددة ومعالم حياته الحافلة وكشفنا عن مكونات شخصيته وميزاتها وما يرتبط بذلك من نزعات وميول، كان لا بد من الالتفات الى انواع نتاجه في مختلف الميادين . وهكذا جاء الفصل الثالث لينتهى - تفصيلا - بالجوانب المختلفة في حياة ابن سعيد العلمية : فبحث حدود علمه واتجاهاته ، وأرّخ لشيوعه ، ثم عرض لمصنفاته مصفا مصفا في اطار من التقسيم النوعي، وبعد ذلك المصنف لموقفه - مصفا - من تيار المذاهب التصنيفية في الاندلس وعددت مزايا منهجه التصنيفي، ثم حددت اهمية جهوده مع اشارة الى مكانته وشهرته كما تتمثلان في نظرة القداماء والمعاصرين اليه .

وفي هذه المرحلة من البحث تهيأ المجال لتناول فروع انتاجه كالا على حدة . وهذا ما فعلته الفصول الثلاثة الاخيرة المهمة بجغرافيته ونقده وشعره على التوالي . والواقع ان الفصل الخاص بجغرافية ابن سعيد جاء عرضا عاما لجهده في حقل التأليف الجغرافي والرحلات بقصد اكمال الصورة والتبويب الى مكانة ابن سعيد في هذا الحقل، فلم تجر محاولة لتقييم مؤلفاته او نقدها، اولا لعدم الاطلاع على اهم مؤلف جغرافي له ، وثانيا - وهذا هو الاهم - لان ذلك من شأن علماء الجغرافية، فهم وحدهم الذين يمكنهم ان ينقدوا مؤلفاته ويربطوها بالتيارات والمدارس الجغرافية السابقة واللاحقة . ومن نافلة القول ان اشير الى ان عملا كهذا خارج عن مقدور هذه الدراسة ونطاقها ومسؤوليتها .



وبالمقابل، اعطيت عناية خاصة لآراء ابن سعيد النقدية ونتاجه الشعري . وثمة سبب هام للاعتناء بنقد ابن سعيد : ان هذا النقد قد لا يمثل جدة وطرافة في حد ذاته ولكن اهميته تكمن في انه تحكم في اختيار ابن سعيد للنصوص المختارة من الشعر والنثر، تلك النصوص التي تعتبر اليوم وثائق هامة في دراسة الشعر الاندلسي والشعر المصري . ونحن ان نعتمد عليها اليوم، فمن حسن التقبى ان نكون مدركين للمقاييس التي تحكم في اختيارها من بين النتاج الادبي كله في تلك العصور .

وقد أدت طبيعة البحث والمادة الى ان يجرى فصل الشعر في النهاية، لان شعر ابن سعيد كان متأثرا أبعد التأثير بغناهم النقدية من ناحية، وبثقافته التاريخية والادبية والجغرافية من ناحية اخرى، فكان لابد من التحدث عنه بعد جلاء تلك الجوانب كلها . الا ان الاهتمام بهذا التأثير لا يعني ان شعره قد درس من الخارج، فقد حاولت - جهد الطاقة - ان اتبع الظواهر النفسية والفنية فيه ، وكنت أحرص دائما على تبين " الجانب الاقوى " في قصائده ، بمعنى انني حاولت استخراج اقصى ما يسمح لي به الرصد المسؤول منها . واذا لم تكن نتيجة هذه الدراسة عن شعره في صالح مكانته الشعرية، فانها - على الاقل - كانت اول دراسة مستقصية حول ما وصلنا من هذا الشعر، وانها - بدراستها لشعر ابن سعيد - قد اسهمت بنصيب متواضع في محاولة درس الشعر الاندلسي خلال عصوره الاخيرة، فابن سعيد - كما رأينا - يعتبر احد شعراء تلك الفترة وشعره نموذج هام من نماذج شعرها .

واني لا رجو ان تكون هذه الدراسة قد قاربت حدود النجاح في التعريف بعلي بن موسى بن سعيد الغرناطي الاندلسي صاحب التواليف المشهورة والجهود المشكورة : هذا الرجل الذي ظهر في عصر غلب فيه التصنيف والنقل والرواية على الابتداع والتأليف والخلق، فبذل جهدا مشكورا في سبيل تسجيل نتاج المبدعين وحفظه لاجيال مقبلة ما كان بإمكانها ان تقدر ذلك النتاج - خاصة ذلك القسم الاندلسي المتأخر منه - لولا جهود ، واخلاصه . ولقد كان الرجل رجل اعتدال وتوسط فجاءت حياته وجاء نتاجه

في حدود التوسط والاعتدال . والذي يشوق في حياته الحافلة هو ارتباط هذه الحياة  
بأحداث العالم الاسلامي في القرن السابع ، وبدوله ورجالاته ارتباطا وثيقا بحيث يتمكن  
المرء من خلال دراسته لابن سعيد ان يدرك الميزات العامة التي يتصف بها العصر .

واذا جاز لي ان اسجل ميزة بسيطة لهذه الدراسة فهي انها حاولت ان تعيد  
خلق ابن سعيد الانسان والمصنف الناقد والشاعر من المصادر والنصوص الاصلية دون  
اعتماد على ابحاث جاهزة . اذ لم تسبق بتحقيق شامل عن حياته ولا بدراسات عن  
شخصيته او منهجه العلمي او آرائه النقدية او نتاجه الشهري .

وبحضرني في ختام الخاتمة ما قاله ابو الحسن - عليه الرحمة - في مقدمة " مشرقه " :  
" . . . وقطعت مدة طويلة في ترتيبه انسج والحم واقدّم واحجم ، الى ان اصبت الهدف (١) ،  
واتبعت - والحمد لله - ما سلف بما خلف ، والطل ينزل امام الويل ، والفضل للويل لا للطل .  
على اني معترف بالاتباع ، غير مدعٍ للابتداع ، منشد قول فاتح باب التادب :  
لئن نحت قبلي فهاج لي البكا      بكاها لقلت الفضل للمتقدم " .

محمد الانصاري  
بيروت : ايار ١٩٦٦

---

(١) أرجو ذلك . . .

ثبت بالمصادروالمراجع

- ١ - ابن الابار ، محمد بن عبد الله      التكملة لكتاب الصلة ، تحقيق الفرد بل وابن ابي شنب ،  
المطبعة الشرقية ، الجزائر ، ١٩١٩ .
- ٢ - ابن الابار ، محمد بن عبد الله      المقتضب من كتاب تحفة القادم ، اختيار وتقييد ابي  
اسحاق ابراهيم البليقي ، تحقيق ابراهيم اليباري ،  
المطبعة الاميرية ، القاهرة ، ١٩٥٧ .
- ٣ - ابن ابي زرع الفاسي      الانيس المطرب روض القرطاس ، امسالة ١٨٤٣ .
- ٤ - ابن الاثير ، ضياء الدين      المثل السائر في ادب الكاتب والشاعر —  
الجزء الثاني ، المطبعة البهية ، مصر .
- ٥ - ابن تغرى بردى ، ابو المحاسن      المنهل الصافي ، الجزء الثاني ، مخطوطة دار  
الكتب تحت رقم — ١١١٣ تاريخ .
- ٦ - ابن الخطيب ، لسان الدين      اخبار  
الاحاطة في ~~اصحاب~~ غرناطة ، نسخة مصورة عن مخطوطة  
الاسكوريال .
- ٧ - ابن خلدون ، عبد الرحمن      كتاب العبر ، الجزء السادس ، طبع بولاق .
- ٨ - ابن رافع ، السلامي      تاريخ علماء بغداد ، المسمى منتخب المختار ، طبع  
بغداد ، ١٩٣٨ .
- ٩ - ابن الزبير      صلة الصلة ، تحقيق أ . بروفنسال ، الرباط ، ١٩٣٧ .

- ١٠ - ابن سعيد ،على بن موسى  
بسط الارض في الطول والعرض ،تحقيق خوان خينيس ،  
معهد مولاى الحسن ،تطوان ، ١٩٥٨ .
- ١١ - ابن سعيد ،على بن موسى  
رايات البرزين وفايات المميزين ، تحقيق غريبه  
غومس ، مدريد ، ١٩٤٢ .
- ١٢ - ابن سعيد ،على بن موسى  
عنوان المرقصات والمطريات ،بوقاق ، ١٢٨٦ هـ ،  
وكذلك القسم المغربى من الكتاب ،تحقيق محداد  
عبد القادر ،الجزائر ، ١٩٤٩ .
- ١٣ - ابن سعيد ،على بن موسى  
الخصون الياضة فى شعرا" المائة السابعة ،تحقيق  
ابراهيم الابيارى ،دار المعارف بمصر ، ١٩٤٥ .
- ١٤ - ابن سعيد ،على بن موسى  
القدح المعلى فى التاريخ المحلى ،اختصره ابو عبد الله  
محمد بن خليل ،تحقيق ابراهيم الابيارى ،القاهرة ،  
١٩٥٩ .
- ١٥ - ابن سعيد ،على بن موسى  
المشرق فى حلى المشرق ،نسخة مصورة عن مخطوطة  
بالمكتبة التيمورية تحت رقم ٢٥٣٢ - تاريخ .
- ١٦ - ابن سعيد ،على بن موسى  
المغرب فى حلى المغرب ،الجزء الخاص بالاندلس  
وهو انه الاصل " وشي الطرس فى حلى جزيرة الاندلس"  
يقع فى جزئين ،تحقيق الدكتور شوقى ضيف ،دار  
المعارف بمصر ، ١٩٥٣ .

- ١٧ - ابن سعيد، على بن موسى  
المغرب فى حلى المغرب ، الجزء الاول من القسم الخاص  
بمصر وعنوانه الاصلى " الاغتباط فى حلى مدينة القسطنطينية " ،  
تحقيق الدكتورة : زكى حسن ، شوقي ضيف ، عميدة كاشف ،  
القاهرة ١٩٥٣ .
- ١٨ - ابن سعيد ، على بن موسى  
المقتطف من ازاهر الطرف ، نسخة مصورة عن مخطوطه  
مكتبة سوهاج تحت رقم ٣٠٣ ادب .
- ١٩ - ابن سعيد ، على بن موسى  
نشوة الطرب فى تاريخ جاهلية العرب ، نسخة مصورة بمعهد  
المخطوطات تحت رقم ١١٦٦ تاريخ .
- ٢٠ - ابن شاکر الکتبى  
فوات الوفيات ، الجزء الثانى ، طبعة بولاق ١٢٨٣ هـ .
- ٢١ - ابن عذارى المراكشى  
البيان المغرب ، الجزء الثالث ، تحقيق هويسى ميراند ،  
منشورات جامعة محمد الخامس ، الرباط ١٩٦٣ .
- ٢٢ - ابن فرحون بکرهاان الدين  
الديباج المذهب فى اعيان المذهب ، مطبعة المعاهد ،  
مصر ١٣٥١ هـ .
- ٢٣ - ابن فضل الله العمرى  
مسالك الابصار ، نسخة مصورة عن مخطوطه طومقيوسراى  
( رقم - ٢٧٩٧ ) ، الجزء الثالث والجزء الثامن .
- ٢٤ - ابو البقاء الرندى  
الوافى فى نظم القوافى ، نسخة مصورة عن مخطوطه " ك "

٢٥ - أشباخ ، يوسف

تاريخ الاندلس في عهد المرابطين والموحدين ، ترجمة  
محمد عبد الله عنان ، الجزء الثاني ، منشورات " بيت  
المغرب " بالقاهرة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة  
والنشر ١٣٥٩ هـ - ١٩٤٠ م .

٢٦ - بالنشيا ، أنجل جنثالث

تاريخ الفكر الاندلسي ، ترجمة الدكتور حسين مؤنس ،  
الطبعة الاولى ، من مختارات الادارة الثقافية بجامعة  
الدول العربية ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ،  
١٩٥٥ .

٢٧ - التجاني ، عبد الله

رحلة التجاني ، تحقيق حسن حسين عبد الوهاب ، المطبعة  
الرسمية ، نشرات كتابة الدولة للمعارف ، تونس ١٩٥٨ .

٢٨ - جب ، هاملتون

دراسات في حضارة الاسلام ، ترجمة الدكاترة : احسان  
عباس ، محمد نجم ، محمود زايد ، دار العلم للملايين  
بالاشتراك مع مؤسسة فرنكلين ، بيروت ١٩٦٤

٢٩ - جبور ، جبرائيل

ابن عسدره وعقده ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ،  
١٩٣٣ .

٣٠ - حتى ، فيليب

تاريخ العرب ( مطول ) بالاشتراك مع الدكتور جبرائيل  
جبور والدكتور ادورد جرجي ، الجزء الثاني ، الطبعة  
الرابعة ، دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع ، بيروت  
١٩٦٥ .

- ٣١ - حسن ، زكى محمد  
الرحالة المسلمون في القرون الوسطى ، دار المعارف بمصر  
١٩٤٥ .
- ٣٢ - حسن ، زكى محمد  
فنون الاسلام ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ،  
١٩٤٨ .
- ٣٣ - زيدان ، جرجى  
تاريخ آداب اللغة العربية ، الجزء الثالث ، مطبعة  
الهلال ، مصر ١٩٣١ .
- ٣٤ - السيوطى ، جلال الدين  
بغية الرعاة ، الطبعة الاولى ، القاهرة ١٣٢٦ هـ
- ٣٥ - السيوطى ، جلال الدين  
حسن المحاضرة ، الجزء الاول ، القاهرة ١٣٢١ هـ
- ٣٦ - عباس ، احسان  
تاريخ الادب الاندلسى ( عصر سيادة قرطبة ) ، الطبعة  
الاولى ، دار الثقافة ، بيروت ١٩٦٠ .
- ٣٧ - عباس ، احسان  
تاريخ الادب الاندلسى ( عصر الطوائف والمرابطين )  
الطبعة الاولى ، دار الثقافة ، بيروت ١٩٦٢ .
- ٣٨ - الغبريني ، احمد  
عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء فى المائة السابعة  
ببجايه ، تحقيق محمد بن ابي شنب ، المطبعة الثعالبية  
الجزائر ١٣٢٨ هـ - ١٩١٠
- ٣٩ - القلقشندى ، احمد  
صبح الاعش ، الجزء الثالث والجزء الرابع والجزء الخامس  
دار الكتب الخديوية ، المطبعة الاميرية ، القاهرة ١٩١٤

- ٤٠ - القلقشندى احمد  
قلائد الجمان فى التعريف بقبائل عرب الزمان ، تحقيق  
ابراهيم الابيارى ، للطبعة الاولى ، نشر دار الكتب ،  
القاهرة .
- ٤١ - القلقشندى احمد  
نهاية الادب فى معرفة انساب العرب تحقيق على  
الخاقانى ، منشورات دار البيان ، بغداد ، ١٩٥٨ .
- ٤٢ - كراتشكوفسكى ، أ.ي .  
تاريخ الادب الجغرافى العربى ~~الجزء الاول~~ \* القسم الاول ،  
ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم ، من مختارات الادارة  
الثقافية فى ~~جامعة~~ <sup>جامعة</sup> الدول العربية ، لجنة التأليف والترجمة  
والنشر ، القاهرة ، ~~١٩٦١~~ ١٩٦١ .
- ٤٣ - مجهول  
الحلل الموشية فى ذكر الاخبار المراكشية ، تحقيق  
د . س . علوش ، مطبوعات معهد العلوم العليا المغربية  
رباط الفتح ١٩٣٦ .
- ٤٤ - المقرئ ، احمد  
ازهار الرياض ، الجزء الثالث ، طبعة مصر .
- ٤٥ - المقرئ ، احمد  
نفخ الطيب ، تحقيق محيى الدين عبد الحميد ، لاجزاء :  
الاول والثالث والرابع والخامس ، الطبعة الاولى ، المكتبة  
التجارية الكبرى ، القاهرة ١٩٤٩ .
- ٤٦ - المنونى ، محمد  
العلوم والاداب والفنون فى عهد الموحدين ، منشورات  
معهد مولاى الحسن ، المطبعة المهدية ، تطوان (المغرب)  
١٩٥٠ .



- ٤٧ - الناصري ، احمد  
الاستقصاء لخبار دول المغرب الاقصى ، تحقيق جعفر  
الناصرى ومحمد الناصري ، الجزء الثانى ، دار الكتاب  
الدار البيضاء ، ١٩٥٤ .
- ٤٨ - ياقوت الحموى  
معجم الادباء ، الجزء السادس عشر ، مطبوعات دار المأمون  
بمراجعة وزارة المعارف ، مصر .
- ٤٩ - ياقوت الحموى  
معجم البلدان ، دار صادر ودار بيروت ، بيروت ١٩٥٥

#### مراجع عامة

- ٥٠ - الموسوعة الاسلامية  
مادة : " ابن سعيد المغربي "  
مادة : " جغرافيا "

#### مراجع اجنبية عامة

- ٥١ - Brockelmann, C., Geschichte der Arabischen  
Litteratur, supplementband  
III , Leiden , 1942.
- ٥٢ - Kammerer , A. , La Mer Rouge , L'Abyssinie ,  
et l'Arabie depuis l'Antiquité,  
vol. I , Le Caire ; 1935.

فهرس المحتويات

<u>الموضوع</u>	<u>الصفحة</u>
تمهيد : هذا البحث	١
مقدمة : عصر ابن سعيد وبيئته	٨
الفصل الاول : تاريخ حياة ابن سعيد	٦١
الفصل الثاني : شخصيته وثقافته العامة	٨٥
الفصل الثالث : علمه ومصنفاته ومنهجه	١٢٠
الفصل الرابع : ابن سعيد الرحالة الجغرافي	١٧٦
الفصل الخامس : آراءه النقدية	١٩٢
الفصل السادس : شعر ابن سعيد	٢١٥
خاتمة	٢٥٢
المصادر والمراجع	٢٥٦
فهرس المحتويات	٢٦٢

## خلاصة

لأطروحة : " ابن سعيد ، حياته وأثـاره " .

---

هذا بحث تعريفى شامل لمصنف ورحالة واديب وشاعر من العصر الموحدى فى الأندلس ، هو عليّ بن موسى بن سعيد المتوفى سنة ٦٨٥ هـ / ١٢٨٥ م . والهدف من هذا البحث ، الذى اُلـمَّ بمختلف الجوانب الشخصية والعلمية عند ابن سعيد ، تقديم دراسة شاملة ومستقصية عن عَـلَمٍ من أعلام النهضة الثقافية الاخيرة فى الاندلس ومصنّف من كبار المصنّفين العرب فى القرن السابع ( الثالث عشر الميلادى ) ، هذا المصنّف الذى تُعتبر كُتُبُه ، وفى طليعتها " المُغرب فى حلى المُغرب " ، وثائق هامة فى دراسة الادب الاندلسي عامة والادب المصرى والشامى فى العهد الايوبي .

يقع هذا البحث فى مقدمة وستة فصول .  
تسهم المقدمة بعصر ابن سعيد وبيئاته : الاقليمية والمحلية والعائلية ، فتوجزُ خصائص الوضع السياسى والثقافى فى المشرق والمغرب فى ذلك الوقت ، ثم تلتفتُ بشئٍ من التفصيل الى الوضع السياسى والثقافى فى الاندلس فتتبعُ التطورات السياسية الهامة فى النصف الاول من القرن السابع وتذكرُ خصائص المجتمع والثقافة فى ذلك الوقت مشيرةً الى مواقف المثقفين من وضع مجتمعهم ، وخط سير العلوم المختلفة ، الادبية والجغرافية خاصة ، والمراكز الثقافية الشهيرة . وبعد ذلك تنتقل الى تقديم صورة شاملة عن بيئة اشبيلية من مختلف جوانبها وتتبع ذلك بحديث موجز عن أسرة بني سعيد ونشاطها الثقافى بقصد اعطاء فكرة عن بيئة ابن سعيد العائلية .

ويختص الفصل الاول بتاريخ حياة ابن سعيد ، حيث يعيد صياغة هذا التاريخ من الاخبار والروايات المتفرقة حسب الترتيب الزمني ليرافق ابن سعيد في حياته المبكرة في وطنه الاندلس وفي رحلاته الى اقطار المشرق بعدئذ .

اما الفصل الثاني فيبحث في شخصية ابن سعيد وثقافته العامة ومركزه على عوامل تكوين شخصيته ثم على المزايا والخصائص التي نشأت تأثرا بتلك العوامل . ويتحدث الفصل الثالث عن علمه ومصنفاته ومنهجه فيعرض على التوالي : لحدود علمه واتجاهاته ثم لاساتذته ثم لمصنفاته على اختلاف انواعها ثم لمنهجه في التأليف .

ويأتي الفصل الرابع ليتحدث عن ابن سعيد الرحالة الجغرافيا في حسب الترتيب التالي : نظرة في جغرافيته الادبية حيث دخل التصور الجغرافي في اساس تركيب كتابيه الادبيين الكبيرين " المغرب " و" المشرق " ، ثم حديث عن ادب الرحلة عنده على ضوء ما تركه لنا من مذكرات عن زياراته لمصره ثم عرض لجهوده في الجغرافية الخالصة .

وشغل الحديث عن آرائه النقدية الفصل الخامس ، حيث التفت الى مواقفه النقدية العامة وموقفه من التيارات النقدية في تاريخ الادب العربي ،

ثم فصلت آرائه . الخاصة - او ما يمكن تسميته بنقده  
التطبيقي الموضوعي - فيما يتعلق بالشعر والنثر على  
حد سواء . .

وجاء الفصل السادس والاخير من هذا البحث ليتحدث  
عن شعر ابن سعيد . وقد عرضت في هذا الفصل  
المظاهر الرئيسية في شعره ثم التفت الى خصائصه  
الفنية والى المؤثرات المتعددة التي أثرت فيه .  
وعلى العموم فقد رُوي في هذا البحث - عبر مختلف  
فصوله - الالتفات الى ميل ابن سعيد الادبية ومزايده  
النفسية وآرائه النقدية في حد ذاتها اولاً ، استيفاءً لمتطلبات  
البحث العلمي ، ومن حيث تأثيرها في مصنفاته ثانياً  
تحقيقاً لاحد اهداف هذه الرسالة . فاذا كانت <sup>بعض</sup> تلك الآراء  
والميول لا تنال اعجابنا الآن من حيث هي ، فانها قد اثرت  
في مصنفات تعتبر وثائق مهمة للدارس الحديث المهتم بتاريخ الادب  
العرب ، ولا بد له اذا اراد ان يحسن استعمالها من التنبُّه  
الى المؤثرات التي اثرت فيها .